

محمد السباعي

الأبطال

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الجيزة

ملخص كتاب الأبطال

لخصه الشيخ عبد الرحمن البرقوقي

ملخص المحاضرة الأولى

البطل فى صورة إله

موضوع هذا الكتاب هو الكلام عن عظماء الرجال - تاريخ عظماء الرجال هو التاريخ بخلافه ١ - فائدة ذكرى العظماء - أهم ما فى الفرد أو الأمة دينها - ما هو الدين ؟ ٢ - الوثنية وآراء العلماء ٤ - فى كل دين عنصر من الحق ٥ - حقيقة الوثنية وكيف ابتدأت ؟ - عظمة الكون ٨ - فى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد ١٠ - أكبر آيات الخالق هو الإنسان - كان الأقدمون أفهم منا لجلال هذا الكون ١٢ - معنى عبادة الأبطال ١٣ - ضلال منكرى البطولة ١٤ - عقيدة إجلال الأبطال فطرية فى الإنسان - أبعد الإنسان من إجلال الأبطال هم الفرنسيون - والفرنسيون مع ذلك يقدسون فولتيرهم ١٦ - فضيلة إجلال الأبطال هى الصخرة الراسخة التى تمنع الدول من السقوط ١٧ - وثنية قدماء الترويج - جزيرة آيسلندة مقر تلك الوثنية ١٨ - أول من دوّن أخبار هذه الوثنية ١٩ - أول خواص هذه الوثنية هو الإيمان بأن القوى الكونية هى أرواح كبيرة مدهشة مقدسة - فرق ما بين نظر المتوحشين الكائنات ونظرنا إياها اليوم ٢٠ - جوهر هذه الوثنية ٢٢ - رأى وثنيى الشمال فى خلق الدنيا ٢٣ - تشبيههم الحياة بشجرة

٢٤ - تأثير البطل ٢٥ - تأثير أودين فى أمم الشمال ٢٦ - تاريخ أودين - رأى المؤرخين فى أودين ٢٧ر٢٨ - كل نعت كان فى الأصل اسماً - كيف صار أودين إلهاً ٢٩ر٣٠ - اختراع أودين لحروف الهجاء والشعر ٣١ - إفراط أمم الشمال فى حب أودين ٣٣ - إخلاص أمم الشمال فى وثيتهم ٣٤ - فرق ما بين وثيتهم فى الأول وفيما بعد - عقائدهم كما فى الأدا - الشجاعة هى أعظم أصول الشرائع ٣٥ - خرافات الاسكاندناف .

ملخص المحاضرة الثانية

البطل فى صورة رسول

محمد - الإسلام

من أكبر العار القول إن محمداً كذاب - ومثل هذا القول نتيجة أجيال الكفر وخبث القلوب ٤٩ - الرجل الكاذب لا يستطيع أن يبنى بيتاً من الطوب فكيف يوجد ديناً - على المرء أن يسير فى جميع أمره طبق قوانين الطبيعة - محال أن يكون الرجل الكبير كاذباً ٥٠ - إخلاص الرجل الكبير ٥١ - كلمات الرجل العظيم ضرب من الوحي - الهفوات لا تترى بصدق الرجل العظيم ٥٢ - من أكبر الهفوات أن يحسب المرء أنه برىء من الهفوات ٥٣ - العرب وصفة جزيرة العرب - التدين - سفر أيوب كتب فى بلاد العرب ٥٥ - الحجر الأسود والكعبة - بئر زمزم ٥٦ر٥٧ - مكة ٥٧ر٥٨ - مولد محمد (عليه السلام) ٥٩ - نشأة النبى وقيام جده وعمه بتربيته وسفره الشام والتقاؤه ببجيرا الراهب ٥٩ر٦٠ - أمية النبى ٦٠ - صدق النبى منذ فتائه - الابتسام الصادق والكاذب ٦١ - عيشته الهادئة وقصته مع السيدة خديجة ٦٢ - إخلاص النبى وصدق نبوته وإنه كان نافذ البصيرة لا يتقيد بالاصطلاحات - من مزايا الرجل العظيم نظره من خلال الظواهر إلى البواطن

وأنه لا يتقيد بالتقاليد والعادات ٦٣ر٦٤ - اختلاء النبي بنفسه واعتزاله الناس
شهر رمضان ٦٤ - ابتداء البعثة - حقيقة الإسلام وكلمة جايته فيه ٦٥ر٦٦
الوحي وجبرائيل ٦٦ر٦٧ معنى كلمة محمد رسول الله - فضل السيدة خديجة
التي هي أول من آمنت به ٦٧ - الدعوة إلى الإسلام وما لاقاه النبي في ذلك
- المأدبة التي اجتمع فيها أربعون من أقرباء النبي وما أظهره على من المروءة
والنجدة وفضل على ٦٨ - استياء قريش من عمل النبي - إشارة أبي طالب
على النبي بإخفاء دعوته وعزيمة النبي - استمرار النبي في تأدية الرسالة
ووجوده الشدائد ٦٩ - تألب قريش على قتل النبي وهجرته بعد ذلك إلى
المدينة ٧٠ - الرد على الطاعنين على نشر الإسلام بالسيف ٧١ - عدل
الطبيعة ٧٢ - كان الإسلام خيراً من النصرانية في تلك الأوقات ٧٣ - إتيان
الإسلام على وثنية العرب والعقائد الذائعة في تلك الأيام ٧٤ - القرآن
وإعجازه ٧٥ - من فضائل القرآن الإخلاص - الإخلاص منشأ الفضائل
٧٦ر٧٧ - المعجزات في نظر الإسلام ٧٧ - الرد على متهمي الإسلام
بشهوانيته ٧٩ - تواضع النبي وتقشفه ٨٠ - مكرمات النبي - براءة النبي من
التصنع والرياء - ٨١ - ما كان النبي بعبابث - التلاعب بالحقائق من أقطع
الجرائم - من خلال الإسلام التسوية بين الناس ٨٢ - الزكاة في الإسلام -
الجنة والنار في نظر القرآن - الصيام في الإسلام ٨٣ - منزلة الإسلام في
نفوس المسلمين - تأثير الإسلام في العرب وفضله عليهم ٨٥ .

ملخص المحاضرة الثالثة

البطل في صورة شاعر

دانتي .. شاكسبير

العظيم يمكنه أن يكون عظيما في كل فن ٨٧ - الفرق بين الشاعر والنبى
- ويل الذين لا يفقهون السر الإلهي الموجود في الكائنات ٨٩ - فضل
الأنبياء والشعراء على الناس ٩٠ - الفرق بين الشعر الحر والكلام الحر -
حقيقة الشعر ٩٢ - لا يزال في الناس غريزة إجلال العظيم على الرغم من
الشك والكفر والاستخفاف المتفشية في هذه العصور ٩٤ و ٩٥ - إجلال
الناس لدانتي وشاكسبير ٩٥ و ٩٦ - غموض تاريخ دانتي - صورة دانتي
ودلالاتها على أخلاقه ٩٦ - مولد دانتي ونشأته ٩٧ - كل شعر لا يصلح أن
يتغنى به فما هو شعر - الشعر الكاذب مؤلم ١٠٢ - الطبيعة لا تكشف
أسرارها إلا للولوع بها والمحِب لها المخلص - الحب الصادق أول هاد إلى نجايا
الحقائق ١٠٥ - حديث الغادة فرانسيسكا وعاشقها ١٠٦ - من لم يعرف
القسوة لا يعرف الرحمة ١٠٧ - فرق عظيم بين ما يخرج من أعماق النفس
وبين ما يخرج من ظواهرها ١١٢ - العمل في صمت خير من العمل في
جلبة - قيمة كل امرئ ما يحسن ١١٤ - شاكسبير وعظمته ١١٥ - روايات
شاكسبير ١١٧ - أصبح قياس لمقدار عقل الرجل ١١٨ - قيمة المرء بمقدار
بصيرته - ما يجب على الشاعر الكاذب ١٢١ - أفعال المرء وأقواله دليل عليه
- البصيرة مستحيلة الوجود بلا أثر ولا أخلاق ١٢٢ - الطبيعة والحقائق
للخسيس اللئيم كتاب مختوم - كان شاكسبير غير متعمد ١٢٣ شاكسبير
للإنكليز أفضل من الهند - ستذهب الهند ولكن شاكسبير لا يذهب ١٢٧ .

ملخص المحاضرة الرابعة

(البطل فى صورة قسيس)

لوثر - البروتستانتية - نو كس - البيوريتانية

من هو القسيس ؟ - القسيس الحقيقى ١ - كان لوثر ونوكس قسيسين مصلحين ٢ - كما أن العظماء يبنون الأديان كذلك قد يهدمونها وقد يكون الهدم ضروريا ٣ - الإنسان سائر فى درج الرقى ٤ر٥ - فساد العقائد وتفشى الشك والإلحاد من أسباب إصلاح الأديان ٦ - معنى الوثنية وسبب مقاومة الأنبياء إياها ٨ر٩ - لوثر فى مقاومته مسألة الغفران وما شابهها ١٠ - من الخطأ الظن أن البروتستانتية تحت عبادة الأبطال والثقة بزعماء الدين ١١ - البروتستانتية منشأ الملوكية الصادقة - رأى الشخصى فى العبادة ليس أمراً جديداً فى العالم ١٢ - ليست الفوضى نتيجة البحث الحر ولكنها نتيجة الكذب وضعف الإيمان ١٣ - لا بأس على غير العظيم أن يعتقد رأى العظيم - مولد لوثر ١٤ - أبو لوثر - لوثر وهو تلميذ ١٥ - موت « ألكسيس » صديق لوثر بالصاعقة وتأثير ذلك عليه ١٦ - لوثر وهو قسيس ١٧ - تأثير الإنجيل فى نفس لوثر - رؤية لوثر مدينة رومة لأول مرة ١٨ر١٩ - غواية البابوية إذ ذاك ١٩ - كان البابا يبيع الناس عفو الله - تحكك أحد أتباع البابا بلوثر فى قريته ٢٠ - ثورة لوثر ضد البابا وكتابه رسالة يرد بها عليه - مقاومة البابا للوثر وأمره بإحراق كتاباته ٢١ - حنق لوثر على البابا وإحراقه لائحة البابا ٢٢ - كان لوثر فى مقاومته أضايل البابا كالأنبياء فى مقاومة الأصنام ٢٣ - حفلة ورمز وظهور لوثر هناك ٢٤ - تأثير دعوة لوثر فى نهضة أوروبا ٢٥ - مما امتاز به لوثر ثورته فى وجه

الدين دون إراقة الدماء - ومن مزاياه التسامح - ومن مزاياه الشجاعة ٢٥ -
عدة مزايا للوثر ٢٨ر٢٩ر٣٠ - وجه لوثر ودلالته على أخلاقه - آخر كلمة
للوثر ٣٠ - تشعب البروتستانتية ٣١ - رحلة القسيس تيندال إلى بلدة لوثر
وترجمته الإنجيل هناك ٣٢ - جامعتا كامبرج وأكسفورد في تلك الأوقات -
تأثير الإنجيل في أدب الإنكليز - الإنكليز قبل الإنجيل ٣٣ - تأثير الإنجيل في
أخلاق الإنجليز ٣٤ - البيوريتانية في أول أمرها وأخلاق البيوريتاني
٣٦ر٣٧ر٣٨ر٣٩ - البيوريتانية في أمريكا ٣٩ر٤٠ - تأثير البيوريتانية
في أسكوتلاندة - نوكس في أسكوتلاندة تاريخ نوكس ٤١ر٤٢ - إخلاص
نوكس ٤٣ - شجاعته ٤٤ر٤٥ - نوكس مع الملكة ماري ٤٥ر٤٦ -
التسامح الحقيقي ٤٧ - مذهب نوكس ٤٩ -

ملخص المحاضرة الخامسة

« البطل في صورة كاتب »

جونسون - روسو - بارنز

الكاتب صنف جديد غريب من البطولة ٥١ - الكاتب صنفان جيد وردى
٥٢ - طبيعة الرجل الكاتب ٥٣ - أكبر كتاب القرن الثامن عشر هو جيتا ٥٤ -
كلامنا الآن عن أكبر أبطال القرن السالف جونسون وبارنز وروسو - الشكوى
من اختلال نظام المجتمع ٥٥ - مسألة الكتاب والكتب أصل كل اختلال ٥٦ -
صناعة الكتابة أعجب ما أبدع الإنسان - فضل الكتب ٥٧ - منشأ الجامعات
٥٨ر٥٩ - الكتب خير الجامعات الآن - الكتاب هم الكنيسة الفعالة في الأمم ٦٠
- ما الأدب إلا جلاء لأسرار الله ٦١ - تأثير الأدب في الحكومة ٦٢ - الكتاب
أشرف نتاج ذهن البشرى ٦٣ - مع خطورة شأن الكتاب فإنهم في أسوأ حال

٦٤ - لا ضير على الحر أن يكون فقيراً ٦٥ - كيف يعرف الكاتب الكبير الذى يستحق المعونة ٦٦ - من أسوأ الأحوال ترك الكتاب للصدف ٦٧ - داء الفوضى الكتابية أصل سائر الأمراض فداوه تشف المجتمع - فى الصين يحاولون اختيار ملوكهم من بين أدبائهم ٦٨ - من أكبر الآفات الإلحاد والكفر - الإلحاد فى القرن الثامن عشر ٧٠ ر ٧١ - أصل الآفات الشك ٧٢ - الكفر المحض خير من الشك ٧٣ - الإيمان نتيجة الذهن الصحيح - ليس الشك نفسه جريمة ٧٥ - مضار الشك فى كل شىء ٧٦ - أولى بالإنسان أن يهتم بأمر نفسه - وأحق الناس بهذه النصيحة أولئك الذين يطوفون الأرض لإصلاح الناس ٧٨ ر ٧٩ فى أزمان الكفر كان يعيش جونسون وبارنز وروسو ٧٩ - جونسون ٨١ - حكاية الخذاء ٨٢ - تعاليم جونسون ٨٥ - كتابات جونسون - أسلوب جونسون قاموس جونسون - العبرة بالمعانى دون الألفاظ ٨٦ - اللورد بوزيل صاحب جونسون وأكبر مقدسيه - الخلطة لا تنهب بإجلال الأبطال ٨٧ - روسو - الجلد والصبر هما أول شروط البطولة ٨٨ - أخلاق روسو - قصة روسو مع السيدة جنليز ٨٩ - حديث روسو مع زائره الريفى ٩٠ - مكانة روسو من الكتابة ٩١ - إساءة العالم روسو ٩٢ - روبرت بارنز ٩٣ - والد بارنز ٩٤ - بارنز وهو صبي ٩٦ - بارنز أكبر نوابغ البريطان فى القرن الثامن عشر ٩٧ - حديث بارنز الساحر ٩٨ - ميرابو وبارنز ٩٨ ر ٩٩ الحكومة وبارنز - أهم صفات بارنز الإخلاص ١٠٠ - إجلال الأبطال هو العزاء عن شقائهم ١٠١ - وفدة بارنز على أدنبرج ١٠٢ - الشهرة ضياء يريك حقيقة الرجل ١٠٣ - ما عناه بارنز ١٠٤ .

ملخص المحاضرة السادسة

البطل فى صورة ملك

كرومويل - نايلون

الثورة فى العصور الحديثة

الثورة الإنكليزية

خلاصة أعمال المجتمع الإنسانى هو الاهتداء إلى أعقل الرجال وتقليده الحكومة وإعطائه الخضوع والطاعة ١٠٥ - أعقل الرجال هو أيضا أكرمهم وأبرهم ١٠٦ - الأمنى والآمال ١٠٦ر١٠٧ - أصل كل فتنة جعل غير الكفاء على رؤوس الأعمال ١٠٧ر١٠٨ - موضوع حقوق الملوك المقدسة وبطلانه ١٠٨ر١٠٩ - تفصيل حقوق الملوك ١٠٩ - الثورة الفرنسية حق وإن كان حقا ملتفعا فى شواظ الجحيم ١١١ - ثوار الثورة الفرنسية وعدم احترامهم الأبطال ١١٤ - منهب الحرية والمساواة ومعناه ١١٥ :

المحاضرة الأولى

« البطل فى صورة إله »

إنما يضمنى وإياكم هذا المقام وتواليه للكلام شيئاً عن عظماء الرجال ومظاهرهم على مراسح الحياة والأشكال التى تشكّلوها فى تاريخ البشر وآراء الناس فيهم وماذا أحدثوا من الأعمال - للكلام عن الأبطال وعما استقبلهم به أهالى أزمانهم وعما صنعوا هم من جلائل الأمور - ولعل هذا مبحث عويص لا أنى موفيه حقه - مبحث لعمر الله قصى الغاية يشق على نزع الخواطر مرماه ويقع وراء جهد الأوهام منتهاه. وما ظنكم بمبحث هو التاريخ بمخافيره إذ فى اعتقادى أن التاريخ العام - تاريخ ما أحدث الإنسان فى هذا العالم - إنما هو تاريخ من ظهر فى الدنيا من العظماء ، فهم الأئمة وهم المكيفون للأمور وهم الأسوة والقدوة وهم المبدعون لكل ما وفق إليه أهل الدنيا وكل ما بلغه العالم ، وكل ما تراه قائماً فى هذا الوجود كاملاً متقناً فاعلم أنه نتيجة أفكار أولئك العظماء الذين اصطفاهم الله وأرسلهم إلى الناس ليؤدى كل ما ناطته به القدرة الإلهية من الخير ، فروح تاريخ العالم إنما هو تاريخ أولئك الفحول ، وظنى أنه مبحث لن يسعه هذا المقام !

يبد أن من أسباب العزاء أن فى ذكرى العظماء كيفما كانت نفعا وفائدة ، والرجل العظيم لا يزال بعد موته ينبوع نور يتدفق ، فليس أحسن من مجاورته شئ - نور يضىء ، وكان يضىء ظلمات الحياة وليس هو كسراج أشعل ولكنما نجم شبيهه يد الله بين أشباهه من مواكب الأفق ، هو كما قلت ينبوع نور يتدفق بالحكمة ومعانى الرجولة والشرف الكبير ، وهو الذى فى شعاعه أنس الأرواح وروح النفوس ، ومتعة الخواطر. وليس فى ظنى أن أحداً منكم يحجم برهة عن ورود تلك المناهل العذبة كيفما كان طريق المورد. ويقيني أن نظرة فى

تواريخ الأبطال الشتى الصنوف الذين أنا آخذ الآن فى سرد سيرهم جديرة أن تكون بمثابة نظرة فى مخ تاريخ البشر وصميم لبابه وما أسعدنى لو أستطيع فى مثل هذا العصر الذى ضعف فيه إجلال الرجل للرجل أن أفهمكم شيئاً من معانى عظمة الأبطال وجلالهم ، أى من معانى البطولة ، والبطولة فى مذهبى هى العروة المقدسة التى تعقد ما بين الرجل العظيم وبين سائر الناس ، ما أسعدنى لو أتيح لى ذلك ولكنى محاول وباذل بمجهودى.

لقد قيل - وصدقا ما قيل - إن أهم ما فى الرجل دينه - والأمة مثل الفرد فى ذلك - ولست أذهب بلفظة الدين إلى النحلة التى يتخذها الفرد والمذهب الذى ينتسب إليه والقواعد المالية التى يعددها ويشهد بها ، فقد ترى الرجل الذى ذلك شأنه يسفل إلى أدنى حضيض اللؤم والخسة على الرغم من شدة تمسكه بقواعد الدين فهذا ما لا أسميه الدين ، هذه الإقرارات والاعترافات أبعد ما تكون فى الحقيقة من الدين إذ هو اعتراف وإقرار لم يصدر إلا من ظواهر الرجل وبواديه - أعنى من ناحية اللسان والقوى البرهانية - وذلك أقصى ما عنده. ولكن جوهر المسائل للرجل والأمر الذى عليه يترتب سائر الأمور هو ذلك الشئ الذى يعتقده حق الاعتقاد ويوفق به كل اليقين ، فيما يتعلق بالروابط الجوهرية التى تربطه بهذا الكون الجسم الأسرار ، وفيما يتعلق بواجبه فى هذه الدار ووظيفته - ذلك هو دينه وربما كان إلحاده وكفره - هو اعتقاده أنه متصل بعالم الإلهيات أو بلا عالم مطلقاً - فإذا علمت عن الرجل ذلك علمت أى رجل هو وأى شئ يجدر به أن يصنعه فى هذه الحياة ، لذلك كان أول سؤالنا عن الرجل أو الأمة ما ديانته أو ديانتهم. هل هى الوثنية أو تعدد الآلهة - أعنى تمثيل سر الوجود تمثيلاً حسياً وعبادة القوى الطبيعية ؟ أم هى النصرانية والاعتقاد بعالم سرى حقيقى وبخلود الروح وارتكاز الوقت على عالم الأبدية ، أعنى بذلك استبدال دولة الأسرار المقدسة التى هى أشرف وأسمى بدولة الوثنية وعواملها من قوى الطبيعة ؟ أم هى الشك والريبة ؟ هل هناك عالم خفى وسر مجهول أم لا ؟ بل ربما كان إلحاداً محضاً وكفراً مبيناً. فعندى أن الإجابة عن هذا السؤال هو إعطاؤنا روح تاريخ

الفرد أو الأمة إذ أن أعمال الأمة أو الفرد إنما هي بنات أفكارهم ، وما نتجت ظواهر الآثار إلا من مستسر الضمائر. ومن ثم أقول : إن دين الأمة هو أهم ما لديها ، فجدير بنا في هذه المحاضرات أن نجعل الوجهة الدينية من أخطر وجوه البحث وأكبر أركانه ، فإنه متى أجدنا معرفة هذه برح الخفاء عن كل شيء. وقد جعلنا أول أبطالنا « أودين » الرجل الذى كان يعبد قدماء السويد والنرويج وكان قطب دائرة الوثنية فى تلك الأقطار ، فلننظر برهة إلى البطل فى صورة معبود وهو أقدم أشكال البطولة.

* * *

حقا لقد كانت الوثنية شيئا من أعجب الأشياء لا يكاد يتصوره الوهم. وهل كانت إلا متكاثفات أضاليل وسخافات وأباطيل ؟ قد نبتت فى الحياة الغابرة فالتفت أعياصها واستأشبت أدغالها وخيمت على أكناف الحياة غواشى قبابها ودواجى ظلالها ! مما لا يكاد يصدق به العقل أو يتصوره الوهم أن ناسا عقلاء أبقاظا صاحين يعيشون عيشة كتلك ويعتقدون عقائد كهاتيك ، أعنى يعبدون رجلا منهم لا بل يعبدون الخشب المسندة والأحجار وما إليها من أصناف الحيوان والجماد ، ويصوغون لأنفسهم خليطا مشوشا من كل أضلولة وأبطولة فيحسبونه فلسفة الكون - أما والله ما أحسب كل هذا إلا حديث خرافة.

بيد أنه لا شك فى أنهم كانوا يأتون ذلك. كانوا وهم رجال مثلنا يعتقدون تلك الكفريات الفظيعة المنكرة ويطمئنون إليها ويعيشون بها عجاى عجب ! وخلق بنا أن نطرق مليا ونتأمل والأسف ملء قلوبنا ما يوجد فى نفس الإنسان من أعماق الضلال وظلمات الجهل. فإن ما أشرت إليه من مستنكر المدهشات قد كان فى الإنسان ولا يزال بل هو فى جميع الناس وفينا أيضا.

بين الجدليين جماعة ليس لديهم من القول فى الوثنية إلا كلمة واحدة ، إذ يقولون هى باطل وغش وإنه لم يؤمن بها عاقل قط وإنما هى أكذوبة لفقت لخداع أناس لا يصح أن يسموا عقلاء ! وأرى من الواجب علينا أن ندفع عن الآدميين وعن أعمالهم وتاريخهم أمثال هذا الحكم الجائر ، وإننى لأدفعه الآن عن

الوثنية وعن كل ديانة حاول أن يسير بها الإنسان دهرًا ما فى هذه الحياة. فلم يك دين قط إلا وفيه عنصر من الحق ، ولولا ذلك لما اتخذت أمة من الأمم دينًا ما - ولا ننكر أن الأخاديع والأكاذيب تكثر فى الأديان ولا سيما فى عهودها المتأخرة إذ يعتورها الوهن والاضمحلال. ولكن الكذب ما كان قط المسبب الأول للأديان - إنه ما كان قط للأديان حياة وقوة بل كان داعيها ونذير آجالها - فاعلموا ذلك - أصلحكم الله - ولا تنسوه : فإننى لأظن أن من شر السفسطة وأخبث الباطل أن يقال إن دينًا من أديان المتوحشين كان منشؤه الكذب ، فإن الكذب لا ينشأ عنه شيء قط وليس من شأنه أن يحدث ويلد ، وإنما من دأبه أن يفنى ما أصاب ويقتل كل شيء حتى لو حاولنا أن نخيط علما بأمر ما فأتيناه من ناحية أكاذيبه ، كان ذلك جديرًا أن يخفى عنا حقيقته. وهى ما لا ينكشف لنا حتى ننفى تلك الأكاذيب البتة كأنها أمراض ومفاسد واجب على كل امرئ استئصال شأفتها سواء من الأذهان والأعماق والأعمال ، إذ أن الإنسان - حيثما كان - عدو الأكاذيب بل لأرى الحق حتى فى وثنية أهل التبت (من أقاليم الصين) أقرأ ما دونه الجبهذ الصادق النظر الصريح القول المستر « تيرنر » فى حديث سفارته إلى تلك البلاد ، تجد أن هؤلاء المساكين عقيدة أن الله يرسل كل حين إلى الأرض بشرًا يمثله ويحمل صورته وهو بمثابة اعتقادهم فى بطريق أو بابا ، أو بمثابة اعتقادهم أن هنالك رجلا هو أفضل الرجال قاطبة - وأن هذا الرجل يمكن الاهتداء إلى معرفته من بين سائر القوم : فأما أن الله يرسل فى كل جيل رجلا يمثله ، فهذا هو الحق الكائن فى عقيدة هؤلاء ، وأما كون هذا الرجل يمكن معرفته من سائر الناس فهذا هو خطأ المذهب المذكور. ولقساوسة هذه الأمة طرق إلى اكتشاف الرجل الأفضل من بين سوادهم ليولوه زعامتهم - طرق وايم الله عقيدة ولكنها ليست أعقم من طريقتنا نحن إذ لا نفتأ نولى علينا الابن الأكبر من أسرة بعينها (الأسرة الملوكية) وأأسفاه !!... ولكن أرجع إلى ذكر الوثنية فأقول : إنه قد يرجى لنا أن نفهم معنى الوثنية متى سلمنا أولا أنها كانت فى حين من الأحيان دينًا صحيحًا فى اعتقاد أهلها ، فلنوقن كل

اليقين أن الناس كانوا يؤمنون بوثنيتهم حق الإيمان ولم يكن بهم ذهول ولا جنون ولا نوم ولا مرض ، بل كانوا مع ذلك أصحاب العقول والحواس أيقاظا قد صورهم الله على صورنا وخلقهم كخلقنا لا فرق بينهم وبيننا بحال من الأحوال. لنوقن كذلك أنا لو كنا وجدنا معهم لآمنّا بما كانوا به يؤمنون ولكنا وهم سواسية في سائر الأشياء. وإذ قد علمتم منى ذلك فعليكم أن تسألوني ماذا كانت تلكم الوثنية ؟

يقول آخرون من ذوى الجدل - وهو قول أوجه - إن منشأ الوثنية هو شعر الشعراء ، أعنى أن الشعراء كانوا يرون آراءهم فى الكون ثم يخرجون تلك الآراء والإحساسات فى رموز من الأقاصيص وضروب من الجحاز والتشبيه بالأشخاص والحيوان والجماد جريا على قانون أساسى من قوانين النفس البشرية ، وهو أن كل ما جرى فى وجدان المرء من إحساس شديد لا يرى بداً من إخراجه بواسطة النطق، ومن رؤيته ممثلاً لعينيه فى شىء منظور حتى كأنما هو شىء حى ذو حقيقة تاريخية ولا شك فى أن هنالك قانونا كذلك وأنه من أرسخ قوانين النفس البشرية وأرساها وأشدّها تأصلاً واستمكناً. ولا شك أيضاً فى أنه قد كان لذلك القانون دخل عظيم وأثر قوى فى أمر الوثنية. وإنى وإن شهدت بشىء من الصحة لتلك النظرية التى ترجع بأمر الوثنية كله أو جله إلى الرموز الشعرية ، لكنى لا أعدّها النظرية الصحيحة. وإنى أنشدكم الله : هل كنتم قط مؤمنين ومسترشدين فى ظلمات الحياة بقصص ناظم وعبث شاعر ؟ أما وربكم إن الأمر لأخطر من ذلك وأجل وأحوج إلى الجدل منه إلى اللعب. إن أمر الحياة من أكبر الجدل وما أمر الممات وما عساه يحدث بعد الممات بلهو ولا عبث ، بل إنه الجدل أمر من كل جد ، والحق أمر من كل حق.

فقد رأيت أن أولئك القائلين فى الوثنية بأمر الرموز الشعرية وإن كانوا قد أخذوا فى منهج الحق لكنهم لم يبلغوا الغاية. فالوثنية ولا شك رموز شعرية وتمثيل بالمرئيات لما جرى فى وجدان الناس وأذهانهم عن الكون ومظاهره ، وكذلك كل دين إنما هو رمز وتمثيل يختلف باختلاف تلك الآراء والإحساسات.

ولكنى أرى رأى هذه الفئة رأيا معكوسا بقولهم عن النتيجة إنها السبب وعن الغاية إنها الأصل. فإن الناس ما كانوا ليجعلوا عمل الأفاضل الشعيرة أول حاجهم وأكبر همهم ، وإنما أكبر همهم هو أن يعرفوا أى عقيدة يتخذون فى هذه الكائنات ، وأى سبيل يسلكون فى تلك الحياة. وماذا يرجون وماذا يخشون وماذا يأتون وماذا يتركون. إذا أخرج الشاعر قصة مونة جعلها رمزاً للمعتقدات جيله ؟ أتخسب أنها أقدم عهداً من تلك المعتقدات ؟ كلا بل كانت العقائد أولاً ثم أنشئت القصيدة رمزاً إليها وتمثيلاً لها. فالعقيدة أصل والشعر صورة ، والعقيدة حقيقة والشعر ظلها. ثم هو مهما بلغ فى مراتب الجدل وإنما هو لعب وفكاهة وهو من عبث الخاطر إذا قيس إلى تلك الحقيقة الراسخة فى النفوس التى يحاول به تمثيلها. فقصارى القول أن الرموز الشعيرة هى نتيجة الحقيقة لامتسبها ، فعلى إذن فى شأن الوثنية أن نبحت من أين جاءت هذه الحقيقة - وماذا كانت ؟

تذكرون ما توهمه أفلاطون من أنه لو ولد إنسان فى حجرة فى جوف الأرض فترك ثمة حتى بلغ أشده وكمل عقله ، ثم أخرج بغتة إلى ظاهر الأرض فإذا الشمس بارزة فى موكب لألائها. ماذا يبلغ به العجب والاندعاش من منظر لا نبرح نراه فلا يحرك فىنا ساكناً ؟ ولكن ذلك الرجل يراه بعينى طفل قد برأهما الله من شوائب أكدار الحياة فرؤيتهما فى منتهى الصفاء ثم يراه كذلك بعقل ناضج. فليس عجيباً أن يرقص قلبه طرباً لذلك المنظر الباهر ثم ينفذ بصره الثاقب إلى ما أودع الله ذاك المشهد من روعة الجلال فيخر له ساجداً. فاعلموا معشر الإخوان أن أول رجل مفكر بين شعوب المتوحشين - أول إنسان بدأ يفكر إنما هو كذلك الإنسان الذى تخيله أفلاطون جامعاً فى طبيعته بين الطفولة والرجولة. كذلك كان أول المفكرين من قبائل المتوحشين ساذجاً صريح الطبع كالطفل ، مع قوة الرجل وعمقه ، كانت الطبيعة أمامه بلا اسم ولم يكن قد حصر ذلك الكون العديم النهاية وما به من شتى المناظر والأصوات والأشكال والحركات العديمة العدد فى اسم مركب من ثلاثة أحرف ، كما فعلنا نحن حينما سميناه

« كونا » و « طبيعة » وما شاكل ذلك. فطوينا جلاله العظيم فى أثناء لفظ حقير. ولكن الرجل المتوحش كان كل شىء جديداً فى نظره لم يخفه عنه حجب الأسماء والألقاب ، عاريا أمامه ساطعا لعينه مشرق الرنق سافر الحسن وضاء الجمال يحار فى كنهه الوهم ويعجز عن وصفه اللسان. فتأثير جلال الكون فى نفس ذلك الإنسان القديم المتوحش (المفكر) كتأثيره فى نفس الشاعر أو الفيلسوف أو النبی فى العصور الأخرى. بلى أيها الإخوان إن للكون لو تدبر الإنسان واعتبر لموقعا فى النفس أى موقع ، وروعة فى القلب أى روعة. تلکم الأرض الخضراء مبسوطها وحالقتها وما يهتز عليها من ملتف النبات ومعشوشب الروع ، وتلكم الجبال الراسيات والأنهار الجاريات والبحار ذات الجرجرة والضجيج والجلجلة والعجيج ، وقبة الفلك الزرقاء تعزف فى أجوائها كل عصافه هوجاء تحلوا من السحب كل دجنة وطفاء ، أنا تسح بالديمة المدرار، وآونة بدفع الحريق وصواعق النار. ما هذا أيها الإخوان ؟ بلى ما هذه أما ظاهرها فقد عرف العالم عنه شيئا وأما الباطن فلا وربكم ما عرف ولن يعرف. هذا سر عميق لا ينفع معه علم عالم ولا تجربة كيماوى إنما أولى بالمرء فى مثل هذا المقام الإذعان والخنوع ، وللجهل هنا أفيد من العلم ، وما يستفيد المتوحش الجاهل من جمال الطبيعة بشعوره، أكثر مما يكتسبه المتمدين العالم بمنظاره وكيماؤه. ماذا صنع العلماء فى أسرار الكون إلا أنهم زادوها خفاء واكتتاما بإلباسها براقع من الأسماء والاصطلاحات ؟ هم يسمون البرق كهريا ، ويلقون الدروس والمحاضرات فى ذلك ثم يولدون مثال هذا البرق من الزجاج والحريير. ولكن ما هو ذلك البرق ؟ وما الذى أحدثه ؟ ومن أين جاء ؟ وأيان يذهب ؟ لا أكذب الله قد أظهر العلم أشياء كثيرة ، ولكن بئس ذلك العلم الذى يريد أن يحجب عنا جلال ذلك الكون الرائع الذى يتضاءل العلم فى حضرته ، ويذل لعزته وعظمته ، ويطفو على جوه الهائل كريشة فى مهب الريح ، والحق يقال يا إخوانى إن هذا الكون على الرغم من العلم ودعواه لا يزال عجيبة العجائب ومعجزة المعجزات.

بل كفى بالزمن معجزة - بذلك الشيء الفائق العد والحصر الدائم الكر وال
المستمر الصمت والسكون ، دائبا يجرى ويتدفق عجلا ساكتا كتيار البحر الزاء
حيث نطفو فوقه وسائر الكون كخيالات تظهر ثم تغيب ، وأنفاس لا تك
تصدر حتى تبيد. أما كفانا بذلك معجزة ؟ أليس ذلك جديراً أن يلجم ألس
فلا ننطق؟ وبماذا ننطق بالله من هذا الكون الهائل ؟ ماذا كان يستطيع المتوح
القديم أن يفهم منه وماذا عسانا نحن نفهم منه ؟ أليس أقصى ما نستطيع أن نع
عنه أنه قوة مركبة من ألف لأف قوة وأنه شيء ونحن شيء آخر ؟ هذا كل
يمكننا معرفته. الكون شيء ونحن شيء غيره قوة فى قوة فى قوة ، فحيثما ألقى
البصر قوة ، ونحن بين هذه القوى المختلفة قوة مجهولة خفية. وليست ورقة ملق
على ظهر الطريق تعفن بعد الذبول إلا وفيها قوة. وإلا فكيف كان يتأتى لها
تعفن ؟ ولعمري ماذا يقول الملحد المفكر (ولا إنحال إلحاد والتفكير يجتمعان
فى هذه القوى الفعالة الدائمة المكدقة بنا لا تكل ولا تنى ولا تفر ، ولا أول لها و
آخر ولا مبدأ ولا نهاية - ماذا يقول فيها إلا أنها معجزة رائعة ، وقد يتسا.
عنها المؤمنون فيقول أحدهم لأخيه هى صنع الخالق ! ثم يجيء العلم بمنظما
وآلاته فيجعل يقلبها ويديرها كأنما هى جثة ميتة توضع فى الزجاجات وتباع فـ
الحوانيت ولكن العقل الإنسانى السليم الفطرة مازال يرى فى هذا الكون شيئاً -
- شيئاً يحار فيه الذهن إلهى المرجع ، أولى الأشياء بنا إزاءه - مهما بلغ علمنا
أن نحنى الرأس له إجلالا وننكس البصر خشية ومهابة ونعبد إن لم يكن بالمنظما
فبالصمت !

وكذلك كان شأن الإنسان القديم المتوحش إزاء هذا الكون الباهر فقد كان
عين فؤاده ثاقبة الرؤية جلية الإنسان لم تغشها حجب الكفريات ولم تتراكم
أمامها سحب الاصطلاحات والعلميات فكان الكون فى نظره إلهى النسبة بـ
هو الإله ذاته أما تنظر إلى ذاك المتوحش الغابر إذ يعسف البيد والفلوات قد أض
السبيل فإذا الكوكب الوقاد قد طلع له كأنه ماسة تلتهب بالألاء أبهر مما يرى أه
هذه العصور فيضىء فؤاد ذلك الضال كما يضىء له السبيل ويشرق فى نواحي

نفسه كما يشرق فى نواحي الأفق وكأنه مقلّة فى وجه السماء تنظر إليه من أعماق الأبدية وتشفّ له عن رونق السر القديم ونور اليقين ألا تفهمون بعد ذلك كله كيف كان المتوحشون يعبدون النجم ويصيرون ما نسميهم عباد الكواكب ؟ هذا هو ما أراه سر الوثنية أعنى إفراط العجب والاندھاش من الشئ حتى يصير تقديسا وعبادة وكذلك كان كل شئ فى نظر أولئك الأقدمين رمزاً إلى شئ إلهى أو إلى إله.

وهل ينكر أن فى فعل الأقدمين هذا عنصراً من الحق ؟ أفلو دققنا النظر له أما كنا نبصره فى كل نجم بل فى كل زهرة إلّاها ظاهراً ؟ نحن لا نعبد الله الآن على هذا النحو ، ولكن ألا يزال من مزايا الشاعر والدلائل على شاعريته أنه يرى فى كل مخلوق جمالا إلهيا ، وأن كل شئ صاغته يد الله إنما هو نافذة يشرف منها على أعماق الأبد ؟ نحن نسمى من كان له قدرة على استجلاء غوامض الجمال فى كائنات الله شاعراً ومصوراً وناطقة وعبقرياً ، أهمل كان القدماء المتوحشون إلا كذلك ؟ ألم يكونوا والشعراء سواء فى تعرف بدائع الخليقة ؟ وإن لم ينطقوا بالقصيد أليس عملهم هذا أحسن على كل حال من عمل الرجل الجامد البليد ومن عمل الحصان والجمال وما أدراك ما عملهم ؟ هو لا شئ !

وإذا كان كل ما نراه هو رمزاً من رموز الخالق إذن فأكبر رموز الخالق وأعظمها هو الإنسان ، إن جوهر النفس الإنسانية وذلك السر الكائن فىنا الذى يسمى نفسه « أنا » - وانحجلاه ما أجريناً على صياغة الألفاظ لمعان تضمحل فى سعتها الآفاق - هذه النفس هى نفس من الله ، وكذلك الإنسان هو مظهر الخالق فى الأرض أليس هذا الجسم وهذه الحياة البشرية لباساً لذلك السر المجهول الذى نسميه الله ؟ قال الصالح « نوفيلا » : ليس فى طول الكون وعرضه إلا معبد واحد وهذا هو جسم الإنسان وحقا لا شئ أقدم من هذه الذات الشريفة ، وما الركوع بين أيدي الرجال إلا خشوع الذات الإلهية بادية فى صورة الإنسان ، فإما لمست جسم إنسان فقد وضعت يدك على عرش الله ! وهذا الكلام حق لو تدبرتموه بالفكر الثاقب كيف لا ونحن المعجزة الكبرى وسر

الله الذى لا ينال - ولا طاقة لنا بفهمه ولا ندرى كيف نتكلم فيه بيد أنه قد يمكننا أن نعلم ذلك عنه إن شئنا وحسبنا ذلك وكفى.

هذه حقائق كان الأقدمون أسرع إلى إدراكها منا نحن ، نعم ؛ إن الأقدمين أولئك الذين كانوا يجمعون إلى صفاء أنفس الأطفال عمق أرواح الرجال الذين لم يحسبوا أنهم قتلوا الأرض والسماء دراية وعرفوا كل شيء بمجرد وضع الأسماء والاصطلاحات ولكنهم كانوا بدلا من اللغو واللغط فى شأن الكائنات ينظرون إليها وجها لوجه ، والروح والإجلال حشو قلوبهم ، أولئك كانوا أفهم لآيات الله فى كونه وأدرك لسر الله فى عبيده ، هم كانوا يعرفون - ولا بأس فى عقولهم - كيف يعبدون الطبيعة وأحسن من ذلك عرفانهم كيف يعبدون الإنسان وأعنى بالعبادة كما قدمت الإفراط فى العجب والإجلال إلى ما لا نهاية له وذلك ما كان فى طاقتهم إتيانه من سويداوات أفئدتهم وعقولهم كأوفر ما يكون وأرجح ، وظنى أن عبادة الأبطال قد كانت أشرف أركان الوثنية وأكرم عناصرها ، وأن مذهب الوثنية الذى شبهته بغابة ملتفة قد نبتت من عدة جذور فكل إجلال لكوكب من الكواكب أو شيء من الكائنات كان كأنه أحد جذور تلك الغابة ولكن إجلال الأبطال هو أذهب تلك الجذور فى الثرى وأغزرها مادة وأعودها على سائر الجذور بالغذاء الطيب.

وإذا كانت عبادة النجم لم تخل من حكمة فما بالك بعبادة البطل ! وعبادة البطل هى كما قلت الإفراط فى إجلاله إفراطا لا حد له ، ولا أحسب إلا أن الأبطال ما برحوا موضع إجلال الناس حتى فى هذه العصور وإنه لم يجل فى صدر الإنسان معنى أشرف من إجلاله لمن هو أعظم قدراً منه. ولست بمخطيء إن قلت إن هذا المعنى هو الأثر الفعال فى حياة الإنسان ، أو قلت إنه الأساس الذى يقوم عليه الدين. لا أقصد الوثنية وحدها بل كل دين أشرف وأصدق - كل دين كان إلى وقتنا هذا. وهل ترون معشر الإخوان فى ديننا النصرانية إلا أنها عبادة وإعجاب من صميم اللب وضراعة وخشوع لذات إنسانية على إلهية ،

هى ذات أشرف الأبطال قاطبة - ذات من لا أسميه هنا ! بل أدع الصمت المقدس يتدبر ذلك الأمر المقدس.

وإذا انحدرنا من قمة الدين إلى منازل أخط وأدنى وجدنا فى جميعها من احترام الوضع للشرىف وولاء الحقىر للجليل ما يماثل الإيمان فى الدين. إذ الإيمان إنما هو الولاء لنبى أو بطل مقدس ، وماذا ترى ولاء الصغىر للكبىر الذى روح المجتمع إلا فرعا من عبادة الأبطال ؟ فعبادة الأبطال إذن هى أساس المجتمع ، والرتب والدرج الذى يقوم عليه التعاشر والتواصل هى ما يجوز أن نسميه « هيرواركى » أى حكومة الأبطال. فأهل الدرج والرتب فى الأمة هم لها بمثابة الأوراق المالية كلها يمثل الذهب ، وإن كان الكثیر منها لسوء الحظ مزوراً ، فقد نحتمل الأوراق المالية ونعيش بها وإن وجد بينها المزور. فأما أن تكون كلها مزورة فذلك ما لا يقام عليه ولا يَحتمل ، إذن تثور الفتن وتقوم الثائرات ويصاح بالديموقراطية والحرية والمساواة وغيرها إذ متى وجد الناس الأوراق كلها مزورة لا ينال بها من الذهب كثیر ولا قليل ، أخذهم اليأس فأقبلوا يصيحون لا ذهب ، ولم يكن قط ذهب. والحقيقة أن الذهب - وأعنى به عبادة البطل - موجود برغم كل شىء فى كل آن وكل بقعة ولن يفنى حتى يفنى الإنسان.

فشا فى هذا العصر رأى باطل هو إنكار وجود الأبطال بل كراهة وجود الأبطال. أذكر لمعشر النقاد بطلا - الإمام « لوثر » مثلاً فإذا هم قد انبروا ينتقدونه - لا يأخذون فى إجلاله بل فى أخذ مقاسه ، ويسفر المقاس عنه رجلاً عادياً ضعيفاً ضئيلاً ! ثم يقولون إن ما ينسب إليه من العظمة هو مستعار من أحوال عصره وظروف وقته فالوقت هو الذى أحدثه وشهره ، هو ابن الوقت وكل ما جرى على يديه هو من فعل الوقت لا فعله - هذا والله أفن وسخف ، أيقول النقاد الوقت هو الذى أحدث ذاكم الرجل ؟ وآأسفاه ! لقد طالما صاححت الأوقات تنادى أين البطل ولا بطل أين العظيم ولا عظيم. تصرخ الأوقات يا للفتى فيذهب نداؤها صبيحة فى واد ونفخة فى رماد ، وما ذاك إلا أن البطل أو الفتى لم يكن وقت النداء موجوداً ولم يكن الله قد أرسله رحمة للعالم. وبعد أن

يبح صوت الوقت ولا يجيب تنهار أركانه وينهدم بنيانه ويعمه الخراب والتلف ،
لأن البطل لم يدركه حينما صاح يستنجده !

والحقيقة أنه ما كان عصر من العصور ليخرب ويتلف لو قد أتيح له رجل
كبير يجمع بين العقل والتقوى - بين عقل يعرف به حاجة العصر ، وعزم يمضى
به فى إبلاغ العصر حاجته ، وفى هذين صلاح العصر وفلاحه . ولكنى أشبه
العصور الضعيفة الواهنة المصابة بالكفر والبلاء والحيرة ، وأذهانها الشاكة العاجزة
وأحوالها المختلطة المضطربة يحدو بها سائق الشقاء إلى غاية التلف - أشبه كل هذا
بخطب يابس ميت ينتظر من السماء شهابا يشعله ، وما الرجل العظيم مرسل من
قوس الله يجيش فى صدره العزم ويغلى فى عروقه البأس إلا ذاكم الشهاب ، وما
كلمته إلا شفاء الغلة والثام الجرح ومجتمع الأهواء ومستقر العقائد ، ثم لا يصيب
الخطب حتى يلتهب من كل جانب ناراً كثاره . ولكن المنتقد يحسب أن الخطب
هو الذى أوجد ذلك الشهاب نحن لا ننكر أن الخطب كان فى شدة الحاجة إلى
الشهاب ، فأما أنه أوجد الشهاب ! يا لله من سخافة أولئك النقاد وحمقهم !
أما أنه ليس أدل على حطة امرئ ولؤمه من عدم إيمانه بالعظماء ، ليس أدل على
خسة جيل من الأجيال وضعته من عماه عن نور الله المقدس وإيمانه بالخطب
اليابس الميت هذا والله أقصى منتهى الكفر . إذ أن الرجل العظيم ما برح فى كل
آن مستنقذ جيله من وهدة البؤس والشهاب الذى لولاه ما شبت النار فى
الخطب ، وليس تاريخ العالم إلا كما قلت مجموع سير أبطاله .

أولئك النقاد الأصاغر يذلون الجهد فى ترويج سوق الكفر ونشر أعلام
الضلال ، ولكنهم لا يفلحون إذ مازال يظهر الرجل العظيم من آن إلى آن فيرمى
بحقه باطلهم فإذا هو زاهق ، وإذا هم قد ظلوا من مذاهبهم فى مثل بيت
العنكبوت أو أوهى ، ثم لن يستطيعوا مهما حاولوا أن يقتلعوا من قلوب الناس
عقيدة هى أن إجلال العظماء فطرية فى طبيعة الإنسان لا تزول مهما اعتورها من
الفساد والوهن ، وإجلال العظماء باق ما بقى الإنسان . فالكاتب جونسون له من
صديقه بوزويل أضرع مقدس ومجل ، على أنهما كانا فى القرن الثامن عشر أشد

العصور كفرةً وفجوراً. والأمة الفرنسية الكافرة تؤمن بفولتيرها وتظهر عبادتها الأبطال في أغرب صورة حينما أمطروه بالأزهار حتى كاد يغرق بينها ويمتدق بها. فحقاً إذا كانت النصرانية أعلى أنواع تقديس البطل فإن الفولتيرية من أسفل أنواعه ! فما أعجب أن يقع ذلك التقديس وتلك العبادة لرجل كانت حياته نقيض حياة المسيح وكان شيطاناً مريداً ، هذا مع أن أبعد الناس من فضيلة التقديس والإجلال هم فرنسيو هذا الجيل. وما ظنك بقوم كان الاستهزاء بكل شيء مذهبهم وشعارهم فليس في نفوسهم موضع للإجلال والإكبار. ومع هذا فانظروا كيف كان صنيعهم بفولتير. يدخل فولتير باريس عائداً من رحلة طويلة شيخاً فانياً متهدماً قد جاوز الرابعة والثمانين ، فيحسون أنه نوع من الأبطال أمضى حياته في محاربة الضلال والظلم وكشف أمور المنافقين من أرباب المناصب — إنه بالاختصار ممن جاهد جهاد الأبطال وإن لم يسلك في ذلك إلا خطة غريبة . نعم إنهم يحسون أنه إذا كان الاستهزاء هو أكبر الأمور ، ففولتير إذن هو أكبر الناس — هو الإمام الأعظم الذي يقفون أثره ويتطلبون منزلته ، فهو في الحقيقة إلههم الذي لا يصلح إلا لهم ولا يصلحون إلا له ، ولذلك عبدته فرنسا من الملكة ماري أنتوانيت إلى الحارس الذي على باب « سانت دينيس » ، بل لقد جعل الرجال من أولى المنزلة والجاه يتنكرون في أزياء خدمة الفنادق لتسهيل لهم رؤيته ، ويصيح الحوذي بفرسه : اسعدى أيتها الفرس فإنك تسيرين بالمسيو فولتير ، وقد شبه أحد كتابهم تلك المركبة تحرق باريز براس مذنب (نجم ذى ذيل) قد ملأ جميع الطرقات ذيله ، ثم كانت السيدات يتسابقن لأخذ شعرة من فروته لتبقى لمن تفوز بها أثراً طاهراً وذخراً ثميناً. ولم يكن بين سكان فرنسا من شريف أو فاضل أو جميل إلا كان يعتقد أن فولتير أشرف وأفضل وأجمل.

أجل إن البطل ما زال معبوداً منذ « أودين » إلى « جونسون » ومن المسيح إلى أحقر قسيس في كل مكان وزمان ، وسيكون ذلك ما دام الليل والنهار لأنه ما منا إلا من يعشق الأبطال — يعشقهم ويجلهم وينحني إكباراً لهم ، وهل ينبغي الانحناء لغيرهم ؟ بل ألا يحس المرء أن في إجلاله لمن هو أرفع منه رفعة لنفسه ؟

وهل جال فى صدر المرء إحساس هو أشرف من ذلك وأقدس ؟ وأنه ليسرنى ويشفى نفسى أنه ليس فى طاقة السفسطة والاستهزاء والفجور والجحود أن تذهب من نفس الإنسان تلك الغريزة الفطرية — عبادة الأبطال. هذا وإن أجيال الكفر التى تعقبها الفتن والثورات تكون مملوءة بدلائل الاضمحلال والبلى والخراب ، وإنى لأرى فى غريزة عبادة الأبطال الصخرة الراسخة التى تتلقى الدول الساقطة فى مهاويها فتمنعها من الضياع فى أعماق الخراب. فإذا انتهت الدولة المتدهورة إلى تلك الصخرة وقفت بها ريثما تهيب نفسها للنهوض ، ثم تشرع ترتقى وتصعد حتى تعود إلى أحسن مما كانت عليه. وهكذا يظهر لى أن عبادة الإنسان للبطل هى الصخرة الحية وسط كل سقوط وتدهور — هى النقطة الوحيدة الثابتة فى التاريخ الثورى الحديث وإلا كان هذا التاريخ كالبحر لا يعرف عمقه قراره ولا تعرف سعته شاطئاً.

كذلك أجد أن الوثنية روحها الحق وإن كان لها ظاهر مشوه. كيف لا والطبيعة ما زالت مظهر صنع الله وما زال البطل يعبد. ومن هذا وذاك تألفت الوثنية وإن اتخذت من الأشكال والأوضاع الحقير والمنكر ، وظنى أن وثنية قدماء النرويج أمتع لنا من كل ما عداها لأنها (أولاً) آخر الوثنيات عهداً إذا ما زالت مستمرة حتى القرن الحادى عشر. فمنذ ثمانمائة عام كان أهل الاسكاندينفيا يعبدون « أودين » ، ثم هى هامة لنا من حيث إنها ديانة آبائنا أولئك الذين ما برحت دماؤهم جارية فى عروقنا والذين نشبههم فى عدة وجوه. فعجبا أيها الإخوان أن يكون بين معتقدهم ومعتقدنا ذلك الخلاف.

(وبعد) فلنلق نظرة فى عقائد أولئك القوم لجملة أسباب ، ولنعلم أن ذلك من الممكن ثم من السهل لأن تاريخ هذه العقائد قد قدر له الحظ فسلم على تقلبات الدهور وغوائل الحداث.

* * *

فى تلك الجزيرة العجيبة المسماة « إيسلاندة » التى يخبر علماء طبقات الأرض أنه استثارها زلزال نارى من قعر البحر — وهى بقعة موحشة بباب جرداء

يشوب أديمها تراب البراكين ومن خواصها أنها تبقى بضعة من أشهر العام مطوية في أجواف العواصف السوداء إلا أن لها مع ذلك في فصل الصيف لألاء جمال موحش قفر - وهى وسط العباب الخضم تسمو صعداً مكفهرة الجبين جهمة الطلعة تبدو بها لمع الثلج كتفاريق الشيب فى الهامة الشمطاء وتفور فيها الينابيع الحارة حتى تئز مراجلها وتهدر (شقاشقها) إلى غدران من سائل الكبريت وكهوف بركانية مظلمة فكأنما الجزيرة آثار معترك لتكافح جيوش الجليد والنار - فى هذه الجزيرة وهى أبعد ما يرجى أن يكون به تاريخ مرقوم عثر العاثرون على تاريخ الوثنية التى نحن بصدددها وعلى شاطئ هذه الجزيرة القفر مستدق من تربة معشبة قد تعيش فيها الأنعام والإنسان من خير هاتيك النعم ومما يوجد به اليم وكأنما كان ناس هذه البقعة المخصصة قوما شعراء أعنى ذوى صدور جياشة بالمعاني وألسنة بها ناطقة ، فكلمة تأملت علمت أنه كان يفوتنا شيء كثير لو لم تبعث البراكين تلك الجزيرة من قعر المحيط فلم يعمرها طوائف الأسكانديناف ! : الحقيقة أن معظم شعراء الشمال القدماء كانوا من أهالى « أيسلاندة ».

وكان بالجزيرة فى أوائل أمر المسيحية قسيس نصرانى يدعى « سيمند » لعله كان لا يزال ينزع به عرق إلى دين آباءه الوثنية فأخذ يجمع عدداً من أغانيهم القديمة - مما قد طال عليه القدم فأسمى حوشيا مهجوراً - وكان توحيديا صوفيا عليه مسحة دينية ، وهذه المجموعة هى ما يسميه أدباء الشمال « الألدار » أو ال « أدا » الشعرية وهى كلمة مشكوك فى اشتقاقها ، لعل المراد بها « السلف » وبعد قرن من ذلك جاء رجل من سادة الجزيرة يدعى « سنورو سترلسون » وكان قد تلقى العلم من حفيد القسيس « سيمند » فكتب فيما كتب تاريخاً حافلاً لعقائد الوثنية وجعله نثراً مفصلاً بشذور من النظم فجاء كتاباً بديعاً موقفاً بريثاً من كل أثر للعمل والكلفة وهو ما نسميه « عفو الخاطر » وهذا الكتاب هو المسمى بال « أدا النثرية » بفضيل هذين المؤلفين وشتى أغاني غيرهما جلها « إيسلندى » وبفضل ما كتب عن جميعها من الشروح والخواشى بين « إيسلندى » وغير إيسلندى مما هو للآن مستمر فى البلاد الشمالية قد

نستطيع أن نعرف بعض اليقين ونبصر تلك الوثنية وجها لوجه ولتناس قبل كل شيء أنها دين باطل بل نتأملها على أنها فكر قديم ثم ننظر أما يمكننا أن نعتذر لها ونرتاح إليها شيئا ما.

أن أول خواص هذه الوثنية في رأيي هو الإيمان الصريح بأن القوى الكونية هي أرواح كبيرة مدهشة رائعة مقدسة ، فلك الأشياء التي تلقى فيها الآن علوم الطبيعة والفلك والكيمياء كان هؤلاء القدماء يندهشون لرؤيتها ويركعون لها إجلالا ومهابة ، أعني أن ما نراه نحن العلم كانوا يرونه هم دينهم وعبادتهم ، كانوا يصورون من القوى الكونية الضارة المخوفة جانبا ومردة « جوتان » مخالق جساما شعثا غبرا شنع الصور لهم طبائع الشياطين والأبالسة والجليد والنار وزوبعة البحر من هذه الجان والمردة ، أما القوى النافعة كحرارة الشمس والشمس فهي آلهة وبين هذين الفريقين تنقسم دولة الكون وهما يعيشان منفردين كل فريق في جهة ثم لا تخمد قط بينهما ثائرة الحرب ويسكن الآلهة الجنة (اسجارد) في السموات ويقطن المردة في بقعة قصية مظلمة خراب اسمها دار المردة « جوتنهم ».

عجب كل هذا ، أنا لا أراه باطلا ولا خرافيا ، وكل من أصاب بالنظر الثاقب لبابه وسيره وسير بمسبار الفحص عمقه وغوره كان رأيه فيه رأيي ، فقرة النار التي تخفى نحن ما بها من آية العجب في طي اسم كيماوى نجعله حجابا لروعة هولها ، كان القدماء يرونها عفريتا سريع الحركة تخفى المدب من قبيلة المردة « جوتان ». وكذلك حسب قبائل المتوحشين من جزائر « لادرون » — هكذا ذكر أحد رحالة الأسبان — النار وكانوا لم يروها قط من قبل ، نوعا من الشياطين أو ضربا من الآلهة بعضك إذا مسسته ويعيش بأكل الخشب. وكذلك أرى أنه ما كان في قدرة أى كيميائ قط أن تخفى عنا ما بالنار من عجب لولا ما يعينها من الحمق والغباوة — ما هي النار ؟ — أما الجليد فقد رآه كاهنهم القديم شيطانا فظيحا أشيب الرأس واللحية وسائر الشعر — المارد « هيرم » أو « رايم » ، وهي كلمة بطل استعمالها إلا في بعض أودية « سكوتلاندة » وهكذا لم يكن

الجليد عندهم كما نراه الآن شيئاً ميتاً ، ولكنه شيطان حى نراه إذ أظلم الليل يسوق أفراسه البلق إلى كهف حيث يقبل عليهن يمشط شعورهن. . وهذه الأفراس البلق هى سحب البرد ورياح الجليد ، أما بقره فهى جلاميد الثلج ، ثم إن هذا الشيطان يضرب تلك الجلاميد بعين عفريت فتتفطر وتنصدع.

ولم يكن الرعد فى تلك الأوقات مجرد كهرباء وإنما كان الإله « دونار » — (ثاندار)^(١) إله الرعد ، وهو أيضا إله حرارة الشمس ذات الخير والبركة ، وإنما زججرة الرعد هى غضبه وسخطه. وما احتشاد السحاب السود وازدحامها إلا تقطيب جبين ذلك الإله وكسر حاجبيه. وما الصاعقة تنقض من السماء إلا السنان اللامع يطير من كفه ، ثم هو يدفع عجلته الصخبة فوق قلل الجبال ، فدويها وقعقتها هو جلجلة الرعد وتراه من غضبه ينفخ فى لحيته الصهباء فذلك حفيف الريح قبل الإرعاد ، و« بولدار » الإله الأبيض الجميل العادل المنعم (الذى وجد المبشرون الأول أنه أشبه شىء بالمسيح) هو إله الشمس.. أجمل الأشياء الظاهرة. . وإحدى العجائب والأسرار رغما من جميع الفلكيين وعلم الفلك ! ولكن أعظم الآلهة فى ظنى هو ذلك الذى عثر على أثره العالم الاشتقاقي الألماني « جريم » ، وهو الإله « ونش » أو « وش »^(٢) إله الطلب الذى يعطينا كل ما نطلب ! أليس ذلك أخلص دعاء النفس الإنسانية وأعمق أصوات الروح ، وإن لم تكن بعد دعاء مهذبا وصوتا منقحا. هذا أبسط آراء الإنسان وهو مع ذلك عنصر جوهري فى أحدث مذاهب الدين.

وأذكر من باقى الآلهة « آجير » إله الزوبعة ، وذلك لأن النوتية بنهر « ترنت »^(٣) ما برحوا للآن متى أبصروا الماء قد طما فى حالة المد — وهى حالة خطيرة — صاحوا « حذرا فإن آجير قادم ». عجبا لهذا اللفظ قد بقى بعد زوال

(١) كلمة إنكليزية معناها « الرعد » .

(٢) كلمة إنكليزية معناها « طلب » .

(٣) نهر يانكلترا .

تلك القرون كأن دنيا طغى عليها الماء فغرقت فى عبابه إلا ذؤابة قمة ما برحت لأبصارنا بادية ! وقد كان أسلاف هؤلاء النوتية فى العصور الغابرة يؤمنون بالإله آجير ، وما ذلك إلا لأن تلك القبائل الشمالية البائدة قد نزلت ببلادنا قديما وضربت فى أنسابنا ، فلمنا مزيج من السكسونى والدانيماركى الشمالى. ولا أرى بين أحد هذه الثلاثة والآخرين إلا فرقا سطحيا مثل ما أرى بين النصرانى والمسلم والوثنى.

وعن إلههم الأكبر « أودين » سنتكلم قريبا إن شاء الله. ولكن اعرفوا قبل ذلك ماذا كان جوهر الوثنية الاسكاندينيفية أو الشمالية : هو الإيمان بقوى الكون واعتبارها إلهية رائعة شخصية - أعنى آلهة وأبالسة ، ولعله قول معقول ومفهوم. وكذلك كان الفكر الإنسانى فى طفولته يتفتح لرؤية الكون الهائل تفتحاً مشفوعاً بالعجب والهيبة ، وقد أرى فى هذا النظام الوثنى معنى حراً جزلاً شريفاً وساذجة قوية لم تهذب جد تهذيب ، مخالفة لرشاقة الوثنية اليونانية وخفتها ، والحق يقال إن مذهب الوثنية الشمالية ما هو إلا فكر صريح قوى من الفكر العميق الحر ، يتفتح فى قلوب صحيحة حارة لرؤية الكائنات رؤية وجه لوجه وقلب لقلب ، وهو أول خصائص الفكر الصحيح فى كل آن. فلست ترى لتلك الوثنية الشمالية ما كنت ترى لأختها اليونانية من الرقة واللعب ، إنما تتبين فيها قوة ساذجة وحقاً مألوفاً وإخلاصاً جما كبيراً. وإنه لمن الغريب أن نهبط من صرح الوثنية اليونانية البديع مصفوفة صوره ، منضودة دماه ، فى أبداع نظام ، وأجمل نسق إلى بيوت الوثنية الشمالية ، تمرح فى أفنيثها آلهتها وتخمّر النبيذ لتشربه مع « آجير » إله الزوبعة ، ثم يرسلون « ثوراً » إله الرعد ليحضر الرجل من ديار الشياطين. وينهب « ثوراً » إلى تلك الديار ، وبعد الجهد الجهيد يأخذ الرجل فيلبسه على رأسه كقلنسوة ، وينقلب راجعاً وقد غاب تحت الرجل وبلغ الرجل مواطن قدميه ! وكذلك ترى لهذا النظام الوثنى ضخامة جوفاء وجسامة شوهاء ، وقوة هائلة إلا أنها لم تهذب ، فهى كطفل المارد كبير القدم فسيح الخطوة ، لكنها قدم عائرة وخطوة طائشة. فانظروا - أصلحكم الله - ماذا كان رأيهم

فى خلق الدنيا.

لما تجاوب الجليد والنار حدثت ربح حارة تكون منها مارد اسمه « يمير » ، ثم احتال الآلهة حتى قتلوا ذلك المارد وأخذوا جثته فجعلوها دنيا ، فأما دمه فذلك هو البحر ، وأما لحمه فهو الأرض والصخور عظامه ، ثم جعلوا حاجبيه مسكنا لهم أعنى الجنة أو « اسجارد » ، وجعلوا جمجمته قبة السماء ، وما بها من دماغ فهو السحاب ، فهذه استعارة طرفها فى المشرق والآخر فى المغرب وأصلها فى الأرض وفرعها فى السماء - آراء جسام ماردية هائلة ما زالت بها العصور تنهنه جبروتها ، وتذلل طغيانها وتحولها عن الطبيعة الماردية إلى الصفة الإلهية ، والثانية أقوى ولا ريب من الأولى . ما زالت بها العصور حتى حولتها إلى أفكار شاكسبيرية ، ومعان لوثرية^(١) ، فأولئك الوثنيون القدماء هم آباء أدياننا مثلما هم آباء أجسامنا.

ويعجبني منهم كذلك تشبيهم الحياة بشجرة جذرها فى مملكة الموت ، ثم يسمو ساقها صعدا إلى السماء فينشر ذوائب فروعه على جميع أنحاء الكون ، وهذه هى شجرة الوجود. ويجلس عند أصلها فى مملكة الموت ثلاثة أقضية (جمع قضاء): الماضى والحاضر والمستقبل ، يروون جذورها من البئر المقدسة ثم تمتد أفرعها وما يجرى بها من إوراق وأزهار وأثمار ، وسقوط أوراق وأزهار وثمار . ويكنى بهذه عن الحوادث والمحن وصروف الزمن وتقلبات الحال . تمتد أفرعها بكل هذه الأمور فى جميع الأمكنة والأزمان. أليست كل ورقة من أوراق هذه الشجرة ترجمة لإنسان، وكل خيط من خيوط تلك الورقة كلمة أو فعلة ؟ وأفرعها تواريخ الأمم ، ووسواسها صوت الحياة صادراً عن الأبد إلى الأبد. فإذا تنفس فى خلالها النسيم فتلك زفرات القلب الإنسانى ، وإن صاحت بين أفنانها العاصفة فذاك صوت الآلهة. هذه شجرة الوجود. هى الماضى والحاضر والمستقبل. ما كان وما يكون وما سيكون. . تصريح فعل « يكون » تصريحاً لا نهاية له ، فإذا

(١) نسبة إلى لوثر رأس المذهب البرتستانتى .

تأملتم معشر الإخوان كيف أن جميع الأفعال البشرية تتسلسل وتتصل ، وليس واحد منها إلا آخذاً بعنق الآخر متداخلاً فيه . وكيف أن الكلمة التى ألقاها عليك اليوم مستعارة من جميع العالم منذ جرت أول لفظة على لسان أول متكلم . إذا تأملت كل ذلك رأيتم أنه لا تشبيه قط أصدق من تشبيه الشجرة هذا : نعم هذا ما أجمله وما أجمله إذا قستموه باستعارة أهل هذا العصر التى تشبه الوجود بمكيئة « مكيئة الوجود » ، بل أرى تشبيه الأقدمين أشرف من أن يقاس بتشبيه المتأخرين وأنبل ! حقا إن مذهب أولئك الوثنيين الشماليين لعجيب مخالف لما نعتقده نحن فى الطبيعة ، فمن أين أتى؟ من أفكار أولئك الشماليين ولا سيما من فكر أول رجل شمالي وهبه الله قوة الفكر - أول شمالي نابغة عبقرى كما ينبغي أن نسميه ! وكم قبل هذا الرجل قد عاش فى العالم من رجال غير ذوى فكر ، لم يك منهم إزاء هذا الكون الرائع الهائل إلا العجب الأبكم كالذى يحسه الحيوان ، أو العجب المشفوع بالسؤال والبحث المتعب الكاد بغير طائل كالذى يشعر به الإنسان ، حتى أتى الرجل المفكر الكبير - الرجل العبقرى الذى يوقظ فكره راقداً الأفكار فى جميع الأذهان ، وكذلك شأن المفكر أو البطل الروحانى فإن ما يقوله قد كان كامناً فى نفوس العامة وكانوا يحسونه ويتلهفون على أن ينطلقوا به ولكن لا سبيل . فما هو إلا أن ينطق ذلك البطل حتى تثور جميع الأفكار من مكانها كأنما هبت من رقاد طويل ، فتجيب الدعوة أشرع إجابة فرحة به فرح السارى بالصباح . ولا غرو فإنما هو خروج من العدم إلى الوجود - من الموت إلى الحياة - فيا سقى الله عهد ذلك الرجل الكبير فإنه جدير أن يسمى شاعراً وكبيراً وعبقرياً وما شاكل ذلك ، وإن حسبه أهل عصره ساحراً وصاحب معجزات ومسدى أياد وآلاء ونبيا وإله ! والفكر متى انبعث فلن ينام بعد مبعثه أبداً ، بل يعود معدن أفكار تصدر عنه طائفة بعد طائفة ، ويزكو غرسه فى رجل بعد رجل وجيل بعد جيل حتى يبلغ كماله ، فإذا بلغه لم يكن ثمرة مجال للنماء ، وإنما يقلع ذلك الغرس ويخلى مكانه لغيره .

ونحسب أن مثل هذا الرجل كان موجوداً فى أمة الشمال وهو الذى كانوا يدعونه الإله أودين - وكان لهم أستاذاً وإماما فى أحوالهم الروحانية والجثمانية ، وبطلاً كبيراً لا تقدر قيمته ، أفرط إجلال الناس له حتى صار عبادة ، ولا جرم فإنه أهل لذلك ، أفما كان أوتى فضيلة النطق بالفكر الجليل ، وفضائل أخرى كانت إذ ذاك من المعجزات. فما لهم لا يشكرون آلاءه من حبات قلوبهم ، أما فسر لهم لغز هذا الكون ، وعرفهم ماذا يجب عليهم فى هذه الدار وماذا ينتظرون فى الدار الآخرة ؟ وانطلق الوجود وأحى الحياة ! فهو منشئ الوثنية الشمالية. وأكبر ظنى أن أودين هذا أول مفكر من أمة الشمال كيفما كان اسمه ، كان ولا شك رجلاً يعيش بين الرجال ، وهو ما كاد ينشر رأيه فى الكون حتى ثار فى جميع الأذهان مثل رأيه تماماً ، فكأنما كان مكتوباً على صحائف الأذهان بالخبر المغطى ، فما هو إلا أن فاه بكلمته حتى انكشف غطاء الخبر فظهر واستبان. وكذلك ما زال قلوب الرجل المفكر على العالم هو الحادثة الكبرى أم سائر الحوادث !

ثم لا ننسى شيئاً آخر أحسب أن فيه بعض البيان لمشكلات تاريخ الوثنية الشمالية أل « أدا » وذلك أنها ليست نظاماً فكرياً واحداً متماسكاً ولكنها مجموعة نظمات شتى الأصول والأزمان ، ولن يعرف الناس قط تواريخ هذه النظمات وكيف تتقلب من صورة إلى صورة بما أدخله عليها مفكر بعد مفكر ، إلى أن لبست الهيئة التى نراها لها فى كتاب الـ « أدا » كلا ولن يعرف ما صنعه «أودين» نفسه وماذا عسى أن يعرف من الأنباء عن «أودين» ، بل أنى يعرف عنه أنباء وكيف يكون له تاريخ . وعجيب أن يكون «أودين» هذا بكسائه الوحشى ولحيته الوحشية ومقلته الوقادة الوحشية ولهجته الخشنة الشمالية بشراً مثلنا تناله أحزاننا وأفراحنا ، ويمشى على مثل أرجلنا وأقدامنا. عجيب أن يكون مثلنا حنوك القذة بالقذة ثم يكون قد أتى كل هاتيك المدهشات والغرائب ! ولكن هذه الغرائب قد بادت وباد الصانع إلا اسمه أودين : إذ أن لفظة

« و د ن ز د اى »^(١) أصلها « أودين زدای ». ولعل فى هذه اللحظة أناسا ينطقون هذا اللفظ فليس يوجد لأودين تاريخ، وليس فيما رجم فيه المرجمون ما يستحق أن يذكر.

قد زعم المؤرخ « سنورو » زعما لم يخجل منه على وضوح سخافته بل شفعه بأمتن لهجات الثقة أو القحة ، وذاك أن أودين كان أميراً وفارسا بطلا فى بقعة بقرب البحر الأسود له اثنا عشر تابعا كلهم سيد عشيرته. ثم إن بلادهم ضاقت بهم فخفوا إلى ناحية الشمال حيث نزلوا بعد أن فتحوا تلك الأقطار. وإن هذا الأمير أودين اخترع الحروف الأبجدية والشعر وغيرها ثم آل به الأمر إلى أن اتخذ أهل إسكاندينفيا إلها معبوداً . واعتبروا أتباعه الاثنى عشر أبناء له وآله كذلك ، هذا ما لا يشك فيه المؤرخ « سونورو » ولكن المؤرخ « جراماتيكاكاس » وهو آخر من أهل الشمال أشد ثقة برأيه من « سونورو » . لا يصعب عليه أبداً أن يخلق لكل خرافة من خرافات القدماء أصلاً وحقيقة ، ثم يدون ذلك كما لو كان حادثة عادية وقعت ببلاد الدينمارك أو غيرها. ويجىء المؤرخ « تورفوس » بعد هذين بقرون وهو يا للأسف عالم ومحترس ، فيضع تاريخاً لزمان أودين إذ يقول إن أودين قدم أوربا عام سبعين قبل الميلاد ، وبما أن هذه الأقوال ظنون أساسها الشك قد كشف بطلانها الزمن ، فلا حاجة بى هنا إلى تنفيذها بل حسبى أن أقول إن تاريخ أودين كان قبل عام ٧٠ بأدهار طويلة وأزمان مديدة ! ولا أرى أودين وتاريخ وجوده ووقائعه وسائر تاريخه إلا شيئاً قد غاب عنا البتة وسط الآلاف المؤلفة من غابر الأعوام .

يجىء بعد ذلك المؤرخ « جريم » الألمانى فينكر وجود « أودين » بالمرة ، ويثبت قوله بعلم الاشتقاق فيقول إن لفظة « فوتام » التى هى أصل كلمة « أودين » المفعولة علما على الإله الأكبر لدى جميع الشعوب النيوتونية فى كل مكان - هذه اللفظة التى تتصل حسبما زعم « جريم » باللفظة اللاتينية

(١) إنكليزية معناها يوم الأربعاء .

« فادير » واللفظة الإنكليزية « ويد » إلخ — معناها القديم « الحركة » « القوة » ، فهي الاسم اللائق للإله الأكبر لا المخلوق . قال جريم : وهذه الكلمة اسم لله عند قدماء السكسون والجرمان وسائر الأمم التيوتونية ، والنعوت المشتقة منها كلها فى معنى مقدس وأكبر وما شاكل — حسن وأيم الله ما قال المسيو « جريم » ثم لا يسعنا إلا الإذعان للسيد المذكور فى جميع المسائل الاشتقاقية . فلنقر ولنقتنع بأن كلمة « فوتام » أو « أودين » يراد بها « الحركة » و « القوة » . فما الذى يمنع أن تكون اسما لرجل بطل محرك كما أنها اسم لإله ؟ فأما من حيث إن النعوت المشتقة منها كلها فى معنى مقدس وأكبر . أليس قد اشتق الأسبانيون من اسم بطلهم الكبير « لوبى » حينما غلا بهم تقديسه لفظة « لوبى » نعنا لكل شىء أفرط جماله حتى قالوا بسنان لوبى وورد لوبى وغادة لوبى : فلو أن ذلك استمر لأصبحت كلمة لوبى وهى نعت من نعوت الأسبانية معناها ملائكى الجمال أو إلهى الجمال . ولقد قال آدم سميث فى مقالته على اللغة : إنه ما من نعت إلا وكان فى الأصل اسما لشيء شارك الشىء الأصلى فى صفته ، فكلمة أخضر مثلا كانت فى الأصل اسما لشيء شديد الخضرة . ثم إن الناس كلما أبصروا شيئا فيه خضرة — عشبا مثلا — قالوا عشب أخضر ، وما نزال نقول ساعة ذهبنا وخاتما حديداً فكل النعوت فى زعم « سميث » كان أصلها أسماء أشياء . ولا يسعنا أن نعدم رجلا ونقضى عليه لمجرد مسائل اشتقاقية كهذه ! ولا شك فى أنه قد كان لأولئك القبائل القديمة رجل كان أول أستاذ وقائد . وحقا لقد وجد فى وقت ما رجل هو « أودين » أو مثل « أودين » يصبر بالعين ويلمس باليدى وليس من النعوت ، بل بطلا مصورا من لحم ودم !

فأما كيفية صيرورة الرجل « أودين » إلها — الإله الأكبر — فهذا ما لا أحسب أن أحداً يجب أن يتفلسف فيه ، وقد قلت إن أهل عصره لم يعرفوا لإجلالهم إياه حداً ، بل لم يكن لديهم إذ ذاك ميزان يزنون به الإجلال . فإن أردت أن تتصور إجلالهم ذاك فتوهم إجلالك لبطل من أكبر الأبطال وحبك إياه

حبا من صميم الحشا ما يزال ينمو ويزداد حتى يتجاوز كل مقدار ويفوت كل حد ، وحتى يمتلئ به وعاء صدرك ويطفح . أو ربما كان ذاك الرجل « أودين » إذ منحه الله العقل الكبير وبعث في ذهنه نورا من لدنه وفجر في نفسه ينبوعا من عنده أصبح يرى نفسه سرا من الأسرار ، ولغزا لا يحل ، وشيئا يوجب الرعب والدهش في نفسه هو فحسب ، إنه ربما كان إلهي المنشأ ، أى شعبة من القوة الكبرى والذات العليا المسماة فوتان أو أودين (بمعنى القوة العظمى) . أنا لا أحسب أن ذلك قد كان منه غشا أو تدليسا ، إنما هى هفوة وهو أصدق ما لديه ، والحقيقة أن كل ذى نفس كبيرة صادقة لا يعرف من ذا هو — فيخال نفسه طورا فى أعلى قمة وآنا فى أسفل حضيض ، ويظل ولا شىء أشكل عليه من أمر نفسه . ثم ترى أن رأى الناس فيه وظنه هو بنفسه يؤثر كل منهما فى الآخر مما يحدث نتيجة ، فإذا أبصر الناس قد عكفوا عليه يقدسونه وأحس هو فى فؤاده حرارة وجدان شريف ، ووقدة شعور طاهر كبير وخليطا مشوشا من ظلمة حالكة ونور وهاج ، ثم نظر فإذا حواليه كون هائل يقطر من جميع أنحائه ماء الجمال : هذا وقد علم أنه لم يسبقه إلى هذا المقام العلى إنسان — خبرونى نشدتكم الله ماذا عساه يحسب نفسه ؟ كأنى به يناجى نفسه « أنا قوة كبيرة » فإذا الناس أجمعون يجيئون به « بلى قوة كبيرة ! » « فوتان » أو « أودين » !

ثم اذكروا ما لجرد مر الدهور وتقادم العهد من التأثير العظيم فى مثل هذه الأمور ، وكيف أن الرجل الذى كان أثناء حياته عظيما تبلغ عظمته بعد الممات عشرة أمثالها ، وظلمة القدم من شأنها أن تجسم ما يصير فيها وكذلك إذا كان للشيء الهالك محبة فى الفؤاد وإجلال ، استفحل فى الذاكرة وتجسم فى الخيال . فما بالكم إذا كان العصر عصر ظلمات وجهل مطبق ، فلا تاريخ ولا كتاب ولا رقعة ولا نقش فى حجر اللهم إلا صخرة صماء على سبيل الأثر هنا وهناك . بلى والله إنه لولا الكتب لأصبح كل رجل جليل بعد أن يمر على وفاته وفناء جيله أربعون عاما ضربا من أولئك الأبطال الذين تسمعون عنهم فى خرافات القدماء . فماذا يكون إذا مضى على وفاته ثلاثمائة أو ثلاثة آلاف عام ! إنه لا

فائدة فى التفلسف فى مثل هذه الموضوعات فإنها تأبى بطبيعتها البحث والاستقصاء ، ولا مجال فيها لعلم المنطق والبرهان ، وحسبنا أن نلمح فى أقصى أعماق ذلك الدهر البائد وميض نور حقيقى يبرق فى جوف تلك الصورة المختلطة المعتمدة . حسبنا أنه لم يكن صميمها بزور ولا جنون ، وإنما حق ومعقول.

ويزعم أن « أودين » اخترع حروف الهجاء وكان يأتى بها ضروباً من السحر . فهبوا ذلك صحيحاً ، أفليس اختراع الحروف هو أكبر اختراع منذ أقدم الدهور إلى وقتنا هذا ؟ وهل هناك شئ أكبر من إبراز كوامن الأفكار بعلائم ظاهرة ؟ أليس ذلك نطقاً ثانياً لا يقل غرابة وإعجازاً عن الأول ؟ ثم ألا تذكر ما إذا كان اندهاش ملك « بيرو » المسمى « أناهولبا » عندما رأى الحروف الهجائية ؟ وكيف صعب عليه أن يصدق بتلك المعجزة فأمر أحد أحراسه من الجند الأسبانين أن ينقش على ظفره لفظة « ديوص » ليمتحن بها الجندى الذى إلى جانبه حتى يتحقق صدق هذه المعجزة فإذا كان أودين قد أوجد الحروف فى أمته فما باله لا يأتى بفنون من السحر ؟

ويحكى لنا المؤرخ « سنورو » أيضاً أن « أودين » اخترع الشعر الذى هو موسيقى الكلام ، فتخيلوا — أصلحكم الله — أنفسكم فى هذه العصور عصور طفولة الأمم — فى تبلج صباح الشعوب الأوربية ، إذ يشرق فى جميع الأنحاء لألاء جديد ندى ، وإذ أوربا طفلة قد بدأت تفكر بل بدأت تكون ! فكل قلب به دهشة ، وكل نفس بها رجاء . رجاء ودهشة يتوهجان فى جميع النفوس شعاعاً جما ونوراً عميقاً ! أولئك كانوا أبناء الطبيعة الأقوياء ، وكان لهم فى « أودين » فوق كونه قائلهم وفارس خيلهم شاعر ونبى ومفكر صادق كبير ومبدع ومخترع . وكذلك سمة الرجل الجليل فى كل آن يكون بطلاً من جميع جوانبه ، بطلاً قبل كل شئ فى روحه وفكره . وهكذا كان ذلك البطل المتوحش « أودين » بالنسبة إلى أمته ، كان له قلب كبير قد فتح أبوابه فتلقى هذا الكون الكبير ، وتلقى الحياة الإنسانية كما كانت حينذاك ، ثم قال كلمته فى

هذه وذاك فهو كما قلت بطل فى صورة وحشية أولية ، ولكنه بطل عبقرى كريم النفس شريف الخلق. فإذا كنا نحن أبناء القرن التاسع عشر لا نزال نعجب بذلك الرجل ، فماذا كان إعجاب أولائك المتوحشين به ؟ حقا لقد كان غندهم بطلا بل نيبا بل إلها ، أو بعبارتهم هم « فوتان » أى « أودين » ومعناها القوة الكبرى ، والفكر رعاكم الله فكر فى أى صورة بدا وعلى أى شكل ظهر حتى لأحسب أن « أودين » هذا هو من قبيل أكبر أبطال العالم. وحسبكم برهانا فكره الكبير فى قلبه الوحشى العميق ا. أفلا ترون فى كلماته الخشنة جذور ألفاظ إنكليزية لا نزال نستعملها ؟ وما وجوده فى تلك العصور المظلمة بضائره وهو نجمها اللامع وشهابها الساطع.

فجدير بنا أن نرى فيه نموذج الرجل الشمالى وأشرف بنى جلدته ، ثم ما كاد يظهر فى قومه حتى تفجرت قلوبهم له عن أخلص الولاء وأصدق العبادة ، فهو الجذر الذى أنبت أشياء جمّة ، ولا تزال ثماره يانعة يرف رونقها فى جميع أرجاء الحياة النيوتونية. حتى أن كثيراً من أسماء بلادنا واسم يوم الأربعاء كما ذكرت مشتق من لفظه « أودين ». أفلا ترون بعد ذلك أن آثار الرجل قد تجاوزت إلى بلادنا ، وأن أفرعا من فروعه قد امتدت إلينا ومن ذلك الجذر ذياك الورق.

فإذا كان الرجل أودين قد باد وهلك ذكره ، فهذا ظله الواسع المديد ما زال ينشر أعلامه على تاريخ الأمم النيوتونية جميعه ، لأنه متى سلمنا أن أودين كان وقتا ما إلها أمكننا أن نفهم أن نظام أفكار الأقدمين أو عدم نظامهم أو بالاختصار كل ما كان لديهم قبل مجيء هذا الرجل قد أخذ بعد مجيئه وتعاليمه فى طريق آخر ، ولبس هيئة جديدة ، إذ جعل جميع الأمم النيوتونية ينقشون على ألواح ضمائرهم كل ما قال ذلك الرجل وعلم بحروفه وشعره وأصبح مذهبه مذهبهم ورأيه رأيهم. وكذلك شأن الرجل الكبير فى كل حين. أو ما ترون فى العقائد الإسكاندنافية التى يصعد ظلها الهائل من أعماق ظلمات الأعصر الخاليات فينتشر على الأفق الشمالى صورة الرجل « أودين » ؟ نعم الفكر فكر كيفما

كان ، وما كانت حياة الرجل العظيم لتكون قط عبثاً وما تاريخ العالم إلا مجموع سير أبطاله !

بيد أنى أرى فى صورة ذلك التاريخ القديم شيئاً مرققا للأفئدة ، وهو إفراط أولئك القوم المتوحشين فى حب بطلهم وإن شاب ذلك الحب سذاجة وعجز. نعم إنه وإن شابه منتهى العجز فلقد كان فى منتهى الوفاء والشرف ، وهو فوق ذلك وجدان قديم خلقه الله حين خلق الإنسان. وأما لو أمكننى أن أفهمكم ما لم أزل أعتقد منذ زمن مديد من أن هذا الوجدان هو عنصر الرجولة الحيوى وروح تاريخ الإنسان فى هذه الدنيا. لكان لكم فى ذلك غنية عن كل ما سوف ألقيه عليكم من هذه المحاضرات. نحن لا نعبد أعظم رجالنا الآن كلا ولا نفرط فى إجلالهم بل نقتصد يا للأسف فى إجلالنا لهم ألأم اقتصاد ! فهذا وربكم شر ونكر ، ولكن خلو العالم من العظماء أشر وأنكر وأدهى وأمر.

وكذلك ترى فى مذهب هؤلاء الوثنيين على علاقته فضلاً بقيمة ثينة ، وهو وإن لم يكن اليوم بحق فقد كان فى يومه حقاً. أليست كأنها صوت آبائنا الأول يصيح من أعماق القرون الغابرة ، يهيب بنا نحن أبناءهم الذين لا تزال عروقنا تزخر بدمائهم يقول : « هذا رأينا فى الدنيا ، هذا كل ما استطعنا أن نصور به لأنفسنا سر هذه الحياة وهذا الكون ، فلا تحتقروا رعاكم الله رأينا ومبلغ جهدنا ، واجعلوا بدل احتقاركم لنا شكراً لله الذى رفعكم فوقنا درجات فأصبحتم بحمده أكثر منا إشرافاً على كونه وأصح رؤية ، ولكن لا تحسبوا أنكم بلغت القمة فإن رأيكم وإن فضل رأينا لكنه ما زال جزئياً ناقصاً ، والأمر أعظم من أن تناله مدارك إنسان لا أثناء الزمان ولا خارج الزمان. وكأنى بالإنسان بعد أن تمر عليه من هذه اللحظة آلاف السنين بالرقى والنهوض ، لا يزال يجد أن أقصى جهده هو الإمام بطرف من أطراف هذا الكون ، فإن الأمر كما قلت أكبر من الإنسان وليس فى وسعه أن يفهمه ، وكيف وهو شئ عديم النهاية .

الإيمان بأن الكون شئ إلهى مقدس ومناجاة المرء للقوى الخفية البادية آثارها فيما حوله من الكائنات ، هو عنصر خرافات الإسكندناف وسائر

الخرافات. ولعل الوثنية الإسكندنافية أصدق في هذا الأمر من جميع ما عداها إذ الإخلاص أكبر خواصها. وهذا الإخلاص هو عزائنا على خلق ذلك المذهب مما يزين وثنية اليونان من الرقة والتهذيب ، فقد أحس أن هؤلاء الشماليين كانوا يتأملون الطبيعة بعين بصيرة وروح يقظى ، وقلوب صحيحة مخلصه جمعت بين معنى الطفولة والرجولة ، إلى سداجة فى شرف إحساس وعمق فى نشاط وصفاء وإجلال فى شغف وإخلاص فى شجاعة ، فله أولئك القوم ما كان أشجعهم وأصدقهم. وكذلك ترى أن هذا الإيمان بالطبيعة قد كان أكبر عناصر الوثنية ، فأما الإيمان بعظمة الإنسان وواجباته الإلهية والأدبية وإن لم يكن مفقوداً من الوثنية ، فهو العنصر الأهم فى الأديان والأطهر والأصفى. وكذلك ترى أن الإنسان يذهب فى أول أمره إلى الطبيعة وقواها فيرتاع لها ويعبدها ، ثم يعرف أنه لا قوة فى الحقيقة إلا القوة الأدبية وإن أهم الأمور هو تمييزه بين الخير والشر ، بين الفرض والمحرم إلا بعد تصرم الدهور الطويلة.

أما من حيث الخرافات المذكورة فى كتابهم المسمى الـ « أدا » فهى كما ذكرت آنفا أحدث عهداً من مدة « أودين » ، ولعلها لم تكن فى نظر أولئك الأقوام إلا ضرباً من اللهو والفكاهة ولم تكن إنجيلاً لهم ولا تورا. إذ أن العقيدة كما قدمت لا بد أن توجد أولاً ثم تزدحم حولها الأقاصيص الشعرية التفاضل الجسد بالروح. ولا أحسب العقيدة الشمالية إلا أنها كانت قبل نظم الأشعار حية فعالة فى نفوس أهلها ، وكذلك سائر العقائد تكون أنشط وأسمى كلما كانت أسكت وأصمت.

ومما يرى فى كتابهم الـ « أدا » ذلك الكتاب المبهم المظلم ، يؤخذ أن رعوس العقائد لم تكن إلا ما يأتى الإيمان بالمنتخبين ، وهم الآلهة الموكلون بانتخاب من يقضى عليهم بالقتل فى ساحة الوغى وحومة الحرب ، ثم الإيمان بالقضاء المحتوم وهو أن من قضى عليه أن يموت قتلاً فلا مرد لذلك القضاء ولا مفر ، ثم الاعتقاد بأن أول واجبات المرء هو أن يكون شجاعاً. أليست هذه الثلاثة هى أعظم أصول الشرائع العظمى شريعة لوثر وشريعة محمد ؟ بل أزيدكم وشريعة نابليون

أيضا ، بل هي سنة الإنسان أينما كان وكيفما كان ، وهي السلك الذى يؤلف نظام فكره أجمع ، والخيط الذى منه ينسج ثوب عقيدته . وهؤلاء المنتخبون يسوقون الشجعان الذين قضوا فى معترك القتال إلى قاعة « أودين » ، أما الأرقّة الأحساء والجناء الأذلاء فينبذون فى ديار « هيل » إلهة الموت . هذا هو فيما أراه روح الوثنية الشمالية جميعها ، فقد كان أولئك الأقوام يعتقدون أن الشجاعة رأس كل شىء ، وإنها على الحر الكريم فرض محتوم وضربة لازب ، وأنهم يستوجبون سحق « أودين » ويستزلون عقابه إذا هم لم يشجعوا فى جميع المواطن فانظروا بربكم أما ترون فى ذلك معنى عاليا كبيرا ؟ حقا إنه لواجب أبدي وفرض سرمدي حتى اللحظة ، كما كان حقا فى تلك العصور أن يكون الإنسان شجاعا ، وما زال أول واجبات المرء أن يقهر الخوف . وحقا إنه ينبغى لنا أن نقطع دابر الخوف فإنه لا سبيل إلى العمل حتى لصنع ذلك . فإذا لم يجعل المرء الخوف وراء ظهره وتحت قدمه كان خليقا أن تحبث نفسه ويفسد طبعه ، وتكون أعماله تقليدية لا استقلالية وأفكاره زورا وباطلا لصنورها عن نفس ذليل وقلب جبان . ولذلك أرى أنه لو استخلص لباب المذهب الأودينى من قشوره لألفى حقا إلى هذه الساعة . كيف لا وإنما أول واجبات الإنسان أن يكون كما قدمنا شجاعا ، وأن يمضى قدما فى سنته ، ويكون رجلا فى كل ما يحاول ويحاول . ثم هو فى جميع ذلك يؤمن بقضاء الله وقدره . وما زال ظهر المرء على الخوف وظهوره على الجبن هو ميزان فضله ومقياس رجولته فى كل آن . ولا شك فى أن شجاعة أولئك الشماليين القدماء كانت وحشية جدا ، وقد روى المؤرخ « سنورو » أنهم كانوا يرون الموت فى غير مواطن الحرب عارا وسبة .

تسيل على حد الظبابة نفوسنا وليست على غير الظبابة تسيل
وما مات منا سيد حتف أنفه ولا طل منا حيث كان قتيل
فإذا أحس أحدهم دنو الأجل واقترب الموت الطبيعى ، أحدث الجراح فى بدنه تزلفا بذلك إلى « أودين » ليفسح له فى جناته مقاما . وكان الملوك إذا

أشرفت عليهم منايهم أمروا بأنفسهم أن يجعلوا فى سفن ، ثم يرسل السفينة فى اليم منشورة القلاع تدب فى خشبها نار بطيئة المسرى ، فإذا انساب بها زأخر التيار وهبت له الريح ، تأججت فى بدنها النار وطار فى أركانها شواظها . وكذلك يلقي البطل العظيم بين أحشاء الماء وجوانح الهواء قبرا — شجاعة وحشية قاسية حمراء دامية ولكنها شجاعة ، وخير من لا شىء . ثم أى نجدة روعاء وهمة قعساء وأى عزيمة ومضاء قد كانت للملوك البحر من أولئك الشماليين ! لكأنى والله أراهم مشمرين على ظهور سفنهم صامتين مقفلى الشفاه غير شاعرين بأنهم قد أوتوا منتهى البسالة والنجدة — يكافحون البحر الثائر وعفاريت أمواجه وشياطين حيتانه ونينانه ، بل يكافحون البر والبحر وكل ما عليهما . أولئك آباء بحارتنا : رالى وبلاك ونلسون ! لقد ذهب أولئك الأبطال وما ترنم بعظائم أعمالهم شاعر كهوميروس ، إلا إنى أرى مآثر أغاممنون (أحد أبطال اليونان فى شعر هوميروس) تتضاءل فى جانب مسعاة رجل من أولئك الأبطال الشماليين ، رجل مثل « رولف » أو « رولو » أمير نورماندى ذلك الملك البحرى الفاتك ، فإنى أرى له الآن يداً فى حكومة إنكلترا وإن كان قد مرت على عهده القرون والدهور .

ولم يكن بلا فائدة كل ما فعله أولئك الأقوام من الجولان فى البحار ومن الحروب والوقائع أثناء عدة أجيال ، لأن ذلك لم يكن إلا تنازع الرئاسة ليعلم أى أمة أقوى فتسود . ثم رأيت أن من أولئك الملوك الشماليين من كان يلقب قاطع الشجر ، أعنى الملوك الذين كان من شأنهم قطع الغابات ، وفى ذلك معنى وأيم الله كبير . ولقد أخطأ المؤرخ « سكالدر » حيث زعم أن هؤلاء الملوك كان أمرهم قاصراً على الحرب ، بدليل أن الحرب وحدها لا ترزق أمة ولا تثير شعباً ، وكيف وثمارها قليلة وخيراتها نزره ! وإنى لأحسب أن المحارب الصادق يكون كذلك الغابى^(١) الصادق ، أعنى أنه يكون أيضاً المصلح الصادق والمفكر الصادق

(١) أعنى قاطع الغاب .

والعامل الصادق ، لا يدع أمراً إلا ويتناوله برفق وصدق ، وما ذلك إلا لأن الشجاعة الصادقة هي الأساس لكل هذه الأمور ، والشجاعة الصادقة شىء والقسوة والفظاعة شىء آخر ، فقطع الغاب ضرب من الشجاعة الصادقة قد أبداه أولئك القوم ضد الغابات وضد الظلم الوحشى من قوى الكون ليذلوا لنا الطبيعة ! أو لم نسر نحن أبناءهم فى ذلك الطريق الذى نهجوه لنا ؟ إذن أفلا يعد الله تلك الهمة وهاتيك الشجاعة ؟

ويظهر لى أن تعليم أودين قومه فضيلة الشجاعة وإجابة القوم إياه ، لإصابة قوله هوى فى نفوسهم وظنهم أن كلامه وحى جاء به من السماء ، وإنه لذلك إله - يظهر له أن هذا هو أول بذرة نبتت منها الديانة الشمالية وفروعها من الخرافات على اختلاف ضروبها وألوانها والرموز الشعرية والقصائد والقصص والأناشيد والأغاني إلخ. أقول نبتت ! عجباً عجاباً ! إنما يقال نبت للشىء الحى. وقد قلت إن هذا المذهب الوثنى لم يك إلا ظلمة حالكة يبرق فى جوفها ذهن أودين كالنجم فى الديجور ، نعم ولكنها ظلمة حية . تدبروا رعاكم الله ذلك . هذه الظلمة هي الذهن المتوحش الجاهل - ذهن تلك الأمة البربرية الشمالية يصبو ويتلهف على أن يلهمه الله الفطنة والنطق فيستمر إلى ما شاء الله فى فطنته ونطقه ! نعم إن الفكر بذرة تنبت وتنمو ثم تنمو ، ثم لا تزال تنمو وتنمو كشجرة الهند متى أصبت بذرة منها فقد حصلت من شجرها على ما لا نهاية لعدده . وذلك أن البذرة تخرج شجرة ، فأى فروع هذه الشجرة أصاب الأرض صار فى الحال جذراً لشجرة جديدة تنبت فروعاً فتصير جذوراً ، وهكذا إلى ما شاء الله ، والفكر حى لا يموت ، وأول من فكر من الرجال على ظهر هذه الأرض فهو بادئ الجميع - ثم الثانى والثالث . بل كل مفكر صادق إنما هو من قبيل « أودين » أو إن شئت فقل إنما هو « أودين » على النكرة ، ثم هو قد بعثه الله ليعلم الناس رأيه فى الله وفى الكون والإنسان ، وينشر ظل صورته على أجزاء من تاريخ العالم .

فأما مزايا ذلك المذهب الشعرية فهذا ما لا موضع له هنا ، كلا ولا كبير أهمية . وقد توجد أشعار نبوية حادة حارة ولكنها على كل حال ضرب من اللهو أضافها إلى قواعد الدين أناس متأخرون ، وما أحسب أنه قد بقى من أشعارهم إلا الأغاني . وأمثال هؤلاء المتأخرين لا يزال منهم من يترنم بالأشعار شأن المصورين المحدثين لا يبرحون يصورون ، لا من صميم القلوب كما كان قدماء المصورين وكما هو الأصل فى التصوير والباعث عليه ، بل ربما ليس من القلوب ألبتة فاعلموا ذلك ولا تنسوه .

وقد حاول شاعرنا « جرای » أن يصف لنا عيشة أولئك الوثنيين القدماء فخاب خيبة الشاعر بون ، إذ ترجم « الإلياذة » فلم يؤاته الشعر على إبراز روح هوميروس ، وحسب جرای أن حياة أولئك القوم كانت موحشة مظلمة ترفرف عليها ظلال الروح والرعب فصورها كذلك ، ولم يدر أن أهم عناصرها هى وعورة كوعورة صخورها وخشونة كخشونة قفارها ، إلى أنس لا وحشة وانسراح لا انقباض ، وشيء من الفكاهة والضحك بين مناظرها المهيبة ومشاهدها الرهيبة . وكان القوم غاية فى السذاجة لم يميلوا فى تصوير آلهتهم ووقائع هذه الآلهة إلى ما مال إليه إخوانهم اليونان من روائع الرواية التمثيلية ، فكأنى بأولئك الشماليين لا يجدون فى وقتهم فسحة لأن يقفوا مبهورين مرتعدى الفرائص أمام مدهشات المرسح . ثم يعجبني جداً سذاجتهم وصدقهم واستقامة نظرهم ، فمن ذلك ما يتخيلون من أن « ثورا » إله الرعد يقطب جبينه فى حنق صادق ، ويقبض على سيفه قبضة تبيض من شدتها مفاصل أصابعه ، ثم أجد كذلك الرحمة بادية فى أجمل مظاهرها فى خرافاتهم تلك ، فمن ذلك أن « تولدار » الإله الأبيض إله الشمس الكريم المنعم الجميل يموت ، فلم يدعوا فى الطبيعة شيئاً إلا نقبوا فيه عن دواء . ولكنه مات وقضى الأمر فتبعث أمه « فريجا » رسولا اسمه « هرمودر » لبحث عنه . ويطوى الرسول تسع ليال وتسعة أيام يخب فى أودية منخفضة مظلمة ، ومنعرجات معتمة مشكلة ، حتى يبلغ القنطرة وسقفها الذهبى . ويقول له الحارس « نعم ، لقد عبر « بولددار » ههنا

آنفا ولكن مملكة الموت هنالك بعيدة جداً إلى جهة الشمال « فيستمر الرسول في سبيله حتى يصل باب مملكة ويرى بولدار يحادثه ، فإذا هو رهين بذلك الملك قد قضى عليه ألا يغادره قضاء محتوما لا مفر منه . وقد أبت ملكة الموت أن تطلقه ، كلا ولو أرادت ذلك الإلهة طرا . ثم إن امرأته تطلب من أجله أن تموت لنؤنسه في ديار الموت فيجابه طلبها ، ويبقى الزوجان معا آخر الأبد . ثم يرسل « بولدار » خاتمه إلى « أودين » وترسل زوجته «نانا» خاتمها على سبيل الذكرى — وا أسفاه ووارحمته ؟

والحقيقة أن الشجاعة ينبوع الرحمة — ينبوع الصدق والشرف والكرم والمروءة والبر وسائر المحامد والمناقب . وقد قال المؤرخ « أهلاند » أليس من آيات القوة والشجاعة أن تجد نفوس هؤلاء القوم في إله الرعد رفيقا مؤنسا ؟ وألا تخاف ولا تذعر من رعده ، بل ترى أنه لا بد لحرارة الشمس وللصيف الحلو الجميل من مصاحبة الرعد ؟ وقد كان الرجل الشمالى يرتاح ويستأنس إلى « ثورا » ويحبه ويجب سيفه القاذف بالصواعق ، ويلاعبه ويداعبه ، وكان ذاك الإله عنده هو إله الحرارة الشمسية أيضا ، أعنى إله العمل والأمن والخير والبركة ، وصاحب الفلاح ورفيقه فى الغرس والحراث . ثم إن « ثورا » نفسه لا يرتفع عن مباشرة جميع الأعمال الخشنة السوقية ، وما يزال يذهب إلى ديار الشياطين لينذل عفاريت الثلج والجليد ويقهرها ، وفى بعض هذه الأقاويل ما فيه من الفكاهة والضحك .

فمن ذلك ما ذكرنا من أن « ثورا » يذهب إلى ديار « المردة » ليجلب مرجل «هيمير» حتى تصنع فيه الآلهة نبيذ الشعير ، فيدخل عليه «هيمير» شيخ الأبالسة ولحيته مرصعة بالبرد . وكلما رمى يبصره عمودا من العُمد انفلق من حدة نظرتة . وبعد طويل صخب وعرباة يأخذ « ثورا » المرجل فيلبسه فى رأسه فإذا هو قد بلغ قدميه ، ذلك لأنه مرجل مارد — « هيمير » الذى كأن كل بقرة من بقره هضبة من الثلج .

هذه أفكار وأيم الله ماردية هائلة الجسامة ، غير أنها تحتاج إلى أن تراض وتلذل حتى تصبح أفكاراً شاكسبيرية ودانتية^(١) وجايتية^(٢) . ثم أنى أبصر نسبة قريبة بين « ثورا » إله الرعد و« جاك قاتل المردة » وبين « هندايين » و« إيتن الأحمر الإيرلندى » التى جاءت فى أقاصيص شعراء أحدث عهداً من شعراء تلکم العصور الوثنية ، بل إنى لا أجد « هامليت شاكسبير » إلا فرعاً من تلك الشجرة القديمة الشمالية وهذا ما لا نزاع فيه ولا ريب ، نعم إن هامليت أو أمليت قد ورد فى خرافة قديمة من أساطير الأولين ، تحدثت عن مقتل ملك بصب السم فى أذنه أثناء نومه إلى غير ذلك من حوادث الرواية الشاكسبيرية . خرافة قديمة أخذها أولاً الشاعر القديم « ساكسو » فصاغ منها قصة دانيماركية ، ثم تناول شاكسبير ما صنعه « ساكسو » فصور منها ما ترونه . فهذا فرع من الشجرة الشمالية المنفسحة الأفياء قد نما طبيعة أو صدفه !

وحقا إن فى هذه الأغاني الشمالية معنى صادقاً شريفاً شأن كل قول يتداوله الرواة وتتوارثه القرون ، وليس هو مجرد جزالة فى اللفظ وشرف فى الديباجة ولكنما شرف وجزالة فى المعنى وخشونة فى الروح ووعورة . وأرى فى قلوب أولئك القدماء جداً صادقاً وإطراقاً فى غير ضجر ولا شكوى ، وكأنى بهؤلاء الشماليين قد رأوا بالبديهة والإلهام ما رآه الناس فى جميع العصور بالروية والتفكير ، وهو أن الدنيا باطل وعرض زائل بل خيال لا حقيقة ، وكذلك رأى الفلاسفة من كل أمة وملة .

العيش نوم والمنية يقظة والمرء بينهما خيال سارى
ومن أقاصيص القوم ذات الحكمة والعظمة ، أن « ثورا » يذهب إلى « أئجارد » — حديقة أرض المردة يصحبه اثنان من أتباعه « ثيالفى » و« لوكى » وبعد حوادث مختلفة يأتون بلاد المردة فيجعلون يطوفون فى سهول وقفار بين

(١) نسبة إلى دانتى أكبر شعراء إيطاليا وأعظم رجالها قاطبة .

(٢) نسبة إلى جايتى أكبر شعراء ألمانيا وأعظم رجالها على الإطلاق .

صخور وأشجار ، حتى إذا جن الليل آتسوا دارا ، وكان جانب من جوانبها كله باب فولوجوه فإذا مكان خال فأقاموا به . فلما سجد الليل راعهم ضجيج وضوضاء فأخذ « ثورا » معوله واعتور الباب متحفزاً للقتال ، وجعل صاحبه يجران هنا وهناك فزعا يلتمسان مخرجاً ، فوجدوا غرفة صغيرة فعازا بها وأقام ثورا بالباب يتربعدوا مهاجماً ولا عدو . ولما أصبحوا وجدوا أن الضوضاء لم تكن إلا شخير مارد جسيم ولكنه مسالم .. المارد « سكيرمير » وكان نائماً ناحية منهم . وكان المكان الذى حسبه داراً فباتوا فيه إنما هو إحدى قفازتى ذلك المارد قد ألقاها إلى جانبه عندما أراد النوم ، وكانت الغرفة التى عازا بها هى بيت الإبهام ولم يكن للقفازة بيوت لسائر الأصابع . يا لها من قفازة عتيقة !

ثم إن المارد « سكيرمير » صعبهم سحابة اليوم يحمل حقيبتهم ، ولكن « ثورا » ارتاب بالمارد وعزم على قتله متى نام . وكذلك أتاه وهو راقد فضربه بمعوله ضربة تصدع الصخر الأصم فلم يفعل المارد أكثر من أنه انتبه وحك وجنته وقال : ورقة سقطت . ثم عاد إلى نومه فأرسل « ثورا » على وجهه ضربة أشد فلم يك من المارد أكثر من أنه همس قائلاً : ما هى إلا حصاة . ثم نام فصب عليه « ثورا » يديه جميعاً ضربة أحدثت أثراً بوجه المارد ، فما زاد على أن قطع شخيره وقال : أحسب أن بهذه الشجرة عصفير ، وإلا فما هذا الذى سقط على ؟ ثم إن « سكيرمير » دخل بأصحابه باب حديقة المردة وكان يوم لهُو وشراب ، فناولوا « ثورا » كأساً وسألوه أن يشتف ما فيه بجرعة واحدة فكرع فيه ثلاثاً طوالاً وما كاد يحدث أثراً . فقالوا له : طفل ولا ريب . ثم أوماً له إلى قطعة فسألوه : أيقدر أن يرفعها ، فحاول « ثورا » فما استطاع أن يرفع بعد الجهد الجهد إلا إحدى أقدامها ، فقالوا له : ما أنت يا هذا برجل — انظر ثمة إلى تلك العجوز البالية أيمكنك أن تصرعها . فعانتها ثورا وجهه وكد فما فعل شيئاً .

ولما هموا بالرحيل شيعهم رئيس المردة وقال لثورا : لقد غلبت ولكن لا تخجل فإن فى الأمر سرّاً أنا كاشفه لك . فأما الكأس التى حاولت أن تشرب فلم تقدر فذلك البحر ، وحسبك أنك أحدثت به جزراً ، ومن ذا الذى يا ثورا

صخور وأشجار ، حتى إذا جن الليل آنسوا دارا ، وكان جانب من جوانبها كله باب فولوجوه فإذا مكان خال فأقاموا به . فلما سجد الليل راعهم ضجيج وضوضاء فأخذ « ثورا » معوله واعتور الباب متحفزا للقتال ، وجعل صاحبه يجريان هنا وهناك فزعا يلتمسان مخرجا ، فوجدوا غرفة صغيرة فعادا بها وأقام ثورا بالباب يتربعدوا مهاجما ولا عدو . ولما أصبحوا وجدوا أن الضوضاء لم تكن إلا شخير مارد جسيم ولكنه مسالم .. المارد « سكيرمير » وكان نائما ناحية منهم . وكان المكان الذى حسبوه دارا فباتوا فيه إنما هو إحدى قفازتى ذلك المارد قد ألقاها إلى جانبه عندما أراد النوم ، وكانت الغرفة التى عاذا بها هى بيت الإبهام ولم يكن للقفازة بيوت لسائر الأصابع . يا لها من قفازة عتيقة !

ثم إن المارد « سكيرمير » صاحبهم سحابة اليوم يحمل حقيبتهم ، ولكن « ثورا » ارتاب بالمارد وعزم على قتله متى نام . وكذلك أتاه وهو راقد فضربه بمعوله ضربة تصدع الصخر الأصم فلم يفعل المارد أكثر من أنه اتبته وحك وجنته وقال : ورقة سقطت . ثم عاد إلى نومه فأرسل « ثورا » على وجهه ضربة أشد فلم يك من المارد أكثر من أنه همس قائلا : ما هى إلا حصاة . ثم نام فصب عليه « ثورا » يديه جميعا ضربة أحدثت أثرا بوجه المارد ، فما زاد على أن قطع شخيريه وقال : أحسب أن بهذه الشجرة عصافير ، وإلا فما هذا الذى سقط على ؟ ثم إن « سكيرمير » دخل بأصحابه باب حديقة المردة وكان يوم لهُو وشراب ، فناولوا « ثورا » كأسا وسألوه أن يشتف ما فيه بجرعة واحدة فكرع فيه ثلاثا طوالا وما كاد يحدث أثرا . فقالوا له : طفل ولا ريب . ثم أوماً له إلى قطة فسألوه : أيقدر أن يرفعها ، فحاول « ثورا » فما استطاع أن يرفع بعد الجهد الجهيد إلا إحدى أقدامها ، فقالوا له : ما أنت يا هذا برجل — انظر ثمة إلى تلك العجوز البالية أيمكنك أن تصرعها . فعانقها ثورا وجهه وكد فما فعل شيئا .

ولما هموا بالرحيل شيعهم رئيس المردة وقال لثورا : لقد غلبت ولكن لا تحجل فإن فى الأمر سرا أنا كاشفه لك . فأما الكأس التى حاولت أن تشرب فلم تقدر فذلك البحر ، وحسبك أنك أحدثت به جزرا ، ومن ذا الذى يا ثورا

يستطيع أن يشرب البحر ؟ وأما الهرة التى أردت أن ترفعها فتلك هى الحية التى تلتف حول الأرض فتمسك أجزائها وتضم أركانها ، فقل لى أكنست محاولا برفعك إياها أن تخرب العالم ؟ وأما العجوز فهذه هى الدهر والهرم والدوام ، ومن ذا الذى يصارع ذلك ؟ لا إنسان ولا إله فإنها غلبة لكل شىء . وأما الضربات الثلاث التى ضربتها فتأويلها أن تنظر إلى هذه الأودية الثلاث « فهى من صنع ضرباتك » فنظر « ثورا » إلى رفيقه فإذا هو المارد « سكيرمير » وهذا المارد هو الأرض ذاتها ، وما قفازته إلا أحد الكهوف ، وأملس المارد فلم يبق له أثر . ثم إن ثورا التفت لينظر حديقة المردة فإذا هى قد صارت هواء ولم يبق إلا صوت المارد يهتف به ساخراً : « أولى لك ألا تعود إلى ديار المردة » .

هذا من الرموز الشعرية الفكاهية لا من الأقاويل التنبؤية الجدية ، ولكن أليس فيها على خرافتها مادة غزيرة وذهب إبريز ؟ نعم ذهب أنقى وأصفى مما يوجد فى خرافات اليونان ، وإن كانت أجود صنعة وأرشق معرضاً . وقد أرى لذلك المارد « سكيرمير » فكاهة جميلة أساسها الجد والاعتبار والحزن كأنها قوس قزح وسط الزوبعة السوداء ، ومن هذا القليل كانت فكاهة شاعرنا الفحل « بين جونسون » وهى فكاهة تجرى فى دماغنا حسبما يخيّل إلى لأنى أكاد أسمعها الآن من أقاصى غابات أمريكا يصدح بها كاتبها الكبير « أمرسون » .

ومن الرائع الكبير من أفكار القوم ذاك الذى فى الصورة الآتية ، وهو أنه تقوم حرب بين المردة والآلهة فتنتهى بموت الجميع وخراب الكون ، ولكنه موت مؤقت ريثما يتجدد كون ذو سماء أجمل وأبهى ، وأرض أنضر وأحلى ، وإله أشرف وأقوى يعدل بين الناس جميعاً . فعجيب من هؤلاء الناس كيف أدركوا بطريقتهم الخشنة ومذهبهم الوعر سر القيامة والبعث ، وهذا فيما أراه القانون الأساسى لكل مخلوق أحدثه الدهر وأقامه فى دار الأمل^(١) . قانون قد نفذ إليه نظر ذوى الإخلاص والبصيرة وسينفذ ما دام الإنسان .

ولننظر الآن إلى الخرافة التى يذكر فيها آخر ظهور « ثورا » فى الأرض ونجعلها حاتمة هذا الباب ، ولعلها فيما يخيل إلى آخر هذه الخرافات عهداً وفيها إنكار لانتشار النصرانية مشفوع برنة حزن على ما تولى من عهود الوثنية .. وضعها على سبيل العتاب والشكوى رجل من محافظى الوثنيين فى أوائل انتشار النصرانية ببلاد النرويج ، وهذا فحواها : بينما الملك « أولاف » أمير النرويج ذلك الذى كانت له اليد الطولى فى هدم صروح الوثنية ونشر ألوية النصرانية فى البلاد ، سائحاً فى حاشيته على سواحل النرويج يتنقل من ثغر إلى ثغر ويث العدل فى الرعية أو يصلح من أمورها ، إذا بغريب بادی الوقار أصهب اللحية نبيل الصورة مهيب الطلعة قد طراً ، ثم كان من حديثه ما أعجب الملك وراعاه ، ولكنه ما لبث أن غير لهجة كلامه فخطب الملك قائلاً : نعم أيها الملك « أولاف » ، ما أجمل هذا الشاطئ يزهر فى رونق الضحى ، وما أندى حضرتيه وأبهى نضرتيه . فحبذا السهل وحبذا الجبل ، وهنيئاً لك الملك والدولة والسلطان ولكن اذكر أنك ما كنت ممتعا بذاك لولا ما مهده لك « ثورا » من أمر البلاد ، وما وطأه لك من شأن الملك ، فكم كافح دونه المردة ، وكم دافع عنه الأبالسة . وكم لاقى فى ذلك من يوم أرونان (شديد) ونهار عصيب ، والآن إذا استتب لك الأمر تناسيت « ثورا » ودفنت ذكره . فيا أيها الإنسان انتبه من رقتك وكن من أمرك على حذر ! » قال الغريب ذلك وقطب جبينه ، والتفت الملك وحاشيته فإذا هو قد غاب عن الأبصار ، وكان هذا آخر ظهوره على مسرح العالم!

وإنى لأرى باعث حزن وشجن فى ذلك الصوت .. آخر أصوات الوثنية الذى فنى معه « ثورا » والعالم الشمالى بأكمله فناء لا رجعة بعده ، وكذلك كل جليل ورائع وعظيم فى الفناء مصيره ، وما من شىء حبيب إلينا عزيز علينا إلا وتجرى بالفراق بيننا وبينه بارحات الطير ونجوم النحس ، ويروعنا بنواه يوم وداع .

وكذلك كان لأولئك الشماليين الأبحاد فى تقديس الشجاعة (هكذا يمكننا أن نعرف وثيتهم) ما كفاهم دينا وشرعا ، وما تقديس الشجاعة بالأمر الهين . ثم لا أحسب إلا أن عرفاننا بعض الشئ عن وثنية آبائنا شئ مفيد ، ذلك أن الدين لا يبرح منه فى نفوسنا — وإن لم نشعر بذلك — أثر ، فشعورنا به جدير أن يجعل صلتنا بالماضى أكد وفهمنا له أصفى وأثقب ، والماضى تعلمون ميراث لنا وأى ميراث ، وهو جزء من الحقيقة التى هى مجموع كل عصر وكل أمة فعلمنا بالجميع خير من جهلنا به . وقد جاء فى كلام « جايتى » أن رجلا اسمه « مايستر » سأل أستاذة بأى الأديان الثلاثة أنت مؤمن ؟ فأجاب « بجميعها ، لأن من اجتماعها يتكون الدين الحق » .

المحاضرة الثانية

(البطل فى صورة رسول)

(محمد - الإسلام)

ننتقل الآن من تلك العصور الخشنة .. الوثنية الشمالية إلى دين آخر فى أمة أخرى .. دين الإسلام فى أمة العرب ، وما هى إلا نقلة بعيدة وبون شاسع بل أى رفعة وارتقاء نراه هنا فى أحوال العالم العامة وأفكاره .

فى هذا الطور الجديد لم ير الناس فى بطلهم إلهاً بل رسولا بوحى من الإله ، وهذه هى الصورة الثانية للبطل . فأما الأولى وأقدم الجميع فقد ذهبت إلى حيث لا تعود أبداً ولن ترى الناس يؤلهون البطل مهما عظم ، بل لنا أن نسأل : أكان من أى ناس قط أنهم عملوا إلى رجل يرونه ويلمسونه فقالوا هذا خالق الكون ؟ أنا لا أظن ذلك ، إنما يقولون هذا القول فى رجل يتذكرونه أو كانوا رأوه على أن هذا أيضاً لن يكون قط ، ولن يؤله البطل من ثم فصاعداً ولو بلغ منتهى العظمة .

لقد كان اعتبار الرجل العظيم إلهاً غلطة وحشية فاحشة . ولكن دعنا نقل إن الرجل العظيم ما برح فى جميع الأزمان لغزاً من الألغاز لا ندرى كيف نفسره ولا كيف نستقبله ونعامله ! ولعل أهم مزايا جيل من الأجيال هو كيفية استقبله لرجله العظيم ، وسواء استقبلوه كإله أو كنبى أو كيفما كان ، فذلك هو السؤال الأكبر . ومن طريق إجابتهم عن هذا السؤال وكيفية مذهبهم فى ذلك الأمر يمكننا أن نبصر صميم حالتهم الروحانية كما لو كان من خلال نافذة .

فإن الرجل العظيم إذا كان مصدره واحداً - أعنى من ذات الله فهو جنس واحد : « أودين » أو « لوثر » أو « جونسون » أو « بارنز » وأرجو أن أوفق

إلى إفهامكم أن جميع هؤلاء من طينة واحدة ، وأنه لم يحدث الخلاف العظيم بين أحدهم والآخر إلا الهيئة التي يكتسونها هم ، أو الطريقة التي يستقبلها بها أهل زمنهم .

لقد أصبح من أكبر العار على أى فرد متمدين من أبناء هذا العصر أن يصغى إلى ما يظن من أن دين الإسلام كذب ، وأن محمداً خداع مزور ، وأن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة ، فإن الرسالة التي أداها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير مدة اثني عشر قرناً لنحو مائتي مليون من الناس أمثالنا ، خلقهم الله الذي خلقنا ، أفكان أحدكم يظن أن هذه الرسالة التي عاش بها ومات عليها هذه الملايين الفاتكة الحصر والإحصاء كذبة وخذعة ؟ أما أنا فلا أستطيع أن أرى هذا الرأي أبداً ، ولو أن الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج ، ويصادفان منهم مثل ذلك التصديق والقبول ، فما الناس إلا بله ومجانين ، وما الحياة إلا سخف وعبث وأضلولة كان الأولى بها ألا تخانق .

فوا أسفاه ! ما أسوأ مثل هذا الزعم وما أضعف أهله وأحقهم بالراء والمرحمة . (وبعد) فعلى من أراد أن يبلغ منزلة ما فى علوم الكائنات ألا يصدق شيئاً ألبته من أقوال أولئك السفهاء ! فإنها نتائج جيل كفر ، وعصر جحود وإلحاد ، وهى دليل على خبث القلوب وفساد الضمائر وموت الأرواح فى حياة الأبدان ، ولعل العالم لم ير قط رأياً أكفر من هذا وألأم ، وهل رأيت قط معشر الإخوان أن رجلاً كاذباً يستطيع أن يوجد ديناً عجيباً ؟ والله إن الرجل الكاذب لا يقدر أن يبنى بيتاً من الطوب ! فهو إذا لم يكن عليماً بخصائص الجير والجص والتراب وما شاكل ذلك ، فما ذلك الذى يبنيه بيت وإنما هو تل من الأنقاض وكثيب من أخلاط المواد ، نعم وليس جديراً أن يبقى على دعائمه اثني عشر قرناً يسكنه مائتا مليون من الأنفس ، ولكنه جدير أن تنهار أركانه فينهدم فكأنه لم يكن . وإنى لأعلم أنه على المرء أن يسير فى جميع أموره طبق قوانين الطبيعة وإلا أبت أن تجيب طلبته ، وتعطيه بغيته . كذب والله ما يذيعه أولئك الكفار وإن زخرفوه حتى خيلوه حقاً ، وزور وباطل وإن زينوه حتى أوهموه صدقاً ، ومحنة

— والله — ومصاب أن ينخدع الناس شعوبا وأما بهذه الأضاليل وتسود الكذبة وتقود بهاتيك الأباطيل ، وإنما هو كما ذكرت لكم من قبيل الأوراق المالية المزورة يحتال لها الكذاب حتى يخرجها من كفه الأثيمة ، ويحقيق مصابها بالغير لا به . وأى مصاب وأيكم ؟ مصاب كمصاب الثورة الفرنسية وأشباهها من الفتن والمحن تصيح بملء أفواهها « هذه الأوراق كاذبة ! » .

أما الرجل الكبير خاصة ، فإننى أقول عنه يقيناً إنه من المحال أن يكون كاذباً ، فإننى أرى الصدق أساسه وأساس كل ما به من فضل ومحمدة . وعندى أنه ما من رجل كبير — ميرابوا أو نابليون أو بارنز أو كرمويل — كفاء للقيام بعمل ما إلا وكان الصدق والإخلاص وحب الخير أول باعثاته على محاولة ما يحاول . أعنى أنه رجل صادق النية جاد مخلص قبل كل شيء . بل أقول إن الإخلاص — الإخلاص الحر العميق الكبير — هو أول خواص الرجل العظيم كيفما كان . لا أريد إخلاص ذلك الرجل الذى لا يبرح يفتخر للناس بإخلاصه . كلا فإن هذا حقير جداً وأيم الله — هذا إخلاص سطحى وقح — وهو فى الغالب غرور وفتنة ، إنما إخلاص الرجل الكبير هو مما لا يستطيع أن يتحدث به صاحبه ، كلا ولا يشعر به ، بل لأحسب أنه ربما شعر من نفسه بعدم الإخلاص ، إذ أين ذاك الذى يستطيع أن يلزم منهج الحق يوماً واحداً ؟ نعم إن الرجل الكبير لا يفخر بإخلاصه قط بل هو لا يسأل نفسه أهى مخلص ، أو بعبارة أخرى أقول إن إخلاصه غير متوقف على إرادته ، فهو مخلص على الرغم من نفسه سواء أراد أم لم يرد . هو يرى الوجود حقيقة كبرى تروعه وتهوله .. حقيقة لا يستطيع أن يهرب من جلالها الباهر مهما حاول . هكذا خلق الله ذهنه ، وخلقه ذهنه على هذه الصورة هو أول أسباب عظمتة . هو يرى الكون مدهشاً وخيفاً وحقا كالموت وحقا كالحياة . وهذه الحقيقة لا تفارقه أبداً ، وإن فارقت معظم الناس فساروا على غير هدى وخطوا فى غياهب الضلال والعماية ، بل تظل هذه الحقيقة كل لحظة بين جنبيه ونصب عينيه كأنما هى مكتوبة بحروف من الذهب لا شك فيها ولا ريب . ها هى ! ها هى ! فاعرفوا — هداكم الله — أن هذه هى

أول صفات العظيم ، وهذا حده الجوهرى وتعريفه وقد توجد هذه فى الرجل الصغير فهى جديرة أن توجد فى نفس كل إنسان خلقه الله ، ولكنها من لوازم الرجل العظيم ولا يكون الرجل عظيما إلا بها .

مثل هذا الرجل هو ما نسميه رجلا أصليا صافى الجوهر كريم العنصر .. فهو رسول مبعوث من الأبدية المجهولة برسالة إلينا ، فقد نسميه شاعرا أو نبيا أو إلها . وسواء هذا أو ذاك أو ذلك فقد نعلم أن قوله ليس مأخوذ من رجل غيره ، ولكنه صادر من لباب حقائق الأشياء .. نعم هو يرى باطن كل شىء لا يحجب عنه ذلك باطل الاصطلاحات وكاذب الاعتبار والعادات والمعتقدات ، وسخيف الأوهام والآراء . كيف ؟ وإن الحقيقة لتسطع لعينه حتى يكاد يعشى لنورها ، ثم إذا نظرت إلى كلمات العظيم شاعرا كان أو فيلسوفا أو نبيا أو فارسا أو ملكا ألا تراها ضربا من الوحي ؟ والرجل العظيم فى نظرى مخلوق من فؤاد الدنيا وأحشاء الكون ، فهو جزء من الحقائق الجوهرية للأشياء ، وقد دل الله على وجوده بعدة آيات أرى أن أحدثها وأجدها هو الرجل العظيم الذى علمه الله العلم والحكمة ، فوجب علينا أن نصغى إليه قبل كل شىء .

وعلى ذلك فلسنا نعد محمدا هذا قط رجلا كاذبا متصنعا يتذرع بالحيل والوسائل إلى بغية ، أو يطمح إلى درجة ملك أو سلطان أو غير ذلك من الحقائق والصغائر . وما الرسائل التى أداها إلا حق صراح وما كلمته إلا صوت صادق صادر من العالم المجهول . كلا ما محمد بالكاذب ولا الملفق وإنما هو قطعة من الحياة قد تفطر عنها قلب الطبيعة ، فإذا هى شهاب قد أضاء العالم أجمع . ذلك أمر الله وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم . وهذه حقيقة تدمغ كل باطل وتدحض حجة القوم الكافرين .

وهب لمحمد (عليه السلام) غلطات وهفوات - وأى إنسان لا يخطئ . إنما العصمة لله وحده - فإنه ليس فى طاقة أية هفوات أو غلطات أن تزرى بتلك الحقيقة الكبرى ، وهى أنه رجل صادق ونبى مرسل .

وأرانا على العموم نجسم الهفوات ونجعل من الجزئيات حجبا تستر عنا الحقائق الكلية - الهفوات ، أيحسب الناس أنه يخلو منها إنسان ؟ إن أكبر الهفوات عندى أن يحسب المرء أنه برىء من الهفوات . ما بال الناس لا يذكرون نبي الله داود ؟ ألم يرتكب داود أفظع الجرائم وأشنع الآثام ؟ ألا ما أهون أمر الذنوب وأصغر خطر الأغلاط - الجزئيات والقشور - إذا كان لبابها كريما وسرها حرا شريفا ، وكان فى التوبة النصوح والندم الصادق ووخز الضمير ولذع الذاكرة أكبر مكفر للسيئات ومطهر لأدران الروح من أدران الشوائب ، أليست التوبة أكرم أعمال المرء قاطبة وأقدس أفعاله ؟ إنما ألأم الذنب هو كما قلت حسبان المرء أنه برىء من كل ذنب . وكل نفس هذا شأنها فهى فى نظرى مطلقة من الوفاء والمروءة ، بعيدة عن التقى والبر والحق - أو هى ميتة - أو إن تشأ فقل هى بقية بقاء الرمل الجاف الميت . وإنى أحسب أن سيرة داود وتاريخه كما هو مدون فى مزاميره لأصدق آية على ارتقاء المرء فى معارج المكرمات ، وعلى حرب العقل والهوى - حربا طالما يهزم فيها العقل هزيمة تضعضع جانبيه وتتركهلقى مشفيا على الانقراض ، ولكنها حرب بغير نهاية ، مشفوعة أبدا بالبكاء والتوبة واستنهاض العزم الصادق الذى لا يبرح يتجدد بعد كل هزيمة . يا ويل النفس الإنسانية !! ما أشد خطبها بين ضعفنا وقوة شهواتها ! أو ليست حياة الإنسان فى هذه الدنيا سلسلة عثرات ؟ وهل فى استطاعة المرء خلاف ذلك ؟ وهل يطيق فى ظلمات هذه الحياة إلا الاعتساف والتخبط ؟ فما ينهض من عثرة إلا لأخرى وبين هذه وتلك نحيب وعبرات وشهيق وزفرات . وإنما الأمر الهام هو أيطفر على هواه بعد كل هذه المجاهدات ؟ وإنا لنصفح عن كثير من الجزئيات ما دام اللباب حقا والصميم صحيحا ، وما كانت الجزئيات وحدها لتعرفنا حقيقة إنسان .

* * *

كانت عرب الجاهلية أمة كريمة تسكن بلاداً كريمة ، وكأنما خلق الله البلاد وأهلها على تمام وفاق فكان ثمة شبه قريب بين وعورة جبالها ووعورة أخلاقهم ، وبين جفاء منظرها وجفاء طباعهم . وكان يلطف من قسوة قلوبهم مزاج من

اللين والدمائة كما كان ييسط من عبوس وجود البلاد رياض خضراء وقيعان ذات أمواه وأكلاء . وكان الأعرابي صامتاً لا يتكلم إلا فيما يعنيه إذ كان يسكن أرضاً قفراً تخالها بحراً من الرمل يصطلى جمرة النهار طوله ، ويكافح بحر وجهه نفحات القر ليله .

رأت رجلاً أما إذا الشمس عارضت فيضحى وأما بالعشى فيخصر ولا أحسب أناساً شأنهم الانفراد وسط اليد والقفار ، يحادثون ظواهر الطبيعة ويناجون أسرارها إلا أنهم يكونون أذكاء القلوب حداد الخواطر خفاف الحركة ثاقبي النظر . وإذا صح أن الفرس هم فرنسيو المشرق ، فالعرب ولا شك طليانه . والحق أقول : لقد كان أولئك العرب قوماً أقوياء النفوس ، كأن أخلاقهم سيول دفاقة لها من شدة حزمهم وقوة إرادتهم أحصن سور وأمنع حاجز ، وهذه وأبيكم أم الفضائل وذروة الشرف الباذخ . وقد كان أحدهم يضيفه ألد أعدائه فيكرم مثواه وينحدر له ، فإذا أزمع الرحيل خلع عليه وحمله وشيعه . ثم هو بعد كل ذلك لا يحجم أن يقاتله متى عادت به إليه الفرص . وكان العربي أغلب وقته صامتاً فإذا قال أفصح : ويزعم أن العرب من عنصر اليهود والحقيقة أنهم شاركوا اليهود في مرارة الجحد وخالفوهم في حلاوة الشمائل ورقة الظرف وفي ألمعية القريحة وأريحية القلب . وكان لهم قبل زمن محمد (عليه السلام) منافسات في الشعر يجرونها بسوق عكاظ في جنوب البلاد ، حيث كانت تقام أسواق التجارة فإذا انتهت الأسواق تناشد الشعراء القصائد ابتغاء جائزة تجعل للأجود قريضا والأحكم قافية ، فكان الأعراب الجفافة ذوو الطباع الوحشية الوعرة يرتاحون لتغيمات القصيد ، ويجدون لرناتها أية لذة فيتهافتون على المنشد كالفراش ويتهاالكون .

وأرى للعرب صفة واضحة فيهم وأحسبها ثمرة الفضائل جميعها والمحامد بحذاقها ، ألا وهي التدين . فإنهم مذ كانوا ما برحوا شديدي التمسك بدينهم كيفما كان ، وكانوا يعبدون الكواكب وكثيراً من الكائنات الطبيعية يرونها بمظاهر الخالق ودلائل على عظمته . فهذا وإن يك خطأ فليس من جميع

وجوهه ، فإن مصنوعات الله ما برحت بوجه ما رموزاً له ودلائل عليه . ألسنا كما قدمت نعتدها مفخرة للشاعر وفضيلة أن يدرك ما بالكائنات من أسرار الجمال والجلال ، أو « أسرار الجمال الشعري » ، كما اصطلاح الناس على تسميته ؟ وقد كان لهؤلاء العرب عدة أنبياء كلهم أستاذ قبيلته ومرشدها حسبما يقتضيه مبلغ علمه ورأيه . ثم أليس لدينا من البراهين الساطعة ما يثبت لنا أى حكمة بليغة ورأى مسدد وأى تقوى وإخلاص قد كان لهؤلاء البدو المفكرين ؟ وقد اتفق النقاد أن « سفر أيوب » أحد أجزاء التوراة كتابنا المقدس قد كتب فى بلاد العرب . ورأى فى هذا الكتاب فضلاً عن كل ما كتب عنه أنه من أشرف ما سطر يراع ودونت يد كاتب ، ولا يكاد المرء يصدق أنه من آثار العبرانيين لما فيه من عمومية الأفكار مع شرفها وسموها — عمومية تخالف التعصب والتحيز . وحسب الكتاب شرفاً أن يكون يضرب بعرق فى كل نفس ، ويمت بصلة إلى كل قلب ، ويكون كالبیت يفضى إليه منتهى السبل ، وكالأرج الضائع تتنازعه جميع الأنوف . والكتاب المذكور هو أول ما جاءنا عن مسألة المسائل — حياة الإنسان وفعل الله به فى هذه الدار . وقد أتانا بذلك فى أنصح بيان وأشد إخلاص وأحسن سهولة . وإنى لأتبع فيه العين البصيرة والقلب النافذ الفهم الجم الخشوع ، فهو الحق من حيث جئته والنظر الراسب فى قرارة كل شىء وصميم كل أمر — مادی وروحانى . ألا تذكرون ما جاء فيه من ذكر الفرس « الله الذى أودع الرعد حنجرته » « فهل ترى صهيله إلا قهقهة لرؤية الرماح ؟ » هذا والله أجود الاستعارة ، وما أحسب أن فى عالم التشبيه كله ما يماثل ذلك أو يقاربه . ذلك إلى ما فى الكتاب المذكور من آيات الحزن الشريف والتوكل الحسن الجميل . وما قرأت فيه قط إلا حسبت قلب الإنسانية يترنم شجى ووجداً ، ودمع الإنسانية يفيض حرقة وكمداً . فيا لها من رقة فى شدة ورأفة فى قوة وما أشبهها إلا بسحر الليلة الصائفة — رقة نسيم فى جلال مشهد عظيم ، وإلا بالكون وكل ما فيه من أنجم وبحار وليل ونهار . وما أحسب أن فى جميع التوراة شيئاً يدانيه فضلاً وقيمة .

والحجر الأسود كان من أعم معبودات العرب ، ولا يزال للآن بمكة فى البناء المسمى « الكعبة » . وقد ذكر المؤرخ الرومانى « سيسلاس » الكعبة فقال : إنها كانت فى مدته أشرف معابد العالم طراً وأقدمها ، وذلك قبل الميلاد بخمسين عاما . وقال المؤرخ « سلفستاردى ساسى » : إن الحجر الأسود ربما كان من رجوم السموات . فإذا صح ذلك فلا بد أن إنسانا قد بصر به ساقطاً من الجو ! والحجر موجود الآن إلى جانب البئر زمزم والكعبة مبنية فوقهما ، والبئر تعلمون منظر حيثما كان سار مفرح ، تنبجس من الحجر الأصم كالحياة من الموت ، فما بالكم بها إذا كانت تفيض .

بديعومة لا ظل فى صحصحانها ولا ماء لكن قورها الدهر عوم
ترى الآل فيها يلطم الآل مائجا وبارحها المسموم للوجه ألطم
أظل إذا كافحتها وكأننى بوهاجها دون اللثام ملثم
وقد اشتق لها اسمها زمزم من صوت تفجرها وهديرها . والعرب تزعم أنها انبجست تحت أقدام هاجر وإسماعيل فيضا من الله وصفاء ، وقد قدسها العرب والحجر الأسود وشادوا عليهما الكعبة منذ آلاف من السنين . وما أعجب هذه الكعبة وأعجب شأنها ، فهى فى هذه الآونة قائمة على قواعدها عليها الكسوة السوداء التى ترسل كل عام ، والتى يبلغ ارتفاعها سبعا وعشرين ذراعاً حولها دائرة مزدوجة من العمد ، وبها صفوف من المصاييح ، وبها نقوش وزخارف عجيبة ، وتوقد تلك المصاييح لتشرق تحت النجوم المشرقة فنعم أثر الماضى هى ! ونعم ميراث الغابر هذه كعبة المسلمين ! ومن أقاصى المشرق إلى أخريات المغرب .. ومن دلهى إلى مراکش تتوجه أبصار العديد المجهر من عباد الله المصلين شطرها ، وتهفو قلوبهم نحوها خمس مرات كل يوم . نعم لهى والله من أجل مراكز العمورة وأشرف أقطابها .

وإنما من شرف البئر زمزم وقدسية الحجر الأسود ومن حج القبائل إلى ذياك المكان ، كان منشأ مدينة مكة . ولقد كانت هذه المدينة وقتا ما ذات بال وشأن ، وإن كانت الآن قد فقدت كثيراً من أهميتها . وموقعها - من حيث هى مدينة -

سوء جداً ، إذ هي واقعة فى بطن من الأرض كثير الرمال وسط هضاب قفرة وتلال مجدبة على مسافة بعيدة من البحر ، ثم يمتار لها جميع ذخائرها من جهات أخرى حتى الخبز ، ولكن الذى اضطر إلى إيجاد هذه المدينة هو أن كثيراً من الحجيج كانوا يطلبون المأوى ، ثم إن أماكن الحج مازالت من قديم الزمان تستدعى التجارة ، فأول يوم يلتقى فيه الحجيج تلتقى فيه كذلك التجار والباعة . والناس متى وجدوا أنفسهم مجتمعين لغرض من الأغراض رأوا أنه لا بأس عليهم أن يقضوا كل ما يعرض لهم من المنافع ، وإن لم يكن فى الحساب . لذلك صارت مكة سوق بلاد العرب جميعها ، والمركز لكل ما مر من التجارة بين الهند وبين الشام ومصر بل وبين إيطاليا . وقد بلغ سكانها فى حين من الأحيان مائة ألف نسمة بين بائعين ومشترين وموردين لبضائع الشرق والغرب وباعة للمأكولات والغلال . وكانت حكومتها ضرباً من الجمهورية الأرسطوقراسية عليها صبغة دينية . ذلك أنهم كانوا ينتخبون لها بطريقة غير مهذبة عشرة رجال من قبيلة عظمى فيكون هؤلاء حكام مكة وحراس الكعبة ، وكانت لقريش فى عهد محمد ، وأسرة محمد من قبيلة قريش . وكان سائر الأمة مبدداً فى أنحاء تلك الرمال قبائل تفصلها بين الواحدة والأخرى البيد والقفار ، وعلى كل قبيلة أمير أو أمراء وربما كان الأمير راعياً أو ناقل أمتعة ، وكانت الحرب لا تتحد بين بعض هذه القبائل وبعضها ، ولم يك يؤلف بينهم حلف علنى إلا التقاءهم بالكعبة حيث كان يجمعهم على اختلاف وثنيتهم مذهب واحد ، وإلا رابطة الدم واللغة . وعلى هذه الطريقة عاش العرب دهوراً طويلاً خاملين الذكر غامضين الشأن - أناسا ذوى مناقب جليلة وصفات كبيرة ينتظرون من حيث لا يشعرون اليوم الذى يشاد فيه بذكرهم ويطير فى الآفاق صيتهم ، وما ذلك بعيد . وكأنما كانت وثنيتهم قد وصلت إلى طور الاضمحلال وأذنت بالسقوط ، وقد حدث بينهم دواعى اختلاط وفوران ، وكان قد بلغهم على مدى القرون غوامض أنباء عن أكبر حادثة وقعت على وجه البسيطة - أعنى حياة المسيح ووفاته ، وهى التى

أحدثت انقلاباً هائلاً فى جميع سكان العالم - فلم تعد هذه الأنباء تأثيرها من الفوران فى أحشاء الأمة العربية .

وكان بين هؤلاء العرب التى تلك حالهم أن ولد الرجل محمد (عليه السلام) عام ٥٨٠ ميلادية ، وكان من أسرة هاشم من قبيلة قريش وقد مات أبوه قبل مولده . ولما بلغ عمره ستة أعوام توفيت أمه - وكان لها شهرة بالجمال والفضل والعقل ، فقام عليه جد شيخ كان قد ناهز المائة من عمره وكان صالحاً باراً ، وكان ابنه عبد الله أحب أولاده إليه فأبصرت عينه الهرمة فى محمد صورة عبد الله فأحب اليتيم الصغير . عمل قلبه ، وكان يقول ينبغى أن يحسن القيام على ذلك الصبى الجميل الذى قد فاق سائر الأسرة والقبيلة حسناً وفضلاً ، ولما حضرت الشيخ الوفاة والغلام لم يتجاوز العامين عهد به إلى أبى طالب أكبر أعمامه رأس الأسرة بعده ، فرباه عمه - وكان رجلاً عاقلاً كما يشهد بذلك كل دليل .. على أحسن نظام عربى .

ولما شب محمد وترعرع صار يصحب عمه فى أسفار تجارية وما أشبه ، وفى الثامنة عشرة من عمره نراه فارساً مقاتلاً يتبع عمه فى الحروب ، غير أن أهم أسفاره ربما كان ذاك الذى حدث من قبل هذا التاريخ ببضع سنين - رحلة إلى مشارف الشام إذ وجد الفتى نفسه هنالك فى عالم جديد إزاء مسألة أجنبية عظيمة الأهمية جداً فى نظره - أعنى الديانة المسيحية . وإنى لست أدرى ماذا أقول عن ذلك الراهب سرجياس « بحيرا الراهب » الذى يزعم أن أباً طالب ومحمداً سكنا معه فى دار ، ولا ماذا عساه يتعلمه غلام فى هذه السن الصغيرة من أى راهب ما . فإن محمداً لم يكن يتجاوز إذ ذاك الرابعة عشرة ولم يكن يعرف إلا لغته ، ولا شك أن كثيراً من أحوال الشام ومشاهدها لم يك فى نظره إلا خليطاً مشوشاً من أشياء ينكرها ولا يفهمها . ولكن الغلام كان له عينان ثاقبتان ، ولا بد من أن يكون قد انطبع على لوح فؤاده أمور وشئون فأقامت فى ثنايا ضميره ولو غير مفهومة ، ريثما ينضجها له كر الغداة ومر العشى ، وتحلها له يد

الزمن يوما ما فتخرج منها آراء وعقائد ونظرات نافذات . فلعل هذه الرحلات الشامية كانت لمحمد أوائل خير كثير وفوائد جمة .

ثم لا ننسى شيئا آخر وهو أنه لم يتلق دروسا على أستاذ أبداً ، وكانت صناعة الخط حديثة العهد إذ ذاك في بلاد العرب . ويظهر لى أن الحقيقة هي أن محمدا لم يكن يعرف الخط والقراءة ، وكل ما تعلم هو عيشة الصحراء وأحوالها وكل ما وفق إلى معرفته هو ما أمكنه أن يشاهده بعينه ويتلقى بفؤاده من هذا الكون العديم النهاية ، وعجيب وأيم الله أمة محمد ، نعم إنه لم يعرف من العالم ولا من علومه إلا ما تيسر له أن يبصره بنفسه أو يصل إلى سمعه في ظلمات صحراء العرب ، ولم يضره ولم يزر به أنه لم يعرف علوم العالم لا قديمها ولا حديثها لأنه كان بنفسه غنيا عن كل ذلك ، ولم يقتبس محمد من نور أى إنسان آخر ، ولم يغترف من مناهل غيره ، ولم يك فى جميع أشباهه من الأنبياء والعظماء — أولئك الذين أشبههم بالمصاييح الهادية فى ظلمات الدهور — من كان بين محمد وبينه أدنى صلة ، وإنما نشأ وعاش وحده فى أحشاء الصحراء ، ونما هنالك وحده بين الطبيعة وبين أفكاره .

ولوحظ عليه منذ فتائه أنه كان شابا مفكراً ، وقد سماه رفقاؤه الأمين — رجل الصدق والوفاء — الصدق فى أفعاله وأقواله وأفكاره . وقد لاحظوا أنه ما من كلمة تخرج من فيه إلا وفيها حكمة بليغة . وإنى لأعرف عنه أنه كان كثير الصمت يسكت حيث لا موجب للكلام ، فإذا نطق فما شئت من لب وفضل وإخلاص وحكمة لا يتناول غرضاً فيتركه إلا وقد أنار شبهته ، وكشف ظلمته ، وأبان حجته ، واستثار دفينته . وهكذا يكون الكلام وإلا فلا . وقد رأيناه طول حياته رجلاً راسخ المبدأ صارم العزم بعيد الهم ، كريماً براً رعوفاً نقياً فاضلاً حراً — رجلاً شديد الجلد مخلصاً ، وهو مع ذلك سهل الجانب لين العريكة ، جم البشر والطلاقة ، حميد العشرة حلو الإيناس ، بل ربما مازح وداعب ، وكان على العموم تضىء وجهه ابتسامة مشرقة من فؤاد صادق ، لأن من الناس من تكون ابتسامته كاذبة ككذب أعماله وأحواله — هؤلاء لا يستطيعون أن يتسموا .

وكان محمد جميل الوجه وضئى الطلعة حسن القامة زاهى اللون ، له عينان سوداوان تتألآن ، وإنى لأحب فى جبينه ذلك العرق الذى ينتفخ ويسود فى حال غضبه ، كالعرق المقوس الوارد فى قصة القفازة الحمراء « لوالترسكوت » وكان هذا العرق خصيصة فى بنى هاشم ولكنه كان أئين فى محمد وأظهر . نعم لقد كان هذا الرجل حاد الطبع نارى المزاج ولكنه كان عادلا صادق النية . كان ذكى اللب شهم الفؤاد .

ألوذعيا كأنما بين جنبيـه — مصاييح كل ليل بهيم
ممتلئا نارا ونورا . رجلا عظيما بفطرته لم تتقفه مدرسة ولا هذبه معلم ، وهو غنى عن ذلك كالشوكة استغنت عن التنقيح فأدى عمله فى الحياة وحده فى أعماق الصحراء .

وما ألد وما أوضح قصته مع خديجة وكيف أنه كان أولا يسافر فى تجارات لها إلى أسواق الشام ، وكيف كان ينهج فى ذلك أقوم مناهج الحزم والأمانة ، وكيف جعل شكرها له يزداد وحبها ينمو . ولما زوجت منه كانت فى الأربعين وكان هو لم يتجاوز الخمسة والعشرين ، وكان لا يزال عليها مسحة من ملاحه . ولقد عاش مع زوجه هذه على أتم وفاق وألفة وصفاء وغبطة ، يخلص لها الحب وحدها ومما ييطل دعوى القائلين إن محمدا لم يكن صادقا فى رسالته بل كان ملفقا زورا أنه قضى عنفوان شبابه وحرارة صباه فى تلك العيشة الهادئة المطمئنة ، لم يحاول أثناءها إحداث ضجة ولا دوى مما يكون وراءه ذكر وشهرة وجاه وسلطة ، ولما يك إلا بعد الأربعين أن تحدث برسالة سماوية ، ومن هذا التاريخ تبدئ حوادثه وشواذه حقيقية كانت أو مختلفة ، وفى هذا توفيت خديجة . نعم لقد كان حتى ذاك الوقت يقنع بالعيش الهادئ الساكن ، وكان حسبه من الذكر والشهرة حسن آراء الجيران فيه وجميل ظنونهم به . ولم يك إلا بعد أن ذهب الشباب وأقبل المشيب أن فار بصدره ذلك البركان الذى كان هاجعا وثار يريد أمرا جليلا وشأنا عظيما .

ويزعم المتعصبون من النصارى والملحدون أن محمدا لم يكن يريد بقيامه إلا الشهرة الشخصية ومفاخر الجاه والسلطان . كلا وأيم الله لقد كان فى فؤاد ذلك الرجل الكبير أبين القفار والفلوات المتوقد المقلتين العظيم النفس المملوء رحمة وخيراً ، وحناناً وبراً ، وحكمة وحجى ، وإربة ونهى — أفكار غير الطمع الدنيوى ، ونوايا خلاف طلب السلطة والجاه . وكيف وتلك نفس صامته كبيرة ، ورجل من الذين لا يمكنهم إلا أن يكونوا مخلصين جادين . فينما ترى آخرين يرضون بالاصطلاحات الكاذبة ويسمرون طبق اعتبارات باطلة ، إذ ترى محمداً لم يرض أن يلتفت بمآلوف الأكاذيب ، ويتوشح بمتبع الأباطيل . لقد كان منفرداً بنفسه العظيمة وبحقائق الأمور والكائنات . لقد كان سر الوجود يسطع لعينه كما قلت بأهواله ومخاوفه وروائقه ومباهره ، لم يك هنالك من الأباطيل ما يحجب ذلك عنه ، فكأن لسان حال ذلك السر الهائل يناجيه « هأنذا » . فمثل هذا الإخلاص لا يخلو من معنى إلهى مقدس ، وما كلمة مثل هذا الرجل إلا صوت خارج من صميم قلب الطبيعية ، فإذا تكلم فكل الآذان برغمها مصغية ، وكل القلوب واعية ، وكل كلام ما عدا ذلك هباء وكل قول جفاء وما زال منذ الأعوام الطوال — منذ أيام رحلاته وأسفاره يجول بخاطره آلاف من الأفكار: ماذا أنا ؟ وما ذلك الشئ العديم النهاية الذى أعيش فيه والذى يسميه الناس كونا ؟ وما هى الحياة وما هو الموت ؟ وماذا أعتقد ؟ وماذا أفعل ؟ فهل أجابته عن ذلك صخور جبل حراء أو شماريخ طود الطور أو تلك القفار والفلوات ؟ كلا ولا قبة الفلك الدوار واختلاف الليل والنهار ، ولا النجوم الزاهرة والأنواء الماطرة ، لم يجبه لا هذا ولا ذاك وما للجواب عن ذلك إلا روح الرجل وإلا ما أودع الله فيه من سره .

وهذا ما ينبغى لكل إنسان أن يسأل عنه نفسه . فقد أحس ذلك الرجل القفرى أن هذه كبرى المسائل وأهم الأمور ، وكل شئ عديم الأهمية فى جانبها . وكان إذا بحث عن الجواب فى فرق اليونان الجدلوية أو فى روايات اليهود المبهمة أو نظام وثنية العرب الفاسد لم يجده . وقد قلت إن أهم خصائص

البطل وأول صفاته وآخرها هي أن ينظر من خلال الظواهر إلى البواطن ، فأما العادات والاستعمالات والاعتبارات والاصطلاحات فينبذها جيدة كانت أو رديئة . وكان يقول في نفسه : « هذه الأوثان التي يعبدها القوم لا بد من أن يكون وراءها ودونها شيء . ما هي إلا رمز له وإشارة إليه . وإلا فهي باطل وزور وقطع من الخشب لا تضر ولا تنفع ، وما لهذا الرجل والأصنام ، وأنى تؤثر في مثله أوثان ولو رصعت بالنجوم لا بالذهب ، ولو عبدها الجحاح من عدنان والأقيال من حمير ؟ أى خير له في هذه ولو عبدها الناس كافة ؟ إنه في واد وهم في واديهم يعمهون في ضلالهم ، وهو ماثل بين يدي الطبيعة قد سطعت لعينيه الحقيقة الهائلة . فإما أن يجيبها وإلا فقد حبط سعيه وكان من الخاسرين . فلتجيبها يا محمد أجب لا بد من أن توجد الجواب . أيزعم الكاذبون أنه الطمع وحب الدنيا هو الذى أقام محمداً وأثاره ؟ حمق وأيم الله وسخافة وهوس . أى فائدة لمثل هذا الرجل فى جميع بلاد العرب وفى تاج قيصر وصولجان كسرى وجميع ما بالأرض من تيجان وصوالمجة ؟ وأين تصير الممالك والتيجان والدول جميعها بعد حين من الدهر ؟ أفى مشيخة مكة وقضييب مفضض الطرف ؟ أو فى ملك كسرى وتاج ذهبى الذؤابة منجاة للمرء ومظفرة ؟ كلا — إذن فلنضرب صفحا عن مذهب الجائرين القائل إن محمداً كاذب ، ونعد موافقتهم عاراً وسبة وسخافة وحمقا ، فلنربأ بنفوسنا عنه ولنترفع .

وكان من شأن محمد أن يعتزل الناس شهر رمضان فينقطع إلى السكون والوحدة دأب العرب وعاداتهم ، ونعمت العادة ما أجل وأنفع ولا سيما لرجل كمحمد !! لقد كان يخلو إلى نفسه فيناجى ضميره صامتا بين الجبال الصامتة ، متفتحا صدره لأصوات الكون الغامضة الخفية . أجل حبذا تلك عادة ونعمت - فلما كان فى الأربعين من عمره وقد خلا إلى نفسه فى غار بجبل « حراء » قرب مكة شهر رمضان ليفكر فى تلك المسائل الكبرى ، إذ هو قد خرج إلى خديجة ذات يوم وكان قد استصبحها ذلك العام وأنزلها قريبا مكان خلوته ، فقال لها : إنه بفضل الله قد استجلى غامض السر واستثار كامن الأمر ، وإنه قد أنارت

(الأبطال)

الشبهة وانجلي الشك وبرح الخفاء . وإن جميع هذه الأصنام محال وليست إلا أحشابا حقيرة ، وأن لا إله إلا الله وحده لا شريك له فهو الحق وكل ما خلاه باطل ، خلقنا وبرزقنا ، وما نحن وسائر الخلق والكائنات إلا ظل له ، وستار يحجب النور الأبدي والروني السرمدي . الله أكبر والله الحمد : ثم الإسلام وهو أن نسلم الأمر لله ونذعن له ونسكن إليه ونتوكل عليه ، وأن القوة كل القوة هي في الاستقامة لحكمته والرضا بقسمته أيا كانت في هذه الدنيا وفي الآخرة ، ومهما يصيبنا به الله ولو كان الموت الزؤام فلنتلقه بوجه مبسوط ونفس مغتبطة راضية ونعلم أنه الخير وأن لا خير إلا هو . ولقد قال شاعر الألمان وأعظم عظمائهم « جابتي » : إذا كان ذلك هو الإسلام فكلنا إذن مسلمون . نعم كل من كان فاضلا شريف الخلق فهو مسلم ، وما قيل إن منتهى العقل والحكمة ليس في مجرد الإذعان للضرورة - فإن الضرورة تخضع المرء برغم أنفه ولا فضل فيما يأتيه الإنسان مكرها - بل في اليقين بأن الضرورة الأليمة المرة هي خير ما يقع للإنسان وأفضل ما يناله ، وأن الله في ذلك حكمة تلطف عن الأفهام وتدق عن الأذهان ، وإنه من الأفن والسخف أن يجعل الإنسان من دماغه الضئيل ميزانا لذلك العالم وأحواله . بل عليه أن يعتقد أن للكون قانونا عادلا وإن غاب عن إدراكه . وإن الخير هو أساس الكون والصلاح روح الوجود والنفع لباب الحياة . نعم عليه أن يعرف ذلك ويعتقده ويتبعه في سكون وتقوى .

أقول وما زالت هذه الخطة المثلى والمذهب الأشرف الأطهر ، وما زال الرجل مصيبا وظافرا وحرأ وكريما وسائرا على المنهج الأقوم وسالكا سبيل السعادة ما دام معتصما بمجل الله متمسكا بقانون الطبيعة الأكبر الممكن ، غير مبال بالقوانين السطحية والظواهر الوقتية وحسابات الربح والخسارة . نعم هو ظافر إذا اتبع ذلك القانون الكبير الجوهري - قطب رحي الكون ومحور الدهر - وليس بظافر إذا فعل غير ذلك . وحقا إن أول وسيلة تؤدي إلى اتباع هذا القانون هي الاعتقاد بوجوده ثم بأنه صالح بل لا شيء غيره صالح ! وهذا يا إخواني هو روح

الإسلام ! وهذا هو أيضا روح النصرانية ، والإسلام لو تفقهون ضرب من النصرانية ، والإسلام والنصرانية يأمراننا أن نتوكل على الله قبل كل شيء ، وأن نطعم النفس عن الشهوات ونهوى القلب عن الهوى ، وألا نجمح فى عنان المنى وأن نصبر على البث والأسى ، وأن نعرف أننا لا نعرف شيئا ، وأن نرضى من الله كل ما قسم ونعدها يداً بيضاء ونعمة غراء ونقول الحمد لله على كل حال وتبارك الله ذو الفضل والجلال ، ونقول « إنا بقسمة الله راضون ولو كان ما قسم لنا المنون » .

فمن فضائل الإسلام تضحية النفس فى سبيل الله ، وهذا أشرف ما نزل من السماء على بنى الأرض . نعم هو نور الله قد سطع فى روح ذلك الرجل فأنار ظلماتها ، هو ضياء باهر كشف تلك الظلمات التى كانت تؤذن بالخسران والهلاك وقد سماه محمد « عليه السلام » وحيا و« جبريل » وأينا يستطيع أن يحدث له أسماء ، ألم يجئ فى الإنجيل أن وحى الله يهبنا الفهم والإدراك ؟ ولا شك أن العلم والنفاذ إلى صميم الأمور وجواهر الأشياء لسر من أغمض الأسرار لا يكاد المنطقيون أن يلمسوا منه إلا قشوره . وقد قال نوفاليس : « أليس الإيمان هو المعجزة الحقة الدالة على الله ؟ » فشعور محمد إذا اشتعلت روحه بلهب هذه الحقيقة الساطعة بأن الحقيقة المذكورة هى أهم ما يجب على الناس علمه لم يك إلا أمراً بديهيا ، وكون الله قد أنعم عليه بكشفها له ونجاه من الهلاك والظلمة ، وكونه قد أصبح مضطرا إلى إظهارها للعالم أجمع - هذا كله هو معنى كلمة « محمد رسول الله » وهذا هو الصدق الجلى والحق المين .

وينخيل إلينا أن الصالحة خديجة أصغت إليه فى دهشة وشك ثم آمنت وقالت « إى وربى إنه الحق » . ونتوهم أن محمداً شكر لها ذلك الصنيع ورأى فى إيمانها بكلمته المخلصة المقنوفة من بركان صدره جميلا يفوق كل ما أسدت إليه من قبل ، فإنه ليس أروح لنفس المرء ولا أثلج لحشاه من أن يجد له شريكا فى اعتقاده . ولقد قال نوفاليس : ما رأيت شيئا قط أكد ليقيني وأوثق لاعتقادي من انضمام إنسان آخر إلى فى رأى . نعم إنه لصنيع أغر ونعمه وفيرة . وكذلك ما

انفك محمد يذكر خديجة حتى لقي ربه حتى إن عائشة - زوجه الصغيرة المحبوبة تلك التي اشتهرت بين المسلمين بجميع المناقب والفضائل طول حياتها - هذه السيدة البارعة الجمال والفطنة سألته ذات يوم أليست الآن أفضل من خديجة ؟ لقد كانت أرملة مسنة قد ذهب جمالها وأراك تحبني أكثر مما كنت تحبها . « فأجاب محمد » كلا والله لست أفضل منها ، وكيف وهي التي آمنت بي والكل كافر ومنكر ، ولم يك لي في هذا العالم إلا صديق واحد - وهذا الصديق هي . وآمن به مولاه زيد (بن حارثة) كذلك وعلى ، وهؤلاء الثلاثة أول من آمن به .

وجعل يذكر رسالته لهذا ولذاك فما كان يصادف إلا جحوداً وسخرية ، حتى إنه لم يؤمن به في خلال ثلاثة أعوام إلا ثلاثة عشر رجلاً وذلك منتهى البطء وبئس التشجيع ولكنه المنتظر في مثل هذه الحال . وبعد هذه السنين الثلاث أدب مآدبة لأربعين من قرابته ثم قام بينهم خطيباً ، فذكر دعوته وأنه يريد أن يذيعها في سائر أنحاء الكون وأنها المسألة الكبرى بل المسألة الوحيدة فأبهم بمد إليه يده ويأخذ بناصره ؟ وبينما القوم صامتون حيرة ودهشة ، وثب على وكان غلاماً في السادسة عشرة وكان قد غاظه سكوت الجماعة فصاح في أحد لهجة إنه ذاك النصير والظهير ولا يحتمل أن القوم كانوا منابذين محمداً ومعاديه وكلهم قرابته وفيهم أبو طالب عم محمد وأبو علي ، ولكن رؤية رجل كهل أمي يعينه غلام في السادسة عشرة يقومان في وجه العالم بأجمعه كانت مما يدعو إلى العجب المضحك ، فانفض القوم ضاحكين ، ولكن الأمر لم يك بالمضحك بل كان نهاية في الجذ والخطر ! أما علي فلا يسعنا إلا أن نحب ونعشقه فإنه فتى شريف القدر كبير النفس يفيض وجدانه رحمة وبراً ويتلظى فؤاده نبذة وحماسة ، وكان أشجع من ليث ولكنها شجاعة ممزوجة برقة ولطف ورأفة وحنان جدير بها فرسان الصليب في القرون الوسطى . وقد قتل بالكوفة غيلة ، وإنما جنى ذلك على نفسه بشدة عدله حتى حسب كل إنسان عادلاً مثله وقال قبل موته حينما

أوسر فى قاتله « إن أعش فالأمر إلى ، وإن أمت فالأمر لكم ، فإن آثرتم أن تقتصوا فضربة بضربة ، وأن تعفوا أقرب إلى التقوى » .

وكان فى عمل محمد هذا إساءة ولا شك إلى قريش حراس الكعبة وخدمة الأصنام ، وانضم إليه منهم رجلان أو ثلاثة أولو بأس ونفوذ . وسرى أمر محمد ببطء ولكنه سريان على كل حال ، وكان عمله بالطبع سيئ الوقع لدى كل إنسان حيث جعلوا يقولون من هذا الذى يزعم أنه أعقل منا جميعا ، والذى يعنفنا ويرمينا بالحمق وعبادة الخشب ؟ وأشار عليه أبو طالب أن يكتم أمره ويؤمن به وحده ، وأن يكون له من نفسه ما يشغله عن العالم وألا يسخط القوم ويشير غضبهم عليه فيخطر بذلك حياته . فأجابه محمد : « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته » . كلا فإن فى هذه الحقيقة التى جاء بها لشيئا من عنصر الطبيعة ذاتها لا تفضله الشمس ولا القمر وأى مصنوعات الطبيعة ، ولا بد لتلك الحقيقة من أن تظهر برغم الشمس والقمر ما دام قد أراد أن تظهر ، وبرغم قريش جميعها وبكره سائر الخلائق والكائنات . نعم لا بد من أن تظهر ولا يسعها إلا أن تظهر . بذلك أجاب محمد ، ويقال إنه « اغرورقت عيناه » : لقد أحس من عمه البر والشفقة وأدرك وعورة الحال ، وعلم أنه أمر ليس بالهين اللين ولكنه أمر صعب المراس مر المذاق .

واستمر يؤدى الرسالة إلى كل من أصغى إليه وينشر مذهبه بين الحجيج مدة إقامتهم بمكة ، ويستعمل الأتباع هنا وهناك وهو يلقي أثناء كل ذلك منابذة ومناوأة ومناصفة بالعداوة ومجاهرة وشرأ بادية وكامنا ، وكانت قرابته تحميه وتدافع عنه . ولكنه عزم هو وأتباعه على الهجرة إلى الحبشة فوقع خبر ذلك العزم من قريش أسوأ موقع وضاعف حنقهم عليه ، فنصبوا له الأشرار وبشوا الجبائل وأقسموا بالآلهة ليقتلن محمداً بأيديهم . وكانت خديجة قد توفيت وتوفى أبو طالب ، وتعلمون - أصلحكم الله - أن محمداً ليس بحاجة إلى أن يرثى له وحاله النكراء إذ ذاك ومقامه الضنك وموقفه الحرج ، ولكن اعرفوا معنى أن حاله إذ ذاك

من الشدة والبلاء كما لم ير إنسان قط ، فلقد كان يختبئ فى الكهوف ويفر متنكرا إلى هذا المكان وإلى ذاك لا مأوى ولا مجير ولا ناصر ، تهدده الختوف وتتوعده الهلكات وتفغر له أفواهها المنايا ، وكان الأمر يتوقف أحيانا على أدنى صغيرة — كإجفال فرس من أفراس أتباع محمد — فلو حدث ذلك لضاع كل شيء ولكنه أمر محمد — ذلك الأمر العظيم — ما كان لينتهى على مثل تلك الحال .

فلما كان العام الثالث عشر من رسالته وقد وجد أعداءه متألمين عليه جميعا وكانوا أربعين رجلا كل من قبيلة ائتمروا به ليقتلوه ، وألفى المقام بمكة مستحيلا هاجر إلى يثرب حيث التف به الأنصار ، والبلدة تسمى الآن المدينة أى مدينة النبى وهى من مكة على ٢٠٠ ميل تقوم وسط صخور وقفار ، ومن هذه الهجرة يتبدئ التاريخ فى المشرق . والسنة الأولى من الهجرة توافق ٦٢٢ ميلادية وهى السنة الخامسة والخمسون من عمر محمد ، فترون أنه كان قد أصبح إذ ذاك شيخا كبيرا ، وكان أصحابه يموتون واحداً بعد واحد ويخلون أمامه مسلكا وعرا وسيلا قفرا وخطة نكراء موحشة ، فإذا هو لم يجد من ذات نفسه مشجعا ومحركا ويفجر بعزمه ينبوع أمل بين جنبيه فتهيئات أن يجد بارقات الأمل فيما يصدق به من عوايس الخطوب ، ويحيط به من كالحات الحن والملمات . وهكذا شأن كل إنسان فى مثل هذه الأحوال ، وكانت نية محمد حتى الآن أن ينشر دينه بالحكمة والموعظة الحسنة فقط . فلما وجد أن القوم الظالمين لم يكتفوا برفض رسالته السماوية وعدم الإصغاء إلى صوت ضميره وصيحة لبه ، حتى أرادوا أن يسكتوه فلا ينطق بالرسالة — عزم ابن الصحراء عل أن يدافع عن نفسه دفاع رجل ثم دفاع عربى ولسان حاله يقول : وأما وقد أبت قريش إلا الحرب فلينظروا أى فتیان هيجاء نحن ! وحقا رأى . فإن أولئك القوم أغلقوا آذانهم عن كلمة الحق وشرعية الصدق ، وأبوا إلا تماديا فى ضلالهم يستبيحون الحريم ويهتكون الحرمات ويسلبون وينهبون ويقتلون النفس التى حرم الله قتلها ويأتون كل إثم ومنكر . وقد جاءهم محمد من طريق الرفق والأناة فأبوا إلا اعتوا وطغيانا . فليجعل الأمر

إذن إلى الحسام المهند والوشيج المقوم وإلى كل مسرودة حصداء وسابحة جرداء !
وكذلك قضى محمد بقية عمره وهى عشر سنين أخرى فى حرب وجهاد لم
يسترح غمضة عين ولا مدر فواق ، وكانت النتيجة ما تعلمون !

ولقد قيل كثيرا فى شأن نشر محمد دينه بالسيف ، فإذا جعل الناس ذلك
دليلا على كذبه فشد ما أخطأوا وجاروا . فهم يقولون ما كان الدين لينتشر لولا
السيف ، ولكن ما هو الذى أوجد السيف ؟ هو قوة ذلك الدين وأنه حق والرأى
الجديد أول ما ينشأ . يكون فى رأس رجل واحد فالذى يعتقد أنه هو فرد - فرد
ضد العالم أجمع . فإذا تناول هذا الفرد سيفا وقام فى وجه الدنيا فقلما والله
يضيع ، وأرى على العموم أن الحق ينشر نفسه بأية طريقة حسبما تقتضيه الحال .
أولم تروا أن النصرانية كانت لا تأنف أن تستخدم السيف أحيانا ؟ وحسبكم ما
فعل شارلمان بقبائل السكسون . وأنا لا أحفل أكان انتشر الحق بالسيف أم
باللسان أم بأية آلة أخرى . فلندع الحقائق تنشر سلطانها بالخطابة أو بالصحافة أو
بالنار ، لندعها تكافح وتجاهد بأيديها وأرجلها وأظافرها فإنها لن تهزم إلا ما
كان يستحق أن يهزم ، وليس فى طاقتها قط أن تفنى ما هو خير منها بل ما هو
أحط وأدنى ، فإنها حرب لا حكم فيها إلا للطبيعة ذاتها ، ونعم الحكم ما أعدل
وما أقسط ، وما كان أعمق جذرا فى الحق وأذهب أعراقا فى الطبيعة فذلك هو
الذى ترونه بعد الهرج والمرج والضوضاء والجلبة ناميا زاكيا وحده .

أقول الطبيعة أعدل حكم ، بلى ما أعدل وما أعقل وما أرحم وما أحلم .
إنك تأخذ حبوب القمح لتجعلها فى بطن الأرض ، وربما كانت هذه الحبوب
مخلوطة بقشور تبين وقمامة وتراب وسائر أصناف الأقداء ولكن لا بأس عليك من
ذلك ، وألقى الحبوب بجميع ما يخالطها من القذى فى جوف الأرض العادلة البارة
فإنها لا تعطيك إلا قمحا خالصا نقيا . فأما القذى فإنها تبلعه فى سكون وتدفنه
ولا تذكر عنه كلمة ، وما هى إلا برهة حتى ترى القمح زاكيا يهتز كأنه سبائك
الذهب الإبريز، والأرض الكريمة قد طوت كشحا على الأقداء وأغضت، بل إنها
حولتها كذلك إلى أشياء نافعة ولم تشك منها شجوا ولا نصبا . وهكذا

الطبيعة فى جميع شئونها فهى حق لا باطل، وهى عظيمة وعادلة ورحيمة حنون، وهى لا تشترط فى الشئ إلا أن يكون صادق اللباب حر الصميم . فإذا كان كذلك حمته وحرصته أو كان غير ذلك لم تحمه ولم تحرسه . فترى لكل شئ تحميه الطبيعة روحا من الحق . أليس شأن حبوب القمح هذه والطبيعة هو وأسفاه شأن كل حقيقة كبرى جاءت إلى هذه الدنيا أو تجيء فيما بعد ؟ أعنى أن الحقيقة مزيج من حق وباطل ، نور فى ظلام ، وتحيثنا الحقائق فى أثواب من القضايا المنطقية ونظريات علمية من الكائنات لا يمكن أن تكون تامة صحيحة صائبة ، ثم لا بد من أن يجيء يوم يظهر فيه نقصها وخطؤها وجورها فتموت وتذهب . نعم يموت ويذهب جسم كل حقيقة ولكن الروح يبقى أبدا ويتخذ ثوبا أطهر وبدنا أشرف ، وما يزال يتنقل من الأثواب والأبدان من حسن إلى أحسن وجيد إلى أجود سنة الطبيعة التى لا تتبدل . نعم إن جوهر الحقيقة الكريم حتى لا يموت وإنما النقطة الهامة والأمر الوحيد الذى يعرض فى محكمة الطبيعة ومجلس قضائها هو هل هذا الروح حق وصوت من أعماق الطبيعة ؟ وليس بهام عند الطبيعة ما نسميه نقاء الشئ أو عدم نقائه وليس هو بالسؤال النهائى . ليس الأمر الهام عند الطبيعة حينما تقدم إليها أنت لتصدر حكمها فيك هو : أفيك أقدار وأكدار أم لا ؟ وإنما هو أفيك جوهر حق وروح صدق أم لا ؟ أو بعبارة تشبيهية ليس السؤال الهام عند الطبيعة هو أفيك قشور أم لا ، بل أفيك قمح ؟ يقول بعض الناس إنه نقى ؟ إنى أقول له « نعم نقى - نقى جدا ولكنك قشر - ولكنك باطل وأكذوبة وزور وثوب بلا روح ، ومجرد اصطلاح وعادة ، وما امتد بينك وبين سر الكون وقلب الوجود سبب ولا صلة ، والواقع أنك لا نقى ولا غير نقى وإنما أنت لا شئ والطبيعة لا تعرفك وإنما منك براء .

نحن سمينا الإسلام ضربا من النصرانية ، ولو نظرنا إلى ما كان من سرعته إلى القلوب وشدة امتزاجه بالنفوس واختلاطه بالدماء فى العروق لأيقنا أنه كان خيرا من تلك النصرانية التى كانت إذ ذاك فى الشام واليونان وسائر تلك الأقطار والبلدان - تلك النصرانية التى كانت تصدع الرأس بضوضائها الكاذبة وتترك

القلب ببطلائها قفراً ميتاً : على أنه قد كان فيها عنصر من الحق ولكنه ضئيل جداً ، وبفضله فقط آمن الناس بها . وحقا إنها كانت ضرباً كاذباً من النصرانية كالدعى بين الأصلاء ، ولكنها ضرب حى على كل حال ذو حياة قليلة وليست مجرد قضايا قفرة ميتة .

ونظر محمد من وراء أصنام العرب الكاذبة ، ومن وراء مذاهب اليونان واليهود ورواياتهم وبراهينهم ومزاعمهم وقضاياهم — نظر ابن القفار والصحارى بقلبه البصير الصادق وعينه المتوقدة الجليلة إلى لباب الأمر وصميمه فقال فى نفسه : الوثنية باطل ، وهذه الأصنام التى تصقلونها بالزيت والدهن فيقع عليها الذباب أحشاب لا تضر ولا تنفع ، وهى منكر وفظيع وكفر لو تعلمون . إنما الحق أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، خلقنا ويده حياتكم وموتكم ، وهو أرأف بكم منكم ، وما أصابكم من شىء فهو خير لكم لو كنتم تفقهون .

وإن ديناً آمن به أولئك العرب الوثنيون وأمسكوه بقلوبهم النارية لجدير أن يكون حقاً وجدير أن يصدق به . وإن ما أودع هذا الدين من القواعد هو الشىء الوحيد الذى للإنسان أن يؤمن به ، وهذا الشىء هو روح جميع الأديان — روح تلبس أثواباً مختلفة وأثوابها متعددة وهى فى الحقيقة شىء واحد ، وباتباع هذه الروح يصبح الإنسان إماماً كبيراً لهذا المعبد الأكبر « الكون » جارياً على قواعد الخالق تابعا لقوانينه لا محاولاً عبثاً أن يقاومها ويدافعها . ولم أعرف قط تعريفاً للواجب أحسن من هذا ، والصواب كل الصواب فى السير على منهاج الدنيا فإن الفلاح فى ذلك (إذ كان منهاج الدنيا هو طريق الفلاح) : وجاء محمد وشيع النصارى تقيم أسواق الجدال وتتخابط بالحجج الجائرة ، وماذا أفاد ذلك وماذا أثمر ؟ أما أنه الأهم ليس صحة ترتيب القضايا المنطقية وحسن إنتاجها ، وإنما هو أن خلق الله وأبناء آدم يعتقدون تلك الحقائق الكبرى . لقد جاء الإسلام على تلك الملل الكاذبة والنحل الباطلة فابتلعها ، وحق له أن يتلعها لأنه حقيقة خارجة من قلب الطبيعة وما كاد يظهر الإسلام حتى احترقت فيه وثنيات العرب

وجذليات النصرانية وكل ما لم يكن بحق فإنها حطب ميت أكلته نار الإسلام فذهب والنار لم تذهب .

أما القرآن فإن فرط إعجاب المسلمين به وقولهم بإعجازه هو أكبر دليل على اختلاف الأذواق في الأمم المختلفة . هذا وإن الترجمة تذهب بأكثر جمال الصنعة وحسن الصياغة . ولذلك لا عجب إذا قلت إن الأوربي يجد في قراءة القرآن أكبر عناء فهو يقرؤه كما يقرأ الجرائد لا يزال يقطع في صفحاتها قفارا من القول الممل المتعب ، ويحمل على ذهنه هضابا وجبالا من الكلم لكي يعثر في خلال ذلك على كلمة مفيدة ، أما العرب فيرونه على عكس ذلك لما بين آياته وبين أذواقهم من الملاءمة ، ولأنه لا ترجمة ذهبت بحسنه ورونقه فلذلك رآه العرب من المعجزات وأعطوه من التبجيل ما لم يعطه أتقى النصارى لإنجيلهم ، وما برح في كل زمان ومكان قاعدة التشريع والعمل ، والقانون المتبع في شئون الحياة ومسائلها ، والوحي المنزل من السماء هدى للناس وسراجا منيرا يضيء لهم سبل العيش ويهديهم صراطا مستقيما ، ومصدر أحكام القضاة والدرس الواجب على كل مسلم حفظه والاستنارة به في غياهب الحياة . وفي بلاد المسلمين مساجد يتلى فيها القرآن جميعه كل يوم مرة يتقاسمه ثلاثون قارئاً على التوالي ، وكذلك ما برح هذا الكتاب يرن صوته في آذان الألوف من خلق الله وفي قلوبهم اثني عشر قرناً في كل آن ولحظة ويقال إن من الفقهاء من قرأه سبعين ألف مرة .

إذا خرجت الكلمة من اللسان لم تتجاوز الآذان ، وإذا خرجت من القلب نفذت إلى القلب . والقرآن خارج من فؤاد محمد فهو جدير أن يصل إلى أفئدة سامعيه وقارئيه . وقد زعم « براديه » وأمثاله أنه طائفة من الأخاديع والتزاويق لفقها محمد لتكون أعذاراً له عما كان يرتكب ويقرّف ، وذرائع لبلوغ مطامعه وغاياته ، ولكنه قد آن لنا أن نرفض جميع هذه الأقوال فإنني لأمقت كل من يرمى محمداً بمثل هذه الأكاذيب ، وما كان ذو نظر صادق ليرى قط في القرآن مثل ذلك الرأي الباطل ، والقرآن لو تبصرون ما هو إلا جمرات ذاكيات قذفت بها نفس رجل كبير النفس بعد أن أوقدتها الأفكار الطوال في الخلوات الصامتات ،

وكانت الخواطر تزأركم عليه بأسرع من لمح البصر وتتزاحم فى صدره حتى لا تكاد تجد مخرجاً . وقل ما نطق به فى جانب ما كان يجيش بنفسه العظيمة القوية ، هذا وقد كان تدفع الوقائع وتدفق الخطوب يعجله عن روية القول وتنميق الكلم . ويا لها من خطوب كانت تطيح به وتطير ، فلقد كان فى هذه السنين الثلاث والعشرين قطبا لرحى حوادث متلاطمات متصادمات ، وعالم كله هرج ومرج وفتن ومحن - حروب مع قريش والكفار ، ومخاصمات بين أصحابه ، وهياج نفسه وثورانها - كل ذلك جعله فى نصب دائم وعناء مستمر فلم تذق نفسه الراحة بعد قيامه بالرسالة قط . وقد أثنى على روح محمد الحادة النارية وهى تتململ طول الليل الساهر ، يطفو بها الوجد ويرسب ، وتدور بها دوامات الفكر حتى إذا أسفرت لها بارقة رأى حسبه نوراً هبط عليها من السماء ، وكل عزم مقدس يهم به يخاله جبريل ووحيه ، أيزعم الأفاكون الجهلة أنه مشعوذ ومحتال ؟ كلا ثم كلا ! ما كان قط ذلك القلب المحتدم الجائش كأنه تنور فكر يفور ويتأجج ليكون قلب محتال ومشعوذ . لقد كانت حياته فى نظره حقاً وهذا الكون حقيقة رائعة كبيرة .

والإخلاص المحض الصراح يظهر لى أنه فضيلة القرآن التى حببته إلى العربى المتوحش ، وهى أولى فضائل الكتاب أيا كان وآخرتها ، وهى منشأ فضائل غيرها بل لا شىء غيرها يمكنه أن يبعث للكتاب فضائل أخرى . ومن العجب أن نرى فى القرآن عرقاً من الشعر يجرى فيه من بدايته إلى نهايته ، ثم يتخلله نظرات نافذات - نظرات نبى وحكيم . أجل لقد كان لمحمد فى شئون الحياة عين بصيرة ، ثم كان له قدرة عظيمة على أن يوقع أذهانها كل ما أبصره ذهنه ، أنا لا أحفل كثيراً بما جاء فى القرآن من الصلوات والتحميد والتمجيد لأنى أرى لها فى الإنجيل شبيهاً ، ولكنى شديد الإعجاب بالنظر الذى يتفد إلى أسرار الأمور فهذا أعظم ما يلذنى ويعجبنى ، وهو ما أجده فى القرآن وذلك كما قلت فضل الله يؤتیه من يشاء .

وكان محمد إذا سئل أن يأتي بمعجزة قال : حسبكم بالكون معجزة . انظروا إلى هذه الأرض أليست من عجائب صنع الله وآية على وجوده وعظمته ؟ هذه الأرض التي خلق الله لكم ونهج لكم فيها سبلا تسعون في مناكبها وتأكلون من رزقه ، وهذا السحاب المسير في الآفاق لا يدرى من أين جاء ، وهو مستخر في السماء كل سحابة كمارد أسود ، ثم يسح بمائه ويهضب ليحيى أرضا مواتا ويخرج منها نباتا ونخيلا وأعنابا . أليس ذلك آية ؟ والأنعام خلقها لكم تحول الكلاً لبناً وهي فخر لكم ، والسفن — وكثيرا ما يذكر السفن — كالجبال العظيمة المتحركة تنشر أجنحتها وتحتفز في سواء اليم لها حاد من الريح ، وبيننا تسير إذا هي وقد وقفت بغتة وقد قبض الله الريح معجزات وأي معجزات بعدها تريدون ؟ أليست أنتم معجزات ؟ لقد كنتم صغارا وقبل ذلك لم تكونوا أبدا ، ثم لكم جمال وقوة وعقل » ثم وهبكم الرحمة أشرف الصفات « وتهرمون ويأتيكم المشيب وتضعفون وتهن عظامكم ، وتموتون فتصبحون غير موجودين » ثم وهبكم الرحمة « لقد أدهشتني جدا هذه الجملة فإن الله ربما كان خلق الناس بلا رحمة فماذا كان يكون أمرهم ؟ هذه من محمد نظرة نافذة إلى لباب الحقيقة . وكذلك أرى في محمد دلائل شاعرية كبيرة وآيات على أشرف المحامد وأكرم الخصال ، وأتبين فيه عقلا راجحاً عظيماً وعينا بصيرة وفؤادا صادقا ورجلا قويا عبقريا لو شاء لكان شاعرا فحلا ، أو فارسا بطلا ، أو ملكا جليلا ، أو أي صنف من أصناف البطل .

نعم لقد كان العالم في نظره معجزة أي معجزة ، وكان يرى فيه كل ما كان يراه أعظم المفكرين حتى أمم الشمال المتوحشة ، وهو أن هذا الكون الصلب المادى إنما هو في الحقيقة لا شيء — إنما هو آية على وجود الله منظورة ملموسة ، وهو ظل علقه الله على صدر القضاء لا غير . وكان يقول هذه الجبال الشامخات ستتحلل وتذوب مثل السحاب وتفتنى ، وكان يقول الجبال أوتاد الأرض ، وأنها ستفتنى كذلك يوم القيامة ، وأن الأرض في ذلك اليوم العظيم تنصدع وتتفتت وتذهب في الفضاء هباء منثورا فتعدم . وكان لا يزال واضحا

لعينيه سلطان الله على كل شيء ، وامتلاء كل مكان بقوة مجهولة ورنق باهر وهول عظيم هو القوة الصادقة ، والجوهر والحقيقة ، وهذا ما يسميه علماء العصر القوى والمادة ولا يرونه شيئاً مقدساً ، بل لا يرونه شيئاً واحداً وإنما أشياء تباع بالدرهم وتوزن بالمثقال وتستعمل فى تسيير السفن البخارية . فسرعان ما تنسينا الكيماوات والحسابيات ما يكمن فى الكائنات من سر الله . وما أفحش ذلك النسيان عارا وأكبر هذه الغفلة إثماً . وإذا نسينا ذلك فأى الأمور يستحق الذكر ؟ إذن فمعظم العلوم أشياء ميتة خاوية بالية — بقلة ذابلة نعم ، وما أحسب العلوم — لولا ذلك — إلا خشباً يابساً ميتاً وليس هو بالشجرة النامية ، ولا بالغابة الكثيفة الملتفة التى لا تبرح تمدك بالخشب إثر الخشب فيما تمدك وتعطيك : ولن يجد المرء السبيل إلى العلم حتى يجده أولاً إلى العبادة ، أعنى أنه لا علم إلا لمن عبد ، وإلا فما العلم إلا شقشقة كاذبة وبقلة كما قلت ذابلة .

وقد قيل وكتب كثيراً فى شهوانية الدين الإسلامى ، وأرى كل ما قيل وكتب جوراً وظلماً . فإن الذى أباحه محمد مما تحرمه المسيحية لم يكن من تلقاء نفسه وإنما كان جارياً متبعاً لدى العرب من قديم الأزل ، وقد قلل محمد هذه الأشياء جهده وجعل عليها من الحدود ما كان فى إمكانه أن يجعل . والدين المحمدى بعد ذلك ليس بالسهل ولا بالهين ، وكيف ومعه كل ما تعلمون من الصوم والوضوء والقواعد الصعبة الشديدة .. إقامة الصلاة خمساً فى اليوم ، والحرمان من الخمر ، وليس كما يزعمون كان نجاح الإسلام وقبول الناس إياه لسهولة ، لأنه من أفحش الطعن على بنى آدم والقدح فى أعراضهم أن يتهموا بأن الباعث لهم على محاولة الجلائل وإتيان الجسائم هو طلب الراحة واللذة التماس الحلو من كل صنف فى الدنيا والآخرة ! كلا فإن أحسن آدميين لا يخلو من شىء من العظمة والجلال ، فالجندي الجاهل الجلف الذى يؤجر يمينه وروحه فى الحروب بأجر بخس له مع ذلك « شرف » يحلف به ، فتراه لا يبرح يقول : لأفعلن ذلك وشرفى . وليست أمنية أحقر آدميين هى أن يأكل الحلوى ، بل أن يأتى عملاً شريفاً وفعلاً محموداً ويثبت للناس أنه رجل فاضل كريم . ليعمد أيكم

إلى أبلد إنسان فيريه سبيل المكرمات والمحامد فإذا هو قد تأجج قلبه حماسا ،
واتقدت نفسه غيرة ، وصار فى الحال بطلا . وما أظلم الذين يتهمون الإنسان
بقولهم إنه ميال بفطرته إلى الراحة ، وإنه يستهوى بالتزف ويستغوى باللذة . إنما
مغريات الإنسان وجاذباته هى الأحوال والصعائب والاستشهاد والقتل . أقدر ما
بنفس المرء من زناد الفضل تذك نارا تحرق سائر ما فيه من الخسائس والنقائص ،
وما كان قط اعتناق الناس لدين من دواعى الشرف والعظمة .

وما كان محمد أنحا شهوات يرغم ما اتهم به ظلما وعدوانا ، وشد ما نجور
ونخطفى إذا حسبناه رجلا شهويا لا هم له إلا قضاء مآربه من الملاذ - كلا ، فما
أبعد ما كان بينه وبين الملاذ أيا كانت . لقد كان زاهدا متقشفا فى مسكنه
ومأكله ومشربه وملبسه وسائر أموره وأحواله ، وكان طعامه عادة الخبز والماء ،
وربما تابعت الشهور ولم توقد بداره نار . وإنهم ليذكرون - ونعم ما يذكرون -
أنه كان يصلح ويرفو ثوبه بيده ، فهل بعد ذلك مكرمة ومفخرة ؟ فحبذا محمد
من رجل نحشن اللباس نحشن الطعام مجتهد فى الله قائم النهار شاهر الليل ؛ دائب
فى نشر دين الله غير طامح إلى ما يطمح إليه أصاغر الرجال من رتبة أو دولة أو
سلطان ، غير متطلع إلى ذكر أو شهرة كيفما كانت . رجل عظيم وربكم وإلا
فما كان ملاقيا من أولئك العرب الغلاظ توقيرا واحتراما وإكبارا وإعظاما ، وما
كان ممكنا أن يقودهم ويعاشرهم معظم أوقاته ثلاثا وعشرين حجة وهم ملتفون
به يقاتلون بين يديه ويجاهدون حوله . لقد كان فى هؤلاء العرب جفاء وغلظة
وبادرة وعجرفة ، وكانوا حماة الأنوف أباة الضيم وعز المقادة صعاب الشكيمة .
فمن قدر على رياضتهم وتذليل جانبهم حتى رضخوا له واستقادوا فذلکم وأيم
الله بطل كبير . ولولا ما أبصروا فيه من آيات النبل والفضل لما خضعوا له ولا
أذعنوا ، وكيف وقد كانوا أطوع له من بنانه . وظنى أنه لو كان أتيح لهم بدل
محمد قيصر من القياصرة بتاجه وصولجانه ، لما كان مصيبا من طاعتهم مقدار

ما ناله محمد فى ثوبه المرقع بيده ، فكذلك تكون العظمة وهكذا تكون الأبطال . وكانت آخر كلماته تسبيحا وصلاة — صوت فؤاد يهم بين الرجاء والخوف أن يصعد إلى ربه . ولا نحسب أن شدة تدنيه أزرت بفضله ، كلا بل زادته فضلا . وقد يروى عنه مكرمات عالية منها قوله حين رزئ غلامه : العين تدمع والقلب يوجع ولا نقول ما يسخط الرب . ولما استشهد مولاه زيد «ابن حارثة» فى غزوة « مؤنة » قال محمد : لقد جاهد زيد فى الله حق جهاده ، ولقد لقى الله اليوم فلا بأس عليه . ولكن ابنة زيد وجدته بعد ذلك ييكى على جثة أبيها — وجدت الرجل الكهل الذى دب فى رأسه المشيب يذوب قلبه دمعا ! فقالت « ماذا أرى ؟ » قال « صديقا ييكى صديقه » مثل هذه الأقوال وهذه الأفعال ترينا فى محمد أننا الإنسانية الرحيم — أحنانا جميعا الرعوف الشفيق ، وابن أمنا الأولى وأبيننا الأول .

وإنى لأحب محمدا لبراءة طبعه من الرياء والتصنع ، ولقد كان ابن القفار هذا رجلا مستقل الرأى لا يعول إلا على نفسه ولا يدعى ما ليس فيه : ولم يك متكبيرا ولكنه لم يكن ذليلا ضرعا ، فهو قائم فى ثوبه المرقع كما أوجده الله وكما أراد ، يخاطب بقوله الحر المبين قياصرة الروم وأكاسرة العجم يرشدهم إلى ما يجب عليهم لهذه الحياة وللحياة الآخرة . وكان يعرف لنفسه قدرها ، ولم تخل الحروب الشديدة التى وقعت له مع الأعراب من مشاهد قسوة ، ولكنها لم تخل كذلك من دلائل رحمة وكرم وغفران . وكان محمد لا يعتذر من الأولى ولا يفتخر بالثانية . إذا كان يراها من وحى وجدانه وأوامر شعوره . ولم يكن وجدانه لديه بالمتهم ولا شعوره بالظنين . وكان رجلا ماضى العزم لا يؤخر عمل اليوم إلى غد . وطالما كان يذكر يوم « تبوك » إذ أبى رجاله السير إلى موطن القتال واحتجوا بأنه أوان الحصيد وبالحر ، فقال لهم : الحصيد ! إنه لا يلبث إلا يوما . فماذا تتزودون للآخرة ؟ والحر ؟ نعم إنه حر ولكن جهنم أشد حرا . وربما خرج بعض كلامه تهكما وسخرية ، إذ يقول للكفار ستجزون يوم القيامة عن أعمالكم ويوزن لكم الجزاء ثم لا تبخسون مثقال ذرة .

وما كان محمد بعابث قط ولا شاب شيئا من قوله شائبة لعب ولهو ، بل كان الأمر عنده أمر خسران وفلاح ومسألة فناء وبقاء . ولم يك منه إزاءها إلا الإخلاص الشديد والجد المر . فأما التلاعب بالأقوال والقضايا المنطقية والعبث بالحقائق فما كان من شأنه قط . وذلك عندى أفضع الجرائم إذ ليس هو إلا رقدة القلب ووسن العين عن الحق ، وعيشة المرء فى مظاهر كاذبة . وليس كل ما يستنكر من مثل هذا الإنسان هو أن جميع أقواله وأعماله أكاذيب ، بل إنه هو نفسه أكذوبة . وأرى خصلة المروءة والشرف — شعاع الله — متضائلا فى مثل ذلك الرجل مضطربا بين عوامل الحياة والموت . فهو رجل كاذب لا أنكر أنه مصقول اللسان مهذب حواشى الكلام محترم فى بعض الأزمان والأمكنة . لا تؤذيك بادرته ، لين المس رقيق الملمس كحمض الكربون تراه على لطفه سما بقيعا وموتا ذريعا .

وفى الإسلام خلة أراها من أشرف الخلال وأجلها ، وهى التسوية بين الناس . وهذا يدل على أصدق النظر وأصوب الرأى . فنفس المؤمن راجحة بجميع دول الأرض ، والناس فى الإسلام سواء ، والإسلام لا يكتفى بجعل الصدقة سنة محبوبة بل يجعلها فرضا حتما على كل مسلم ، وقاعدة من قواعد الإسلام . ثم يقدرها بالنسبة إلى ثروة الرجل فتكون جزءا من أربعين من الثروة ، تعطى إلى الفقراء والمساكين والمنكوبين . جميل والله كل هذا . وما هو إلا صوت الإنسانية — صوت الرحمة والإنحاء والمساواة يصيح من فؤاد ذلك الرجل — ابن القفار والصحراء .

وينكر البعض تغلب الحسية والمادية على جنة محمد وناره ، فأقول إن العيب فى ذلك على الشراح والمفسرين لا على ما جاء فى الكتاب . فإن القرآن قد أقل جدا من إسناد الحسيات والماديات إلى الجنة والنار ، وكل ما فيه عن هذا الشأن إيماء وتلميح . وإنما المفسرون والشراح الذين لم يتركوا لذة حسية ولا متعة شهوية حتى ألحقوها بالجنة ، ولا عذابا بدنيا وألما جسمانيا حتى أسندوه إلى النار . ثم لا تنسوا أن القرآن جعل أكبر ملاذ الجنة روحانيا إذ قال : « وقال لهم خزنتها سلام

عليكم طبتم فادخلوها خالدين » فالسلام والأمن هما فى نظر كل عاقل أقصى أمانى المرء وأعظم الملاذ قاطبة ، والشئ الذى عبثا يتلمسه الإنسان فى الحياة الدنيا . وقال أيضا : « ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين » وأى رذيلة أجهت من الغل مصدر المحن والمصائب والنقم والآفات ؟ وأى شئ أهنا من التآلف والتصافى ؟

وأى دليل أشهر ببراءة الإسلام من الميل إلى الملاذ من شهر رمضان الذى تلجم فيه الشهوات ، وتزجر النفس عن غاياتها ، وتقرع عن مآربها ؟ وهذا هو منتهى العقل والحزم . فإن مباشرة اللذات ليس بالمنكر ، وإنما المنكر هو أن تذلل النفس لجبار الشهوات ، وتنقاد لحادى الأوطار والرغبات . ولعل أجد الخصال وأشرف المكارم هو أن يكون للمرء من نفسه على نفسه سلطان ، وأن يجعل من لذاته لا سلاسل وأغلالا تعييه وتعتاص عليه إذا هم أن يصدعها ، بل حليا وزخارف متى شاء فلا أهون عليه من خلعها ، ولا أسهل من نزعها . وكذلك أمر رمضان سواء كان مقصودا من محمد معينا ، أو كان وحى الغريزة وإلهاما فطريا فهو والله نعم الأمر .

ويمكننا القول على كل حال بأن الجنة والنار هاتين هما رمز لحقيقة أبدية لم تصادف من حسن الذكر قط مثلما صادفت فى القرآن . وماذا ترون تلك الجنة وملاذها وهاته النار وعذابها وقيام الساعة التى يقول عنها : « يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى » ماذا ترون كل هذا إلا ظلا تمثل فى خيال ذلك النبى الشاعر للحقيقة الروحانية الكبرى رأس الحقائق ، أعنى الواجب وجسامة أمره . لقد كان هذا الرجل يرى الحياة أمرا جسيما ، ويرى لكل عمل إنسانى مهما حفر خطارة كبرى . فما كان من سيئ فله من سوء نتيجة أبدية ، وما كان صالحا فله من الصلاح ثمرة سرمدية ، وأن المرء قد يسمو بصالحاته إلى أعلى عليين ، ويهبط بموبقاته إلى أسفل سافلين ، وأن على عمره القصير تقوم دعائم أبدية هائلة خفية . كل ذلك كان يلهب فى روح ذلك الرجل القفرى كأنما قد نقش ثمة بأحرف

النار ، وكل ذلك قد حاول فى أشد إخلاص وأحد جد أن يخرج للناس ويصوره لهم ، فأخرجه وصوره فى صورة تلكم النار والجنة ، وأى ثواب لبسته هذه الحقيقة ، وأى قالب صبت فيه فلا تزال أولى الحقائق مقدسة فى أى أسلوب وأى صورة .

وعلى كل حال فهذا الدين ضرب من النصرانية ، وفيه للمبصرين أشرف معانى الروحانية وأعلاها ، فاعرفوا له قدره ولا تبخسوه حقه ، ولقد مضى عليه مئتان وألف عام وهو الدين القويم والصراط المستقيم لخمس العالم . وما زال فوق ذلك ديناً يؤمن به أهله من حبات أفئدتهم ، ولا أحسب أن أمة من النصراني اعتصموا بدينهم اعتصام المسلمين بإسلامهم — إذ يوقنون به كل اليقين ، ويواجهون به الدهر والأبد ، وسينادى الحارس الليلة فى شوارع القاهرة أحد المارة « من السائر ؟ » فيجيبه السائر « لا إله إلا الله » وإن كلمة التوحيد والتكبير والتهليل لترن آناء الليل وأطراف النهار فى أرواح تلك الملايين الكثيفة ، وإن الفقهاء ذوى الغيرة فى الله والتفانى فى حبه ليأتون شعوب الوثنية بالهند والصين والمالاي فيهدمون أضراليلهم ويشيدون مكانها قواعد الإسلام ، ونعم ما يفعلون .

ولقد أخرج الله العرب بالإسلام من الظلمات إلى النور ، وأحى به من العرب أمة هامة وأرضها مدة . وهل كانت إلا فئة من جوالاة الأعراب خاملة فقيرة تجوب الفلاة منذ بدء العالم لا يسمع لها صوت ولا تحس منها حركة ، فأرسل الله لهم نبيا بكلمة من لدنه ورسالة من قبله ، فإذا الخمول قد استحال شهرة ، والغموض نباهة ، والضعفة رفعة ، والشرارة حريقا وسع نوره الأنحاء ، وعم ضوءه الأرجاء ، وعقد شعاعه الشمال بالجنوب والمشرق بالمغرب . وما هو إلا قرن بعد هذا الحادث حتى أصبح للدولة العرب رجل فى الهند ورجل فى الأندلس ، وأشرقت دولة الإسلام حقبا عديدة ودهورا مديدة بنور الفضل والنبيل والمروءة ، والبأس والنجدة ورونق الحق والهدى على نصف المعمورة . وكذلك الإيمان عظيم وهو مبعث الحياة ومنبع القوة ، وما زال للأمة

رقى فى درج الفضل ، وتعريج إلى ذوى المجد ما دام مذهبيها اليقين ومنهاجها الإيمان . ألسنم ترون فى حالة أولئك الأعراب ومحمدهم وعصرهم ، كأنما قد وقعت من السماء شرارة على تلك الرمال التى كان لا يبصر بها فضل ولا يرجى فيها خير ، فإذا هى بارود سريع الانفجار وما هى برمل ميت ، وإذا هى قد تأججت واشتعلت واتصلت نارها بين غرناطة ودلهى ؟ ولطالما قلت إن الرجل العظيم كالشهاب من السماء وسائر الناس فى انتظاره كالخطب ، فما هو إلا أن يسقط حتى يتأججوا ويلتهبوا .

المحاضرة الثالثة

البطل فى صورة شاعر

(دانتي - شاكسبير)

البطل فى صورة إله والبطل فى صورة نبى هما من ثمرات العصور الغابرة لا يعود بهما الزمان بعد ذلك أبداً ، وهما يدلان على جفاء فى الفكر وغلظة فى الفهم يحوهما مجرد تقدم العلوم الطبيعية . ومحال على الناس أن يحملهم فرط العجب والإعجاب برجل من الرجال حتى يخالوه إلهاً أو ناطقاً بصوت إله ، إلا إذا كانوا عائشين فى عصر خال ألبته من الأوضاع العلمية الطبيعية . نعم لقد انقضى زمن الآلهة والأنبياء وجاء الزمن الذى يلبس فيه البطل صورة أقل عظمة وأبهة وإن لم تك أقل فضلاً وحققاً ، أعنى صورة الشاعر ، والشاعر نوع من البطل لا ينفرد به عصر دون آخر جدير أن تنتجه أقدم العصور وأحدثها .

بطل نبى شاعر - إلى غير ذلك من شتى الأسماء نعطيها للرجل العظيم فى شتى الأزمان والأمكنة ، وذلك حسبما نرى بينهم من الفروق ، وحسبما يرفعوا فيه من فنون الفضل وأبواب العلم ! أو على هذه القاعدة يمكننا أن نعطي كثيراً من الأسماء غير ذلك . وإنى لأوقن بأننى لا أحسب أن هناك رجلاً عظيماً لا يمكنه أن يكون عظيماً فى كل فن ، فالشاعر الذى لا يستطيع إلا أن يجلس إلى يراعه وقرطاسه فينظم قصيدة ، مستحيل عليه أن ينظم قصيدة بارعة ، ولا أحسبه يجيد صفة الفارس الأروع إلا إذا كان هو نفسه فارساً أروع . ولا أحسب الشاعر الكبير إلا أنه يجمع فى نفسه بين السياسى والمفكر والمشرع والفيلسوف ، وإنه قد كان يمكنه أن يكون - بل هو بالفعل - كل هذه . ثم لا أفهم لماذا كان يستحيل على رجل مثل « ميرابو » صاحب القلب الكبير المتوهج ، المتأجج

نارا ، المفعم دموعاً ، أن يكون شاعرا ينظم القصيد والمبقيات التمثيلية والمقطعات ، فيقرع بها القلوب والأكباد لو قد ساقته الأحوال والأسباب إلى ذلك . والأمر الأولى الجوهري هو أن يكون الرجل عظيما . وإن فيما قاله نابليون لكلمات لا تقل قيمة عن أكبر وقائعة ، وقد أذكر قواد لويز الرابع عشر فيخيل إلى أنهم كذلك شعراء ، وأن في كلمات القائد تورين ما يماثل أقوال سامويل جونسون حكمة وبلاغة . فالقلب الكبير والعين البصيرة هما رأس الفضائل ، وما كان لامرئ قط أن يُجل ويُعظم بغيرهما . أو لا تذكر أن الشعارين « بترارك » و« بوكاشيو » كانا يقومان بأعمال سياسية فيحسننا القيام بذلك ؟ أم لا تحسبون أن الشاعر « بارنز » لو قد جعله الله مكان « ميرابوا » لأتى ما لم يستطعه ؟ ولا نعلم أى عمل من الأعمال كان شاكسبير لا يؤديه على أكمل حال لو قد أسند إليه .

ولست أنكر أن لكل امرئ طبيعة خاصة واستعدادا فطريا ، وأن هنالك فروقا فى الغرائز ، ولكن فروق الأحوال والعلل أكثر وأكبر . وما عظماء الرجال فى ذلك الأمر إلا كأصاغرهم ، فإنك لتتناول الطفل الممكن تصديره أى صانع فتعلمه حتى يصبح حدادا أو نجارا أو بناء ، ومتى أصبح هذا أو ذاك بقى كذلك طول عمره . وإذا كنا لا نزال كما قال « أديسون » نجد الرجل الأعرج الموهون يعتمد على عصاه وهو مع ذلك حمال ينوء تحت ثقله الفادح ، وآخر ضخيم الجثة شديد القوى عبل الشوى عادى الألواح كأنه الهيكل المبنى وهو مع ذلك خياط لا يحمل إلا خيطا وإبرة يخف محمولهما على النملة . على أن الأمر غير متوقف على الاستعداد الطبيعى . وكذلك الرجل العظيم ماذا يصير وبم يحترف ؟ - أيصير غازيا أم سلطانا أم فيلسوفا أم شاعرا ؟ إنها لمناظرة عويصة معضلة بينه وبين العالم ا وما عليه إلا أن يقرأ العالم وقوانينه ، والعالم وقوانينه صحيفة منشورة أمامه ، وما لدى العالم مسألة أهم وأخطر مما يراه ويقضى به فى شأن الرجل العظيم .

إن بين الشاعر وبين النبى فى نظر المتأخرين فرقا كبيرا ، ولقد كان مدلولهما فى بعض اللغات القديمة واحدا . فلفظة « فاتيس » معناها شاعر أو نبى .

والحقيقة أنه مازال بين النبي والشاعر لو يفقه الناس شبه قريب . وما برح جوهرهما واحدا من حيث إن كليهما ينفذ ببصره إلى سر الكائنات المقدس . أو ما يسميه « جايتى » السر الجلى ، الجلى لكل إنسان ولا يكاد يراه مع ذلك إنسان . السر الإلهى الكائن فى كل كائن — المستقر فى باطن « الظاهر » كما يقول « فيشتى » — السر الذى ما جميع الظواهر من النجوم الزاهرة إلى الرياض الناضرة إلى ظواهر الإنسان وأفعاله ، إلا ثوب له وبدن يتراءى فيه ويظهر . نعم السر الإلهى فى كل زمان ومكان موجود ولا ريب ، وربما أغفله الناس فى معظم الأوقات والجهات إذ يحسب الكون الذى هو « فكر الله المحقق » شيئا عاديا تافها هامدا كأنما هو شيء جامد تولى صنعه النجار والحداد . ولا داعى هنا للإكثار فى ذلك الموضوع ، ولكنى أقول ويل للذين لا يفقهون ذلك ولا يؤمنون به ، ويل بهم وأسف عليهم ، ويا يؤس للحياة إذا كانت غير مشفوعة بذلك !

ولكنى أقول من كان من الناس ينسى ذلك ويغفله ، فإن « الفاتيس » أعنى الشاعر أو النبى يَاحْدَى اللغات القديمة لم ينسه ولم يغفله ، ولكنه نفذ إليه ببصيرته ، وإنما أرسله الله ليفعل ذلك وليكشف من سر الله ما غمض . هذه هى إبداء رسالته إلى الناس أن يجلو لنا غامض السر — ذلك السر الذى هو إليه أقرب وبه أعرف من سائر الخلق ، فإذا نسوه فقد ذكره مسوقا إلى ذكره بأقوى دافع من ذات نفسه ، عائشا فيه من حيث لم يرد ولم يشعر فهو ليس بتابع لمعتاد القول ولكنه رجل نظارة مبتدئ محقق ، فهو لا يستطيع إلا أن يكون مخلصا . ومن عاش من الناس وسط الظواهر فهو العائش فى صميم الحقائق ، المجتهد فى الله الجاد فى شئون الحياة والكائنات . ولو عبث العالم طرأ فالإخلاص أول أسباب شاعريته ونبوته ، وهكذا يشترك الشاعر والنبى فى إدراك سر الله الجلى فهما من حيث ذلك واحد .

أما الفرق بينهما فذاك : وهو أن النبى قد تناول هذا السر المقدس من وجهة نظر الخير والشر — المحذور والمباح . وتناوله الشاعر من وجهة الجمال والحسن

والجلال وما شاكل ، فأحدهما الهادى إلى ما نفعل ، وثانيهما الدال على ما نعشق . على أنهما بعد متداخلان وفرعان متعانقان لا يمكن الفصل بينهما وفصم عروتها . ولا يخلو النبى أيضا من تتبع الجمال أيا كان ، وإلا فكيف له أن يبصرنا ما يجب علينا إتيانه ؟ ولقد جاء فى التوراة — وهو قول نبى — آية جديرة أن تحسب كأبدع ما نظم شاعر وهى : « انظر إلى زهر الرياض فإنك لا تراه يكدح ولا يغزل ولا ينسج ، وهو مع ذلك قد كسى من ثياب البهجة وبرود الحسن ما لم يكسه سليمان فى ريعان سلطانه » أليست هذه الآية ثمرة البصيرة النافذة إلى أعماق أعماق الجمال ؟ « زهر الرياض » رافل من فنون ألوانه فى أقشب من مطارف الأمراء وآنق من حلل الملوك وهى بعد نابذة من الثرى المتواضع والتراب المتطامن ، كأنها عيون الملاح ترنو إليه من خلال بحر الجمال الباطن . وهل كان للأرض أن تصوغ هذه الأزهار لو لم يكن الجمال جوهرها رغما من ظاهرها الجعد المتلبد ؟ ومن ثم قال « جيتا » قولاً استنكره الكثيرون وهو : « الجمال أفضل من الخير ، والجمال يشتمل على الخير وأكثر » وإنما قصد إلى الجمال الحق الذى يفضل الجمال الكاذب كما تفضل حدائق الجنة غابات « بولونيا » ، وحسبنا ذلك بيانا للفرق بين الشاعر والنبى .

قليل فى شعراء الأعصر القديمة والحديثة من يحسبهم الناس كاملين قد بلغوا الغاية القصوى . وهذا القول وأيم الله إن كان ظاهره الصدق فهو فى الواقع أخدوعة . إذ الحقيقة أنه ليس فى جميع الشعراء كامل ، وإنما الشعر عرق يجرى فى طبيعة كل امرئ لا يخلو منه ، وكل إنسان يجد فهم قصيدة فهو فى أثناء قراءتها شاعر ، وما القواد الذى يرتاع لتلاوة جحيم « دانتى » إلا من طينة قواد ذلك الشاعر وإن كان بعد أقل شاعرية . ولم يك غير شاكسبير بقادر على اشتقاق قصة هامليت من تلك الحكاية القديمة — حكاية الشاعر « ساكسو جراماتييكاس » . ولكنه ليس من إنسان إلا ويستطيع أن يصنع قصة ما من تلك الحكاية يكون مقدارها من الجودة والرداءة بمقدار ما وهبه الله من قوة الخيال أو ضعفه . وأرى التعريفات كلها اختيارية ذوقية ما لم يكن هنالك فرق محدود كما

بين المربع والدائرة ، فكل رجل فاق حظه من المزية الشعرية حظوظ سائر قومه وجيله ، حتى نضع أمره بينهم كالغرة فى الفرس البهيم والأبلق وسط الدرهم كان جديراً أن يسموه شاعراً . وكذلك شأن انتقادهم أكابر شعراء العالم فإن من رأوه من الشعراء قد برز فى مضمار الشعر حتى بز القراء وحلق فى سماء الخيال حتى علا النظراء ، أجمعوا على إجلاله وسموه شاعراً عاماً . على أن مثل هذا الحكم ليس فى الحقيقة إلا مسألة ذوق ورأى خاص ، فإن فى جميع الشعراء بل فى جميع الناس معنى من الشعور العام أو الشاعرية العامة لم يخل فرد من ذلك . وسرعان ما ينسى الناس معظم الشعراء ثم لا تحسبن أن الأعظم الأفضلين منهم : أمثال شكسبير وهوميروس : إلا ملاقين من النسيان حظوظهم ، ولا بد من يوم يصبح أمرهم فيه نسياً منسياً .

ولسائل أن يسأل : أى فرق هنالك بين الشعر الحر وبين الحر من الكلام غير الشعرى ؟ فالأجوبة على ذلك كثيرة ، ولا سيما ما كتبه نقاد الألمان فى ذلك الصدد وفيها الذى لا يفهم لأول وهلة ، فمن ذلك قولهم : إن الشاعر تكون روحه عديمة النهاية ، ثم هو ينفض هذه الخاصية أعنى عدم النهاية على كل شىء يصفه أو يصوره . فهذا الكلام وإن لم يكن بمحكم ولكنه جدير بالذكر ، إذ كان إنما قيل فى موضوع مبهم مثل الشعر . ثم هو لا يخلو من بعض المعنى إذا تؤمل وتدبر . أما أنا فإننى أجد معنى جما فى التعريف القديم للشعر وهو إنه الكلام الموزون المودع شيئاً من الموسيقى حتى هو ضرب من الغناء . وحققوا لو اضطرب الإنسان إلى إعطاء تعريف للشعر لما كان متجاوزاً ذلك التعريف القديم ، فإذا كان نظمك موسيقياً لا فى اللفظ فقط بل فى اللب والمادة وفى جميع الأفكار والمعانى والنظام والنسق ، فهو شعر وإلا فلا . والمعنى الموسيقى هو ما إذا خرج من ذهن نفذ إلى لباب الشىء وأدرك مكنون سره ، أعنى النغمة الكامنة فى جوفه — أعنى ما يستمر فى ضمير ذلك الشىء من موسيقى الائتلاف والوئام — من تلك الموسيقى التى ليس إلا بفضلها يوجد ذاك الشىء ويكون أهلاً لأن يوجد فى هذه الدنيا . ولقد يمكننا القول بأن لباب كل شىء موسيقى ، أعنى أنه إذا بدا

للناس بدا فى منطق موسيقى ، أى بدا فى صوت الغناء . وإنى أرى معنى الغناء عويصا عميقا ، إذ أين ذلك الذى يستطيع أن يصف لنا تأثير الغناء بالقلم أو باللسان ؟ والغناء ضرب من الكلام المستحيل النطق والمتناهى العمق ، الذى يذهب بنا إلى شواطئ المجهول فيتركنا ننظر برهة فى ذلك البحر .

أجل إن فى جميع الكلام حتى فى أكثره استعمالا لشيئا من النغم والغناء . وليس ثمة قرية فى العالم مهما حقرت إلا ولأهلها لهجة قد خص بها منطقهم وكلامهم . فهذه اللهجة هى النغمة التى يغنى بها أولئك القوم ما يقولونه من الكلام ! نعم إن اللهجة ضرب من النشيد والترنم ، وما من قوم إلا ولهم لهجة خصوا بها وإن كانوا لا يفطنون إلا للهجات غيرهم . ثم اذكروا أيضا أن كل كلام صادر عن انفعال فإنه يلبس بطبيعته ثوبا موسيقيا . بل أرى كلام الغضبان صوتا من الغناء ، وهكذا كل لباب وصميم وشيء عميق فهو غناء ، بل يظهر لى أن الغناء هو لبابنا الجوهرى ، وإن كل ما فينا بعد ذلك اللباب أو الغناء فإنما هو لفائف وقشور وأغلفة ! نعم الغناء هو أول عناصرنا وعناصر جميع الأشياء ، ولقد كانت اليونان تقول فى خرافاتها إن للقلبك فى مسيره موسيقى . ولعل ذلك كان دليلا على ما كانوا يشعرون به من تركيب الكائنات الباطنى ونظامها الداخلى ، وإن روح أصواتها وتعبيراتها لم يك إلا غناء وموسيقى . وعلى ذلك فسنسمى الشعر : فكراً موسيقيا ، والشاعر هو الذى يفكر على هذه الصورة . وأساس ذلك هو فى الحقيقة قوة الذهن ، وإنه الإخلاص ونفاذ البصيرة هما اللذان يجعلان المرء شاعراً . انظر إلى صميم الأشياء يكن نظرك موسيقيا ، فإن قلب الطبيعة هو الموسيقى لو أمكنك أن تنفذ إليه .

ويظهر لى أن الشاعر — كاشف أسرار الوجود بنغماته — ينزل من نفوس الناس منزلة منحطة جداً عن منزلة النبى ، إذ يرون عمله تافها ووظيفته صغيرة . فكان البطل عندهم أولا إلها ثم نبيا ثم شاعراً . أليس فى ذلك دليل على انحدار الرجل العظيم فى أنظارنا على توالى الزمن ؛ فإننا نراه أولا إلها ، ثم ذا وحى إلهى ، ثم لا نرى فيه بعد ذلك إلا ناظم أشعار جميلة ورجلا نابغة وبارعا وما

أشبهه ؟ هذا هو الظاهر لى ولكنى أحمل نفسى على الاعتقاد بأن الأمر خلاف ذلك ، شعوراً منى بأنه لا يزال فى بنى آدم الإجلال المفرط — لم ينقص مثقال ذرة — للعظمة والبطولة فى أية هيئة بدت وأى اسم أعطيت .

وقد أعلم أنه إذا كنا الآن لا نرى فى الرجل العظيم إلها ولا نبيا ، فما ذلك أن أرينا فى الله وفى ينبوع الضياء الأقدس الأعلى ومنبع العظمة والعقل الأوفر الأوفى قد اتضع وخبا ، بل بالعكس لأنه قد سما وطاب . وجدير بكم أن تعوا ذلك وتذكروه . ولا أنكر أن الشك والكفر والاستخفاف آفات هذه العصور قد أحدثت ضرراً عظيماً فى هذا الأمر الأجل الأعلى بإضعافها فى نفوس الناس إجلالهم للبطل ، حتى أصبح معظمهم ينكرون وجود العظماء المستحقين للإجلال . وهذه وأبيكم الأم العقائد وأنكاهها وأوخمها مغبة . ولن يكون مع اعتقادها إلا اليأس المطلق من الإنسانية وسائر أمورها وأشياءها . ومع كل ذلك فانظروا إلى نابليون ! ضابط صغير على طائفة من جند المدافع . هذا هو ظاهر نابليون ولكنه مع ذلك قد أصاب من طاعة رجاله وتقديسهم إياه ما لم يصبه كثير من الأنبياء وجبايرة الملوك . ثم انظروا إلى الشاعر بارنز كيف كان إذا اطرده به مجرى الحديث استوقف الأميرات وخدم الإصطبلات بسجريانه فلم يبق منهم إلا من شعر بأن لذلك الرجل فتنة وجلالا لم يروهما لأحد غيره ، وأنه هكذا تكون الرجال وإلا فلا ! فترون من ذلك أنه قد كان يكمن فى قلوب هؤلاء القوم وإن لم تصرح به ألسنتهم ويلمح من خلال حركاتهم — وإن لم يظهر ساطعاً جلياً — أنهم كانوا يرون عظمة وقوة وجلالة لا يجدونها لسائر الرجال ، فى ذلك الفلاح الكثيف الحاجين الرقاد المقلتين صاحب الكلمات التى تستوكف الأعين تارة بهوامر الدموع ، وطورا تقوم بالضحك الشديد حنايا الضلوع ، أو لا نشعر نحن أيضاً بذلك ؟ ولكنه لو طهر الله نفوس الناس من أدران الشك والاستخفاف والعبث وسائر هاتيك الرذائل — وسيفعل الله ذلك يوماً ما — نعم لو أبدلت القلوب من رذيلة الإيمان بالمظاهر الكاذبة فضيلة الإيمان بالجواهر

الصداقة ، إذن فأى منزلة تكون لمثل الشاعر بارنز فى نفوسنا وأى محبة وإكبار تمجيد ؟

وعلى كل ذلك ألا ترون أن لدينا شاعرين هما وإن لم ينالا منزلة الألوهية ، فقد نالا فى هذه العصور على ما بها من رذائل الاستخفاف والنكران والشك منزلة التقديس والولاية ؟ نعم إن شاكسبير ودانتى لوليان من أولياء الشعر حرام على كل إنسان أن ينال مقامهما الشريف بأدنى إساءة ، وهذه نتيجة وصل إليها العالم بالإلهام والفطرة رغما مما قام فى طريقه من ظلمات الجهل والشك وعقبات الجحود والكفر . ويفصل هذين الشاعرين من الزمن مسافة قصية ، وكلاهما قائم فى فضاء الدهر كراهب فى فضاء القفر له مملكة من الوحدة ودولة من الوحشة غريب فى جيله وقومه .

غربته العلى على كثرة الأهـ ل فاضحى فى الأقربين غريبا
لا مثيل لهما فى سائر الشعراء تباركا عن الأنداد والأقرن ، يفهما فى نظر العالم نور من الجلال ورونق من الكمال فهما مقدسان وإن لم يتول تقديسهما بطارقة وقسوس . وهكذا ترون كيف أن ما أودع نفوس البشر من فطرة إجلال البطل ما يزال يحيا فى قلوبهم برغم انتشار السخرية والاستخفاف واستيلاء الجحود والكفر ، وسنلقى نظرة فى تاريخ هذين البطلين .

لقد ألقت عدة تراجم لدانتى ، وجملة حواش وشروح لكتابه ، ولكنها على العموم قليلة الثمرة . أما تاريخ حياته فقلما يعرف عنه شىء وقد باد معظمه حتى لا يمكن تداركه ، لم يك دانتى فى زمانه إلا رجلا صغير الشأن شريداً طريداً مكسور الفؤاد مهيض الجناح قليلا اهتمام الناس به مدة حياته . وأسوأ من ذلك أن معظم أنباء ذاك الخمول والبلاء تراها على علاتها قد بادت على ممر خمسة قرون ، وعلى كثرة ما كتب عنه من التراجم والشروح ، فكتابه هو جل ما نعرفه عنه . كتابه وصورته المنسوبة إلى المصور « جيوتو » التى إما نظرت إليها لم يسعك إلا الشهادة لصانعها بالإحسان والإجادة أيا كان . أما أنا فأرى ذلك الوجه أمس الوجوه لكبدى وأقرعها لأحشائى ، وأرى آية الحزن والألم وآية

الفوز كذلك والظفر على صحيفة ذلك الوجه البادى فى رقعة المصور منفرداً وحيداً لا يحفه شىء من الأثاث والمتاع ، إلا ما يرفرف عليه من روح الوحشة — أرى كل ذلك عنواناً على تاريخ دانتى ! وظنى أنه أشجى وجه صور من عالم الحقيقة — وجه محزن مفتت للفؤاد أساس معانيه الرقة والرحمة والحنان ، لا كما تكون فى الرجل بل كما تكون فى الطفل . ولكن قد خالط هذه المعانى الرقيقة معانٍ أقسى وأمر ، معانى وحشة وسخط وألم فى تجلد وتعزز ويأس فى رفعة وكبرياء . روح رقيقة هواء قد لبست آية البأس والقسوة والاستبداد والعبوس والاكفهرار ، كأنما تنظر إليه من وراء سجف من الثلج ! وقد قلصت شفتاه احتقاراً وازدراء ، لا كازدراء الإنس بل كازدراء الآلهة للشىء الذى يذيب حشاه ويأكل فؤاده ، كأن ذلك الشىء هو أحقر ما يكون وأدنى ، وكأن صاحب الوجه هو أشرف من ذلك الشىء ، وإن كان يتجرع منه مر البلاء ويسام به سوء العذاب . إنما هو وجه رجل منابذ للندىا مناصب لها معارض لأحكامها ، قد صب عليها غارة شعواء ، وأقام لها من الحرب سوقاً بضاعتها أبداً نافقة ، ورحى ما تبرح العمر دائرة . وهل هى إلا محبة تحولت حنقا لا يفتر ولا يستريح ، متمهلاً مطرداً ساكناً كحنق إله ! ثم ترى للعين نظرة اندهاش واستفهام كأنها تسأل لماذا خلق الله الدنيا على هذه الصفة ! هذا هو دانتى ، هذا هو صوت عشرة قرون نحرس ، هذا هو الرجل الذى صدح لنا صوتاً عن الجحيم والجنة !

وأرى هناك مطابقة بين ما نعرفه عن حياة دانتى وبين صورته وكتابه . ولد هذا الشاعر بمدينة فلورنس من أعمال إيطاليا فى عام ١٢٦٥ ، وعلم وثقف على أحسن نظام كان إذ ذاك . وكان فيما تلقاه كثير من الفقه والمنطق والأدب اللاتينى ، وله قدم راسخة فى بعض أبواب العلم . ولم يدع دانتى فيما نظن شيئاً يتعلم حتى حصله ، وكان ذا فهم صفى مهذب وذكاء مشتعل وعقل راجح . وكان قد أتقن من العلم ما جاء فى الأزمان القرية من عصره ، فأما ما بعد عنه فى أقاصى الغابر فلم يجد إليه سبيلاً لخلو عصره من المطبوعات ومن أسباب التواصل . وسلك فى حياته المذاهب المعتادة فصحب جيش بلاده فى حربين .

وذهب مرة سفيراً إلى بعض الولايات ، وأصبح بفضل ذكائه وجده أحد القضاة الأكابر وهو فى الخامسة والثلاثين من عمره . وكان قد عرف فى طفولته صبية حسنة فى مثل سنه ومنزلته ، وكان يراها أحيانا وكانت تمتد بينهما صلات على بعد . وكلكم يعرف ما كان من أمره معها ، وما كان من الشتات والفرقة ، ومن اقترانها برجل غيره ووفاتها بعد ذلك بقليل ، وهى تشغل جزءا عظيما من كتاب دانتى ومن حياته أيضا . ويظهر لى أنه لم يحب قط غيرها إنسانا وكان حبا من صميم الأحشاء . وأن فؤاده ما برح بناجيتها - والقبر ما بينه وبينها - وينزع إليها وهى مع الله ماتت ، وزوج من امرأة أخرى ولكنه لم يسعد . وشتان ما بينه وبين السعادة !

ولسنا متوجعين لدانتى آسفين لما أصابه ، فإنه لولا تلك المصائب لما كان دانتى إلا أحد قضاة بلده ، ولخسر العالم كلمات من أبرع ما أنشد وما تغنى به . نعم لقد كان يزيد قضاة « فلورنس » واحداً ، ولكن العشرة القرون الخرس كانت تستمر على خرسها ، والعشرة القرون التالية المصغية (لأنه سيتم طبعا بعد تاريخ وفاة دانتى عشرة قرون وأكثر) تحرم تلك القصيدة الرائعة - كتاب دانتى - وتحسر لذيد مسموعها . نعم لا أسف ولا حرقة ولا حسرة ، وكيف وإنما أراد الله لذلك الشاعر حياة أشرف وأسمى . ولعلنا لا نعرف أيهما الأسعد الأهنأ - عيشته المرة الأليمة ؟ أم عيش هادئ عادى ؟ والسعادة والشقاء سر من الأسرار يعنى به البشر ، وكلهم فيه خابط عشواء وحاطب ليل .

وبينما دانتى عائش فى وطنه قائم بوظيفة القضاة ، إذ ثارت فتنة أدت إلى نفيه وسائر حزبه ، فكتب عليه منذ ذاك الشقاء والويل ، وانتزعت أملاكه وأصبح وهو :

ناء عن الأهل صفر الكف منفرد كالسيف عرى متناه عن الخل
وكان يشعر وفى حشاه جمره تتوقد ، بأن ما لقيه من أفحش الظلم وأفزع الجور ، وحاول جهده أن يرجع إلى وطنه وثروته ، ولم يدع وسيلة إلا اتخذها حتى السلاح ، ولكن عبثاً حاول ، وما زاده اجتهاده إلا خطباً على خطب ومحنة

فوق محنة فأهدر دمه ، ونودى متى قبض عليه أعدم إحراقا . هكذا وجد فى بعض الآثار . وألقى أيضا رسالة تاريخها واقع بعد هذه الحوادث بعدة سنين ، رداً من دانتى على اقتراح قدمه إليه قضاة بلده يعدونه بالعفو والعودة إلى منصبه وأملاكه ، إذا هو قبل أن يقدم معذرة وغرامة . فأجاب فى عزة وكبرياء « إذا أنا لم أرجع برىء الساحة موفور الكرامة ، فلا رجعت أبدا » .

وكذلك راح دانتى فى هذه الأرض الرحبة الفضاء بلا دار ينتقل من مضيف إلى مضيف ، ومن محل إلى محل ، منطبقا عليه قوله : آه ما أوعر المسلك وما أحشن الطريق ! » ولم يكن دانتى بالجليس الممتع ، وأنى يكون كذلك من ظل وهو كسير القلب كسيف البال ؟ كلا ولا كان دانتى صاحب الطبع الحاد والفؤاد الجاد والأحزان والأشجان يجدير أن يلهى الغير بفكاهته ويضحكهم بنادرتة ، وقد روى عنه « بترك » أنه لما كان فى بلاط الأمير « كانديلا سكاللا » وقد لامه ذلك الأمير على إطراره واكتابه وصمته ، أجابه بجواب خشن . وكان الأمير إذ ذاك وسط مجانه ومزاحه يضحكونه بغرائب النوادر ، فأقبل على دانتى يقول له : « أليس عجيبا أن نرى ذلك الماجن المسكين يجتهد ليجعل فى مقاله متاعا ولذة ، وأنت على ما بك من عقل وحكمة تطوى اليوم فالיום والشهر فالشهر مطرقا صامتا لا تفوه بكلمة يكون لنا فيها مستمتع ومستلذ ؟ » فقال دانتى : « لا عجب . أو لا تذكر المثل : إن الطيور على أشكائها تقع ؟ فمثل هذا الرجل الكبير صاحب الأجوبة المسكتات والكلمات الموجهات والصمت والإطراق ، لم يك ممن تروج بضاعتهم بأفنية الملوك . وكذلك ما زالت الأيام بدانتى حتى أفهمته أنه أصبح ولا مأوى له على ظهر الأرض ولا ملاذ ولا ملجأ ولا أمل ، وأن الدنيا قد نبذته ولفظته ليضرب فى أنحائها شريداً .

كأنما هو فى حل ومرتحل موكل بفضاء الأرض يذرعه
وإنه ليس تحت نجوم الفلك قلب ينبض رحمة له ، أو حشا يخفق وجدا
عليه ، وإنه لا نخل ولا صاحب ولا سلوة ولا عزاء .

وكذلك كلما صدت عنه الدنيا وتجاخت جرح بالطبع إلى الآخرة ، وتوجه وامتلاً خياله بصورة العالم الأبدى - ذلك العالم الحق الذى ليست هذه الدنيا وبلدانها ومناصبها ومصائبها إلا ظلاً كاذباً يرفرف عليه . وناجته نفسه : أما وطنك « فلورنس » فلست ناظراً آخر الأبد ، وأما الجحيم والجنة فسوف ترى ! وماذا وطنك والأمراء وماذا العالم والحياة ؟ تلك لا شىء ! وكذلك إذ أصبح دانتى فى الدنيا بلا مأوى جعل مأواه فى عالم الآخرة الرائع الهائل . وكذلك أصبح لا يرى حقيقة غير الآخرة ، فصارت مسرح خواطره ومراح أفكاره . والآخرة سواء حسبها الناس شيئاً معنوياً أو شيئاً حسياً فإنها ما برحت أهم أمورهم ، ولكن دانتى كان يعتقد أنها حسية تنظر بالعين وتوطأ بالقدم وتمس باليد ، وكذلك كانت عقيدة تلك العصور . فلم يشك دانتى فى أنه سيصير طبقات الجحيم وينظر بها بركة « مالبولج » كما يشك أحدكم فى أنه يبصر القسطنطينية لو أصبح على شاطئ البوسفور . فلما أفعم فؤاد دانتى من هذه الأفكار والخواطر ، وطال عليه تأملها فى سكوت ، وتدبرها فى صمت ، طفق بها إناء صدره وفاض فبرزت للعالم فى ذلك الشعر الباهر والغناء الساحر .. كتابه المسمى « القصة المقدسة » أشرف الكتب الحديثة وأشهرها .

ولقد كان من أقوى أسباب العزاء لدانتى ، بل من أعظم دواعى الفخر أنه استطاع أن يخرج ذلك الكتاب الأجل فى منقاه ومحتته ، وأنه لم يك فى طاقة « فلورنس » ولا فى قدرة أى رجل أو رجال أن يحولوا بينه وبين إتيان تلك المأثرة الكبرى والمفخرة العظمى أو يعينوه عليها . وكان يشعر بعض الشعور أنه عمل جليل كأجل ما يستطيعه امرؤ ، وكان ذلك البطل الضخم يقول فى شدة بأسائه وأزمته نكرائه إذا أمضيت عزمك ظفرت - كل من سار على الدرب وصل - وكانت مؤنة الكتابة كبيرة عليه جداً ، وكان نصبها شاقاً حتى قال : « هذا الكتاب الذى تركنى عدة أعوام فى هزال » . أجل لقد أحرز دانتى قصبات السبق بالكد والألم لا بالدعة والعبث . بل بالجد العلقى والجهد الناصب . كيف لا ؟ وإنما بدم فؤاده سطر ذلك الكتاب وخطه . وكذلك معظم

الكتب الجليلة تنقش بدماء كتابها ، والكتاب مودع سيرته جميعها . وكانت وفاته بعد أن أكسله عدة يسيرة ولما يطعن فى السن — وإنما قضى فى السادسة والخمسين من عمره ضحية الحزن والكمد .. هكذا يقال ، وهو الآن مدفون حيث لاقى منيته فى بلدة « رافينا » . ولما مر على وفاته قرن طلب أبناء وطنه الجثة من أهالى « رافينا » فأبوا كل الإباء ، وعلى قبر دانتى هذه الآية : « هأنذا — دانتى — مدفونا بعيداً عن وطنى ومسقط رأسى » .

قلت : إن قصيدة دانتى غناء ، وقد سماها « تيك » غناء لغزياً عميقاً ، وما عدا بذلك عين الحقيقة . وقد قال « كولريج » فى بعض كتاباته : إن كل جملة موسيقية التركيب . يجرى فى أثناء لفظها حلو النغم ، فلا بد من أن تكون ذات معنى جليل شريف ، لأنه ما زال أبداً بين الجسم والروح ، بين اللفظ والمعنى ألفة وشبه . والشعر القديم الجيد .. شعر هوميروس مثلاً ، كله غناء ، بل كل شعر حر غناء . وأن كل شعر لا يصلح أن يتغنى به فما هو بشعر ولكنه قطعة نثر فصلت فى لفظ طنان فيه عقوق لقواعد النحو ، وأذى ومصاب على القراء . وإذا كان فى رأس أحد الناس خاطر فما باله لا يديه فى عبارة سهلة قريبة .. أعنى فى جملة نثرية ؟ بل ما باله لا يستريح أو يخرج ملئها معقداً تطن به القافية ؟ أما أنه لا حق له قط فى النظم والغناء بالقوافى حتى تتملك فؤاده حرارة الانفعال وموسيقى الوجد ، فيصبح صوت منطقته بفضل موسيقية أفكاره وعمقها وعظمتها موسيقياً . إذن فله علينا أن ندعوه شاعراً ونصغى إليه على أنه غريد الناطقين وهزار اللافظين ، والأدعياء فى ذلك كثيرون . ولذلك كانت قراءة النظم على القارئ الأريب عملاً شاقاً إن لم نقل عملاً لا يطاق ! وما أقبح النظم الذى لم يكن هناك ضرورة إلى نظمه .. الذى كان أولى له أن يلقي إلينا معناه فى وضوح واختصار من غير تقطيع ولا رنة ولا طنين . وإننى أنصح إلى كل من أمكنه أن يقول أفكاره ألا يغنيها ، وأن يفهم أنه لا مجال فى الأحوال الجديدة وبين القوم الجادين للطنين بأفكاره والتلاعب بها ما دامت ليست مما يقذفه الجنان برغم صاحبه شعراً . وكما أن الغناء الحر يلذنا ويطربنا فكذلك الكاذب منه يؤلمنا

ويوجعنا ولا يقع منا إلا موقع الضوضاء الممقوتة المنكرة ، ولا نراه إلا كطنين الذباب أو دوى النحل .

وحسب دانتى فخراً أن أقول: إن قصته هى غناء حسن . بلى إنى لأجس الوزن الموسيقى يطرد فى جميع لفظها فكأنها نشيد من الأناشيد . ولعل لمزية اللغة الطليانية دخلا فى ذلك ، بل أرى حركة اللسان فى تلاوتها تجرى على ميزان فكأنها ضرب من الرقص . ولكن السبب الأكبر فى ذلك هو خروجها من أعماق الفؤاد ، فجوهرها ومادتها من الموسيقى . وهى بفضل عمقها وحرارتها وإخلاصها موسيقية ، وإنك ما تعمقت قط إلا أصبت الموسيقى فى كل شىء . ثم لا تنس ما بالقصة من حسن الائتلاف والتوازن والتناسب ، وهذا أيضا من جنس الموسيقى . وكأنما أركانها الثلاثة : الجحيم ومكان التطهير والجنة .. فى تواجدها الأركان الثلاثة لقصر مشيد ، وكأنها كنيسة قدسية عامة باذخة على وجهها آلة الروح والجلال والهيبة . هذا هو العالم الذى خلقه دانتى وملاه بالأرواح بين منعم ومعذب - هذا هو عالم الأرواح خلقه دانتى ؟ وهى أشد أشعار الدنيا إخلاصا ، فالإخلاص هنا أيضا مقياس الفضل . ولقد خرجت من لباب لبه فهى ما تزال تبلغ لباب ألبابنا .

أفرغت فى الزجاج من كل قلب فهى محبوبة إلى كل نفس وكان أهل فيرونا إذا بصروا به فى إحدى الطرقات قالوا . ها هو الرجل الذى كان فى جهنم ! بلى وخالق الخلق لقد كان فى جهنم .. فى جحيم الحزن والكربة والبلاء ، والقصص التى تخرج من القلوب مقدسة لا يكون مصدرها إلا الشقاء والبث واللوعة . أوليس الفكر والعمل الحرأيا كان والفضيلة العليا .. أفليست كل هذه بنات الألم ؟ فكأنها نتجت من الزوبعة السوداء . أليست مجهودا صادقا كمجهود الأسير إذ يحاول خلاصه ؟ وما زال الألم مصفاة النفوس وراوق للطباع .

وقد هذبتك الحادثات ورعا صفا الذهب الإبريز قبلك بالسبك

(الأبطال)

بلى ليخيل إلى أن شعر دانتى قد سبك فى تنور روحه ، وبودقة قلبه . ألم يتركه « مهزولا » عدة سنين ؟ وأن الدقة لتعتور قصته جميعها لم تغادر منها فقرة ولا جملة ، فتراها لذلك أصدق ما يكون وأجلى وأنصع ، وتراها متجاوبة الأقسام ينزل كل جزء من أجزائها فى موقعه كأنه حجر المرمر أنعم نحته وأجيد صقله . وهل هى إلا روح دانتى تتضمن روح القرون الوسطى قد برزت للعيون من أبدع قوالب الشعر وأعجب . وتالله ما هو بالعمل السهل وإنما أمر عظيم وخطب جلل ، ولكنه أمر نفذ وعمل أكمل .

ولعل الحدة هى مميزات دانتى ، فما هو بالرجل الواسع الصدر السمع النفس ولكنه رجل ضيق الطعن متحزب . وبعض هذا راجع إلى طبيعة العصر ، وبعضه إلى طبيعة الرجل . فترى أن ملكات دانتى وقواه الذهنية قد تجمعت وتكثفت حتى أصبحت حدة نارية ، وشعوراً عميقاً فهو ينفذ فى جسم كل شىء حتى يرسب فى قرارته . ولست والله أعرف فى الوجود شيئاً له مثل هذه الحدة . انظروا إلى تصويره الأشياء تروا أن له أقوى قوة بصرية ، فإذا نظر إلى الشىء عرف حقيقته فأداها وحده ، وتذكرون صفته لقاعة « دايت » بالبحيم إذ قال : « ذروة حمراء / حديدة محماة جمرية التوقد مخروطية ، تتوهج فى ظلمة كثيفة طخياء » ما أنصع هذا الوصف وما أئينه وما أوضحه لأول وهلة ، ثم إلى الأبد : وهذا عنوان الرجل فإن فى دانتى لأخصر إيجاز واقتضاب فى دقة وإحكام ، وإنه ليقذف بالكلمة يصيب بها كبد الحقيقة وكأنها طعنة الفارس الكمى .. ثم وراء هذه سكوت أفصح والله من القول .

والشعر لمح تكفى إشارته وليس بالهذر طولت خطبه
ما أرشق تشبيهاته وما أدقها وما أحكمها ، حتى ليخيل إلى أنه يحز فى الشىء بقلم من نار ، فيقول عن المارد المتنفخ حينما ارعوى لزجر فرجيل : « إنه كالشراع انحطم عموده بغثة فهوى » ويذكر أحد المعذبين فيقول : « بوجه مشوى » ثم انظروا ما ذكره من (الثلج النارى) المتساقط على المعذبين (ثلج نارى بلا ريح بطيء مصمم دائب لا ينى ولا ينتهى) ولا أحسب هذا التصوير

إلا قطعة من صميم عقل الرجل ، وفيه يتجلى لنا ذلك الطبع الطلياني الحاد السريع النارى الصامت الشديد القوى ، وحرركاته الوشيكة المقتضبة وثوراته الساكنة العظيمة .

لأن التصوير وإن لم يكن من القوى الظاهرية السطحية ، ولكنه خارج كسائر القوى من جوهر النفس وعنوان على الرجل جميعه ، أوجد رجلا يحسن الوصف تجد رجلا فاضلا ذا قيمة ، فإنه ما كان ليتبين حقيقة الشيء لو لم يكن فى فؤاده حب يلقيه على ذاك الشيء فيكون سببا إلى التعمق فيه وإنعام النظر .. لو لم يكن ذا جد وإخلاص . والرجل العديم الفضل لا يستطيع أن يصف لك شيئا فإنه بضعفه ولؤمه لا يمكنه أن يتعدى الظواهر ، ولا يقف إلا عند الأكاذيب والأباطيل . أو لا يمكننا القول بأن آية الذهن هو قدرته على استبانة حقائق الأشياء ؟ — استبانتها بالامتزاج بها الناشئ عن محبتها والالنجذاب نحوها . وكذلك الطبيعة لا تكشف أسرارها إلا للولوع بها الذى كله إخلاص لها وصبابة إليها . وقدما كان الحب أول هاد إلى خبايا الحقائق . الحب الصادق الصاحي الراكز على أساس العقل والحكمة لا الكاذب الثمل الطائر بأجنحة الخديعة والطيش . لأن الحب الصادق يستدعى رقة الشعور وسداده ، والشعور الرقيق المسدد هو مقلدة النفس المستجليه للغوامض المستبطنة للدخائل . ولن ترى الرجل البليد الإحساس الكليل إلا محجوبا عن أسرار الأمور لا يلبس منها سوى القشور . وهذا هو الواقع حتى فى المسائل العملية ، فالرجل الذكى الأريب هو ما أبصر من الأمر المراد إتيانه النقطة الجوهرية ، فأمسك بها وصفح عن كل ما عداها .

وليس الوضوح والاختصار والصدق والجلاء الناصع الذى كأنه وهج الحريق فى الليل البهيم ، هو كل ما يمتاز به وصف دانتى وتصويره ، بل تراه أيضا شريفا جليلا كيفما قلبته ومن أى ناحية أتيته ، ثمرة روح شريفة جليلة . انظروا إلى ما ورد بالقصة من حديث الغادة « فرانسسكا » وعاشقها — ذلك الحديث المذيب الفؤاد المفتت الأكباد تجلدوه كأنه منسوج من ألوان قزح على رقعة من السواد الأبدى ، أو كأنه صوت ناي جم التواح مبحوح الأنين يناجى حبات القلوب

باديا فيه رقة الشكوى وذلة الوهلى ورنه الثكلى . وأشجى ما فيه أن الحبيين يلقيان عذاب الجحيم معا ، فحبذا ذاك الاجتماع سلوة فى الشقاء وعزاء فى الضراء . لقد كان الشاعر صديق والد « فرانسسكا » هذه ، وربما جلست تلك الفتاة على ركة دانتى صبية بريئة من كل عيب حسناء سمحاء ، ولكنها إذا أذنت فى حياتها أبى دانتى إلا عدل الجزاء فجعلها فى جحيمه بحيث تعلمون . ولكنه شفع العقوبة بما ترون من نعمة الوصل ومنة الاجتماع بحبيها . يا لها رحمة فى قسوة ، وعفو فى شدة ، وتلك شيمة الطبيعة وما قصر عن إدراكها دانتى . وما أقبل رأى القائلين بأن كتاب دانتى لم يكن إلا هجاء فاحشا أراد أن يسىء به إلى من أعياه مؤاخذتهم والانتقام منهم . وأحسب لو أن رجلا حمل فى قلبه حنان الأم الرعوم ورأفتها فذاك هو دانتى . ولكن من لم يعرف القسوة لم يعرف الرحمة أيضا ، والذي تخاله منه رحمة هو فى الحقيقة جبن أو تصنع للرحمة قصد الافتخار . وما أعرف فى العالم رجلا أرحم من دانتى ولا أكثر حبا ، وإن بين جنبيه لحشا خفاقا ، ووجداً وإشفاقا ، وفؤادا ملتاعا ، ولها ونزاعا ، كحنين النيات والعيان لنا لينا ، أو كمهجة الطفل . ويشوب كل ذلك مرارة الحنق ووعورة البأس والعناد ! سخط على عمى الحظ وعثرة الجذ وجور القضاء ولؤم الزمن ، وصباة وحنين إلى حبيبته « بياتريس » ولقاءهما فى الجنة ، ونظره فى عينيها النجلاوين تشرفان بشعاع النور المقدس - وقربه منها .. من الغادة التى طهرتها حياض الفردوس وصفاء الأبدية . كل هذا شبيه عندى بأغاني الملائكة . ولعله أصفى ما نطق به امرؤ فى هذه الحياة الدنيا من آيات الحب الطاهر .

وأرى هذا الرجل الحاد حادا فى كل شيء ، فلقد نفذ بجدته إلى كل جوهر ولب . وما عمق نظره فى التصوير وعمق نظره فى البرهان والدليل إلا ما يعتور جميع ملكاته من الحدة . وهو فوق كل ذلك كبيرا من حيث الصلاح والتقوى وذلك أساسه وعنصره . فاحتقاره للندبة عظيم ، وأسفه على أولى البؤس والبلاء عظيم كعظمة حبه ووده . وهل الأسف والاحتقار إلا حب قلب تحول عن جهته وأحيل عن طبيعته . ويقول فى كتابه عن الجناة المجرمين حين يمر بهم فى الجحيم

: « لسنا متكلمين عنهم وحسبنا نظرة إليهم ثم نضرب صفحا » . يا له احتقار فى ترفع ونفرة فى سكوت وأنفة فى صمت وإعراض ثم قوله يذكر فئة من المعذنين : « لقد انقطع أملهم حتى من الموت » ليخيل إلى أن دانتى يعرض بنفسه فى هذه الجملة ، فلقد أتى عليه حين من الدهر كان قد يئس من الراحة حتى راحة الموت . ولعله جاءه بعد ذلك يوم برق فيه لفؤاده المكلم شجاع أمل أنه سيلقى بعد كل ذلك الجهد والمصاب والكمد راحة القبر ، وأن القضاء نفسه لا يمكنه أن يحرمه « هذه النعمة » . مثل هذه الكلمات كانت فى ذلك الرجل ، وأراه فى الحدة والشدّة والجد والعمق مقطوع القرين معدوم النظير إلا فى أنبياء بنى إسرائيل . فإذا أردت مثل كلامه فانظر فى التوراة العبرانية .

ولا أوافق قوما يفضلون الجحيم فى قصة دانتى على قسميها الآخرين ، ومرجع هذا التفضيل هو فى ظنى « بيرونية »^(١) فى الذوق والمشرب . ولعل القسم الثانى « مكان التطهير » أبرع من الجحيم وأسمى . أجل ما أشرف ذلك الجبل - جبل التطهير - فهو رمز لأشرف أفكار هذا العصر .. رمز لبراءة الإنسان بالتوبة . وإذا كانت الذنوب من ونخامة العاقبة كما تعلمون ، والجحيم من العذاب والألم كما تعهدون ، أليس جديراً أن يكون فى التوبة منجاة للمذنب وبراءة ؟ والتوبة أجل أعمال النصرانية . ثم ما أبدع ما وصفها دانتى وأبرع ، إذ قال : إنه بعد خروجه من الجحيم أبصر على مدى العين بريق أمواه تترقرق ، ولمع أمواج تهتز وتخفق فى بريق الصباح ولمع الضحى . فهذه صورة تدل على تحسن الحال ، وهذا ولا شك فجر الأمل والرجاء قد لاح ، والأمل حى لا يموت وأشد ما يكون فى الحزن ، كالشهاب أسطع ما يكون فى فحمة الديجور .

كالكوكب الدرى أخلص ضوءه حلك الدجى حتى تألق وانجلي وهناك جيل يقوم فى سفحه ويصعد فى أوعاره المذنبون التائبون وقمة الجبل فى عليين دونها باب الجنة . وماتنى أنفاس هؤلاء التائبين المستغفرين تتصاعد إلى

(١) نسبة إلى بيرون - يراد طريقة بيرون وهى كراهة العالم .

عرش الله ويقولون لدانتى حين يرونها : استغفر لنا ربك . ولا يأتلون فى ذلك الجبل صعوداً وارتقاء ومشقة وعناء ، وقد أدنى الكلال خطاهم وأنضى الكد أبدانهم وأسنوا وشاخوا فى ذلك الصعود ولما بلغوا القمة . ولكنهم مواظبون وجادون حتى يبلغوها وعندها باب الفردوس ، وبرحة من ربهم وغفران سيدخلونها خالدين . وكلما بلغ القمة واحد عم الفرح الجميع ، وترنح الجبل طرباً ووجف سروراً وهتفت الملائكة بنشيد مقلدس ! فهذا فى نظرى تصوير لمعنى شريف .

ولكن أركان القصة الثلاثة متعاونة متوازرة ولا غنى لواحدة عن الآخرين وأرى « الفردوس » أحد أركانها موسيقياً صامتاً وغناء ساكناً ، وهى المنكرة لسيئة الجحيم ، والجحيم لولاها ضرب من الباطل ، ومن الثلاثة يتألف عالم الآخرة كما كانت تمثل نصرانية القرون الوسطى ، وهو شئ جليل حر الجواهر طول الدهر . ولعله لم يتمثل فى نفس إنسان كما تمثل فى نفس دانتى ، إذ سطعت حقيقته فى ضميره ونقشت صورته على لوح خاطره كالوحى فى الحجر . وما دانتى إلا نبي أرسله الله ليبين هذه الحقيقة للناس وينقشها على جبهة الدهر . وما أغرب والله سهولة انتقاله وسرعة تخلصه فى مبدأ القصة من ذكر الحقائق العادية إلى العالم الخفى ، حتى لنجدنا بعد سبعة أبيات أو ثمانية وسط عالم الأرواح ونسير فيه كأنما نسير بين أشياء ملموسة لا ريب فيها ! وكذلك كانت فى نظر دانتى ، وما كانت الحياة الدنيا عنده إلا سبيلاً إلى حياة أخرى خير وأبقى . ولم تكن الدنيا فى نظر دانتى بأقل غرابة من الآخرة ، ولا الآخرة بأقل حقا من الدنيا . وإذا كانت الآخرة عنده هى عالم أرواح فالدنيا كذلك فى نظره عالم أرواح . أو ليس فى كل امرئ روح ؟ نعم لقد كان ذلك بينا له جلياً ، ولقد كان يعتقد وينظره ، فهو من أجل ذلك شاعره ، والإخلاص كما قلت أكبر صفات الشاعر .

وجحيم دانتى وجنته ومظهرهما إنما هما فى الحقيقة رمز وتمثيل لعقيدته فى الكون . ولعل ناقداً يقوم فيقول لنا ما قصة دانتى إلا ألعوبة شعرية وضرب من

اللهو والعبث . كلا والله إنما هي أشرف وعاء ضمن روح النصرانية وهى تمثل بأجسم رموز التمثيل ما أحسه دانتى من أن الخير والشر هما قطبا هذا الوجود اللذان عليهما مدار كل شىء . وإن الخلاف بينهما ليس هو أن الخير أفضل من الشر .. مذهب الماديين الذين يرجعون فى كل أمر إلى الحساب والوزن والمكسب والخسارة ، بل إن الخير هو الصالح فقط والفرض والواجب ، وأن الشر هو الخبيث المحرم إتيانه تحريما كليا لا مقارنة بينهما ولا قياس ولا تفضيل ، فأحدهما للآخر كالحياة للموت ، كالجنة للنار . نعم ما شعر دانتى إلا رمز لذلك ، ورمز للعدل السرمدى والتوبة والندم للنصرانية بأكملها كما كانت فى تلك القرون رمز . ولكنها فى نظر دانتى ونظر تلك الأجيال عين الحقيقة التى لا ريب فيها ولا شك ولا نزاع ، التى يعتقدونها الناس من صميم أفئدتهم . ولقد قلنا من قبل إن الناس ما كانوا قط مؤمنين بالرموز الشعرية والأقاصيص المنظومة . ولا أحسب أن أهل عصرنا هذا يحسبون قصة دانتى بمجرد قصة قصد بها الانتقام ممن أساءوا إليه وبمجرد عبث وصنعة ، فإذا رأى ذلك أهل العصور الآتية فشد ما يخطئون . وقد قلنا عن الوثنية إنها البيان الحق لما كان يجيش فى صدر المتوحش من وقع مشاهد الكون وتأثير روائعه — بيان كان فى وقته حقا صادقا ، وليس يخلو الآن من فضل وقيمة لنا . ولكن انظروا الفرق بين الوثنية والنصرانية — فرقا كبيرا لم تكن الوثنية إلا تمثيلا لظواهر الكون وأفعال الطبيعة ، وحياة الإنسان وطبائع الأشياء وتقلباتها ، وتصرفات شئونها واختلاطهما فى هذه الدنيا . وأما النصرانية فتمثل قانون الواجب الإنسانى — قانون الأخلاق والآداب . فكانت إحداهما للطبيعة الحسية بيانا عاجزا ساذجا لأفكار الإنسان الأولية ، إذ كان أهم الفضائل هى الشجاعة — الاستعلاء على الخوف . ولم تكن الأخرى للعالم الحسى بل للعالم الأخلاقى ، فإن لم يكن من الفرق سوى ذلك فأى فضل بين وارتقاء عظيم .

وهكذا وجدت القرون العشر الصامتة التى سبقت عصر دانتى صوتها فى ذلك الشاعر الكبير ولسانها ، و« القصة المقدسة » من يراع دانتى ولكنها فى

الحقيقة إملاء عشرة قرون نصرانية ، وإنما أتمتها دانتى وأكملها . وتلك ما زالت الحال . وكذلك الحداد بآلاته وأدواته وصنعتة وحذفه .. قل والله نصيبه هو فيما يأتيك به من بدائع صنعتة . وإنما معظم الفضل لجميع من سلف من واضعى الصنعة ومبتدعى أساليبها وأبوابها ، وكلهم قد صنع معه ما صنع ، وتلك هى الحال فى كل أمر . فدانتى هو لسان القرون الوسطى ، ومن خلال سطروره يلذ آذاننا صوت أفكار تلك العصور كما لو كان أعذب النغم وأشهى الغناء . ويرن فى مسامعنا موسيقيا أبديا ما دعا الله داع وما ترنم فى الأيك مسجاع . وما أفكاره تلك السامية الجميلة الرائعة إلا ثمرة ما ذكر جميع الصالحين من قبله ، ولو أفضل والله أولئك ، وهل خلا هو من الفضل ؟ أما إنه لو لم ينطق لبقى الطيب الكثير من تلكم الأفكار كامنا مكتوما — لا أقول ميتا : بل حيا صامتا .

وعلى كل حال أليس هذا الغناء اللغزى هو غناء روح من أكبر الأرواح ، وتمثيل حقيقة من أكبر الحقائق ؟ والنصرانية كما يغنيها دانتى شئء خلاف الوثنية الشمالية وخلاف النصرانية التى هدمها الإسلام بقرى الشام — وإنما هى أجل فكرة اعتقدها الناس انبرى لها ذلك الشاعر فغناها وألبسها ثوبا لا يلبه الدهر .

* أبقى على الزمن الباقي من الزمن : أليس خليقا بنا أن نفرح بذلك الكتاب ونغبط ؟ وظنى به سيقى الآلاف المؤلفة من السنين ، لأن فرقا عظيما بين ما خرج من أعماق النفس وما صدر من خوارج أجزائها . فالخارجى هو سحابة صيف ومسألة تولد مع الصبح وتموت مع المساء ، وتزول كالظلال بزوال الأهواء والأميال ، وما تزال تتلون وتشكل بتلون الصروف وتشكل الأحوال . وأما الداخلى فإنه سواء اليوم وفى غد وآخر الأبد وما يزال ذوو النفوس الحرة والقلوب البارة فى كل زمان ومكان يجدون فى دانتى هذا أخا وصديقا وخلا شفيقا لما بين روحه وأرواحهم من النسب ، وبين قلبه وقلوبهم من الصلة والسبب .

أو لم يكن نسب هناك فملؤنا ماء تحدر من غمام واحد

كيف لا ولما كانت نفوسهم ونفسه شعبا متفرعة من أصل واحد ، أصبح
الأم الذى يقدح فى نفسه كذلك فى نفوسهم ، والأمل الذى يدب فى روحه
يدب أيضا فى أرواحهم ، فقلبه وقلوبهم كالنأى والعيدان إذا حن وهتف خفقت
جوابا وأنت وأعولت . وذلكم نابليون كان يرتاح فى منفاه بسانت هيلينا إلى
قصيد هوميروس ويسر جدا بما فيه من الحق والصدق . وبين القارئ والمقروء كما
تعلمون عدد السنين ، وأقوال أنبياء الله الأقدمين ما تبرح تخالط نفوسنا لخروجها
من نفوس قائلها ، وصدور الكلام من أعماق الروح هو سر خلوده الوحيد .
ودانتى فى عمق الإخلاص كأحد هؤلاء الأنبياء ، وأقواله كأقوالهم خارجة من
القلب . ولا عجب إذا كان الله قد قضى لكتابه أن يكون أخلد شئ أخرجه
أوربا لأنه ليس أخلد من كلمة الحق شئ . وكل ما بالقارة الأوربية من كنائس
ومعابد ونحاس وحديد ومبان مشيدة وثيقة ، فمهما بلغت من المتانة والرسوخ
فهى قصيرة العمر فى جانب غناء قلبى كهذا . وظنى أنه سيقى حبيبا إلى القلوب
شهيا إلى النفوس وقد زالت جميع هذه الأشياء عن أوضاعها ، وليست محدثة
وتألفت فى تراكيب جديدة وانعدمت ذواتها وإن لم تنعدم مادتها . وإن ما
صنعت أوروبا وما أتت لكثير جدا : مدن كبيرة ودول مجيدة وعقائد وشرائع
وطوائف ، آراء وأعمال ولكنها لم تصنع من قبيل آية دانتى إلا شيئا قليلا .
وذلكم هوميروس حى للآن يخاطبكم وجها لوجه . ولكن أين دولة اليونان ؟
بادت من القرون العديدة ، وذهبت وزالت ولم يبق منها إلا كثران أنقاض إن
تسلها عن سالف مجدها لم تحر غير السكوت جوابا . حلم كان ومضى . دولة
أصبحت فى الثرى . كأنها رفات أميرها أغا ممنون ! وكذلك قد كانت
اليونان ، وهى اليوم لا تكون إلا ما نطقت .

وماذا نقول للقوم السائلين : « ما فوائد دانتى ؟ ! » إنه سؤال غريب لا
يسعنا أمامه إلا الضحك والاستغراب . حسبنا القول بأن العقل الذى أمكنه أن
ينغمس فى عنصر النغم والغناء ثم يغنى لنا من ثمت غناء حسنا ، جدير أن يكون
قد أثر أكبر الأثر فى صميم الحياة وقلب الوجود . وإنه ما زال طول الدهر ينبوع

الغذاء لما فى النفوس من جذور كل خير ومكرمة ، يغذيها بطريقة لا يهتدى إلى قياسها ووزنها علماء الاقتصاد بمقاييسهم وموازينهم ! وهل تقدر فائدة الشمس بمقدار ما تسقط عنا من نفقات الشمع والبتروول؟ والخلاصة إن دانتى أجل من أن تقدر قيمته.

وعلى العموم فما كانت الرجال وأعمالهم لتقاس بما نسميه تأثيرهم فى الدنيا — بما نراه نحن أنه تأثيرهم — تأثير ؟ فائدة ؟ نتيجة ؟ عبث كل هذا وباطل ، ليصنع كل امرئ صنعه فما ثمرته إلا حسب عناية غيره وسيثمر ثمرته . وليس يهمننا أخرجت أعماله ترفل فى حلة الملك والدولة وترن من ضجيج الحروب وصدى الوقائع بما يملأ صدور الجرائد والتواريخ التى هى جرائد مصفاة ، أم خرجت عارية من كل هذه — خفية صامته — نعم ماذا يهم ذلك ؟ ليست هذه الظواهر هى الثمرة الحقيقية . وما قيمة الملك أو الخليفة إلا ما أحسن ، وإذا كانت أعمال الملك أو الخليفة لم تعد على الناس بالخير والمنفعة فإنها كالهباء ، وما ذلك الملك إلا أكذوبة وباطل وحرص هالك وسقط متاع مهما أحدثت أعماله فى الجو من الضجة والجلبة ، ومهما قلل من مضارب السيوف وأدار من أقذاح الختوف ، ومهما قبض من الآجال والأموال ، وملك من أعنة الرجال والأحوال . هذا الملك فى الحقيقة لم يكن . ألا فلتكبروا معى دولة السكوت وعالم الصمت ! حياهما الله من عالم ودولة ! لا يريان بالحس ولا يدركان باللمس . وهما مع ذلك أنفع من الصراخ وأجدى ، وخير من الضجة وأبقى .

* * *

وكما أن الله أرسل دانتى ليصور لنا فى أشجن الغناء والنغم ديانة القرون الوسطى أو حياتها الباطنة . فكذلك أرسل شاكسبير ليصور حياتها الظاهرة الخارجية كما كانت إذ ذاك ، وما بها من مظاهر الفروسية والنجدة والمروعة ، وشتى الأهواء والمشارب والمطامع والمطامح ، والأساليب الدنيوية للتفكير والعمل والرأى . وكما أنا نبصر فى هوميروس يونان القديمة ، فكذلك سيكون شاكسبير ودانتى بعد آلاف السنين المعرض الواضح لأوروبا الحديثة تتجلى فيه دينية

ودنيوية ، نعم لئن يك دانتى أدى إلينا العقيدة أو الروح فقد أعطانا شاكسبير العمل أو البدن . وكأن الله أبى إلا أن نعطي البدن أيضا فأعطاناه على لسان شاكسبير . وكذلك لما بلغت حياة القرون الوسطى — تلك الحياة الشريفة العالية — حد الكمال ، وأذنت بالاضمحلال السريع أو البطيء كما نراها الآن في كل مكان ، أرسل شاكسبير بعينه البصيرة وصوته الرنان لينظر تلك الحياة وليتغنى بها غناء يبقى ما ترنم النسيم في الشجر ، وغرد البلبل في القمر . رجلان كفتان — دانتى عميق حاد فائر كأنه ما يجوف الأرض من النار ، وشاكسبير واسع هادئ بعيد مرمى البصر قصي مدى النظر ، كأنه الشمس نور الأرض الظاهري . أحدهما ثمرة إيطاليا ، والثاني بحمد الله ثمرة بلادنا .

وعجيب والله كيف ساقط الصدفة إلينا ذلك الرجل ؟ وظنى أن شاكسبير هذا قد كان من العظمة والسكينة والكمال والاستغناء بالنفس بحيث إنه لو لم يخرج من قريته بسبب ما أتى من سرقة الغزلان ، لكان له في عيشة القرى وسكنى الريف مقنع عن كل ما عداهما . وكان قد عاش ومات ولم تفتح أغلاق خزائنه ، ولم تكشف أسرار دفائنه ، فحرم العالم أكبر شعرائه قاطبة . نعم لولا تشرده عن وطنه لذلك الحادث لاكتفى بالغابات والسموات والريف والعيش القروي . ولكن إن كان شاكسبير هذا قد جاءنا عفواً ، ألم يجئ ذلك العصر — عصر الإصابات — أيضا عفواً كأنما من تلقاء نفسه ؟ وهكذا صروف الزمن وأحوال الدهر تقبل وتدبر وتموت وتحى وتذبل وتنضر ، كالشجرة التى جعلها الوثنيون فى الشمال رمزاً للحياة الدنيا — ولكنها تذبل وتنضر وتلقى أوراقها وتورق بقوانين أزلية ونواميس أبدية ، لا تظهر عليها ورقة إلا بميقات : لا يظهر عليها بطل إلا بميقات . عجيب والله ما بين جميع الأشياء والكائنات من الأسباب والروابط ، فما من ورقة ذابلة تعفن على ظهر الطريق إلا وهى جزء متداخل فى نظام الكائنات أجمع ، مستحيل فصله عن سائر الأجزاء . وليست كلمة أو فعلة لرجل ما إلا ومنشؤها العالم أجمع . ولا بد أن تعود بالتأثير آجسلا

أو عاجلا ظاهرا أو باطنا فى العالم أجمع . أجل ، هى شجرة « أجدر ازيل »
التي أصلها فى مملكة الموت وذرى فروعها فى الجنان !.

وعهد إليصابات هذا وشاكسبيره من بعض الوجوه ثمرة العصور السالفة —
وينسب إلى كاثوليكية القرون الوسطى . وإنما نشأت هذه الحياة الظاهرية العملية
التي تغنى بها شاكسبير من العقيدة المسيحية التي سجع بها دانتى . لأن الدين
كان إذ ذاك كما هو الآن وكما يكون فى كل آن روح العمل — كان الحقيقة
الأولى الجوهرية فى حياة البشر . ومن العجب أن ظهور شاكسبير لم يكن إلا
بعد أن نسخت اللوائح البرلمانية تلك الكاثوليكية التي شاكسبير من ثمراتها — بقدر
ما فى استطاعة تلك اللوائح أن تنسخ دينا وثيق العرى — ومع ذلك فقد ظهر
شاكسبير برغم البرلمانات ولوائحها . لقد أرسلته الطبيعة حين شاعت ولم تبال
باللوائح والبرلمانات . فإن للملوك والأميرات مذهبها وللطبيعة كذلك مذهبها .
واللوائح البرلمانية حقيرة برغم ما تحدث من الجلجلة والدوى . إذ أى لائحة أو
مناظرة كانت قادرة على إخراج شاكسبير هذا ؟ كلا ولا الولايم بالقصور ،
ولا افتتاح صحائف الاشتراك ، ولا بيع الأسهم ولا غير ذلك من الطنين الحق
أو الباطل ! إنما جاد ذلك العصر إليصاباتى بمجده وشرفه من غير ما طلائع
ولا رواد ، ولا احتفال لاستقباله ولا استعداد . وجاء معه شاكسبير منحة
الطبيعة وجائزة الدهر ، أداه إلينا الحظ فى سكوت ، فتناولناه فى سكوت . كأنما
هو شىء صغير الشأن قليل الخطر ، وإنه فى الواقع النعمة لا تقدر ، والهبة لا يحد
مقدارها ولا يحصر .

إن صفوة الأدباء فى جميع الأقطار الأوروبية ، وأعظم الفحول من النقاد
والكتاب والشعراء قد أوشكوا أن يجمعوا على أن شاكسبير سيد شعراء العالم
على الإطلاق . والحق أقول : إنى لا أعرف قط ما يقارب تلك البصيرة النافذة
والذهن القوى إذا تأملنا جميع صفاته فى أى إنسان آخر . تبارك والله تعالى عن
الشبه ذلك العمق الساكن والنفس الجذلة الصافية تراءى فى جوفها صور جميع
الأشياء مبينة واضحة كأنها البحر العميق . وقد قيل إن فى تركيب روايات

شاكسبير — فضلا عن سائر الفضائل والمزايا — آية على فهم مماثل لما جاء فى كتب بالون « النظام الجديد » « نوفام أورجنام » وهذا حق ولا غرابة فيه ، وربما كان أبين إذا نظرنا إلى الحوادث التاريخية أو الجغرافية العارية الجافة التى أحدث منها شاكسبير رواياته البارعة الرائعة ، واجتهد أحدنا أن يصنع من تلك المواد اليابسة الميتة ما صنع ذلك الشاعر الأكبر ! حجارة وأخشاب وحديد متراكم بعضها فوق بعض فى أفسد اختلاط وتشويش شاد منها ذلك الرجل قصيرا موثق الأركان ، مونق البنيان ، تتلى فى أصغر أجزائه آية الإحكام والصنعة ، حيثما ألقى البصر لم تلق إلا إتقاناً وإحساناً ، فكأنما ظهر فى الدنيا وحده بقانون أبدى فى فطرته وبناموس الطبيعة السرمدى . وما هو إلا أن ننظر إليه حتى ننسى الأنقاض المبعثرة والأخلاط المشوشة التى صاغ منها وصور ، وإن كمال تلك الصنعة التى كأنها صنعة الطبيعة نفسها لنخفى فضل الصانع وتغييه . ولنا أن نصف شاكسبير فى ذلك بأنه أكمل من كل إنسان وفوق كل امرئ بطبقات ، فإنه ليدرك كأنما بالغريزة والفطرة مقتضيات الحال ، والمواد التى يصوغ منها شعره ومقدار قوته وعلاقة ما بينها وبين تلك المواد والأحوال ، وما نظرته فى ذلك بالسرعة القصيرة ، ولا غناء فى تلك ، وإنما نظيرة طويلة جملة الشعاع غزيرة الضياء ينير إشراقها الموضوع كله — وعين ذات إبصار دائب دائم — ساج ساكن ، أو بالاختصار عقل كبير . وعسى أصبح قياس لمقدار عقل الرجل هو أن يجعله يصف لك فى قصة أمرا جليلا كان أبصره ، فتتظر أى تمثيل وصورة يقدم لك ، وأى حادثة هى فى نظره أعظم وأجل فيبرزها ، وأى أمر أدنى وأقل فيخفيه ، وما هو أحسن ابتداء واستهلال ، وأعجب تخلص وانتقال ، وماذا أبرع تقسيم وتبويب ، وأبدع تنسيق وترتيب . وكيف يكون حسن الغاية ، وجودة النهاية ؟ فإذا حملت الرجل على إبداء كل ذلك جهدت قوى نظره أشد الجهد ، وكددت أسباب عقله منتهى الكد ، إذ لا بد له أن يفهم الشئ الذى يحاوله ، ويصير الأمر الذى يزاوله ، وعلى قدر عمق النظر يكون فضل الجواب . أتراه يضع الكلام فى مواضعه ؟ ويجعل اللفظ إلى لفقه وقريبه ، والمعنى إلى شكله

ونسيه ؟ وهل أرسل روح النظام فى تلك الأنقاض المبعثرة والأحلاط المشوشة
فرد الفوضى نظاما ، والخلاف وئاماً ، وألف أعناق الشوارد ، وجمل شمل
البدائد ! وهل أمكنه أن يقول للشيء كن فيكون ؟ هل أمكنه أن يقول ليكن ثم
ضيء يحول به عالم السديم نظاما ؟ أما إنه ليستطيع ذلك لو كان الضياء فى عقله
والشعاع فى نفسه .

ومن أسباب عظمة شاكسبير أيضا براعة تصويره للأشخاص والأشياء ،
لا سيما الأشخاص . نعم لشدة ما تنجلي عظمتها فى ذلك وتستبين . ولا
أحسب أن إنسانا يمثله فى تلك القوة المخترعة الهائلة . فإذا نظر إلى الشيء لم
ينظر منه إلى ذلك الوجه أو ذاك بل إلى صميم لبه . فكان ذلك المنظور يتحلل
أمامه فى ذوب من الضياء فتتكشف له دخائل تركيبه وبواطن بنائه . نحن نسمى
ذلك إبداعا واختراعا وخلقا - خلقا شعريا وما هو - لو تأملت - إلا النظر الدقيق
المستوعب للشيء المحيط بظاهره وباطنه ، ومتى وجد ذلك النظر الثاقب المحيط
استدعى بطبيعته اللفظ اللائق فجاء من تلقاء نفسه مسرعا . ثم أما ترون فى
شاكسبير أيضا فضائل الحكمة والعظمة ، والعبرة والشجاعة ، والمروءة والصرافة ،
والحلم والعفو ، والسداد والصدق ، وتلك القوة الكبيرة والهمة العظيمة المذللة
العقبات ، الهازمة المشقات للخروج من كل قحمة عزاء ، وورطة نكراء . عظمة
ويمين الله فى سعة السموات والأرضين ، وعقل يمثل لك الحقائق كما هى لا
كما يحرفها الذهن المنحرف عن الجادة ويحورها الفكر المصدود عن القصد ،
فكأنما والله عتل شاكسبير المرآة المستوية إذا كانت أذهان غيره من الكتاب
والشعراء المرايا المقعرة الحدباء . أعنى أن شاكسبير رجل يعدل فى النظر ويسوى
فى الرأى بين جميع الأشياء والبشر - رجل كريم عادل . براعة والله وقوة ،
وجلال وعظمة من شاكسبير استيعاب بصره لجميع أصناف الرجال من هامليت
إلى أوثيلو إلى فولستاف ، إلى روميو إلى كوريلاناس ، وتأديته إياهم فى أكمل
خلقهم وصفاتهم ، والتسوية بينهم فى حبه ومعذرتهم ، وسعته إياهم جميعا بلطفه
ورحمته - حبذا هو أخو البشر وشقيق الإنسان ، وما كان ذهن باكون ليقاس

بذهن ذلك الشاعر ، فإن الأول على كماله وعظمته من طينة أدنى من طينة الثانى — طينة أرضية مادية حقيرة بالقياس إلى ذهن الشاعر الأكبر ، وإنى لا أجد لشاكسبير فى التاريخ الحديث مثيلاً قط ، وليس منذ أيامه حتى الآن من يذكرنيه إلا رجلاً واحداً هو « جيتا » فإنه أيضاً نظار إلى حقائق الأمور وجواهر الأشياء . ويمكنك أن تقول فيه ما قاله هو فى شاكسبير إذ قال : « أشخاص شاكسبير كالساعات الشفافة الوجوه — بينما تريك الساعة فى وجوهها ، إذا هى أيضاً تريك اللوالب والآلات فى ضمائرها المكشوفة وأحشائها ».

العين البصيرة ، هذه هى الكشافة لبواطن الأمور ، والكامن فى ألبابها من النظام والائتلاف — الكشافة لما أودعته الطبيعة أجواف الأشياء من الأغراض — من المعانى الموسيقية تحت تلك الظواهر الجافة الخشنة . نعم لقد أرادت الطبيعة بكل شىء مهما قبح ظاهره غرضاً هو للعين البصيرة واضح بين ، أفهل هذه الأشياء خبيثة دنيئة ؟ إنك قد تضحك من تلك الأشياء وقد تبكى ، وقد تمد بينك وبينها الصلات والأسباب كيفما كانت ، أو على الأقل يمكنك أن تصد عنها وتنصرف ، وتعرض وتنحرف ، حتى يحين أن تقتلها وتمحوها . والعقل الكبير هو أول مواهب الشاعر ، فإذا أوتى ذلك فقد صار شاعراً — شاعراً بالقول فإن لم يؤاته ذلك فشاعراً بالفعل . وكونه يكتب أو لا يكتب — ثم يكتب شعراً أو نثراً هذا أمر ثانوى يتوقف على الصدف — ربما على أدنى الصدف ، ولكن القوة التى تمكنه من أن يبصر لباب الأشياء والمودع ضمائرها من النظام (لأن لكل كائن نظاماً فى جوفه وائتلافاً موسيقياً فى ضميره ، وإلا فما كان يتماسك ويكون) ما هى بنتيجة عادات ولا صدف ، ولكنها منحة الطبيعة وأول مزايا الرجل العظيم كيفما كان . ولذلك أول ما نقول للشاعر بل لكل إنسان هو — أنظر ! فإذا عجزت عن ذلك فلا فائدة هنا لك فى استمرارك على نظم القريض وتفصيل القوافى ، ولا حاجة هناك إلى ذلك الطنين والدوى وتسمية نفسك شاعراً ، وأولى لك أن تقطع من ذلك الأمل وتنفض يدك من هذه الأمنية ، فإذا شئت ، فإن لك فى غير الشعر بحالاً ومندوحة ، فى التجارة مثلاً أو الصناعة أو الزراعة ،

وحسبك ذلك . وأنت فاضل ما أجدت صنعتك وأحسنتم عملك أيا كان ، بشرط أن يكون حلالا طيبا كريما ، ولا عار فى العمل المتقن ما لم يكن خبيثا ، والإتقان نتيجة العقل ، فالعقل هو أجل النعم كما فقدته أشد المحن .

لكل داء دواء يستطب به إلا الحماسة أعيت من يداويها
والحقيقة أن قيمة المرء بمقدار بصيرته . ولو سئلت أن أعرف الملكات
شاكسبير فقلت إرباء عقله على كل عقل لكنت قد أدركت الغاية وبلغت
النهاية . وما هى فى الحقيقة تلك الملكات التى نذكرها كأنها أشياء شتى ، كأن
للمرء ذهنا وخيالا وإدراكا مثلما له يدان ورجلان وقدمان ، وهذه غلطة مينة ،
ثم نسمع أيضا أن للمرء « طبيعة ذهنية » و « طبيعة أخلاقية » كأن هذين
شعبتان كل فى ناحية . أما إنه لا باعث على استعمال تلك الألفاظ المختلفة إلا
ضرورة النطق ، وأرانا إذ كنا لا بد ناطقين ومتخاطبين فلا مناص من استعمال
تلك الكلمات المتفرقة . ولكن لا ينبغي أن تتجمد الكلمات حتى تصير أشياء ،
فإن ذلك هو السبب إلى خطئنا فى هذا الأمر وضلالنا . وإنما يجب علينا أن لا
نزال نذكر أن هذه الأقسام ليست فى الحقيقة إلا أسماء ، وأن طبيعة المرء
الروحانية – القوة الحية الكامنة فيه – هى شىء واحد لا ينقسم ولا يتشعب ،
وأن ما نسميه خيالا وإدراكا وذهنا ومفكرة وبصيرة وغير ذلك ، إنما هى صور
مختلفة لتلك القوة البصرة ، وكلها شديد اتصال بعضها ببعض .. دليل بعضها
على بعض ، حتى لو عرفنا أحدها لأمكننا أن نعرف الباقي . وما أخلاق المرء إلا
ناحية من تلك القوة الحية التى بها يعمل وبها يكون . وكل أفعال المرء – لو
تفقهون – دليل عليه ، حتى ليتمكنك أن تعرف عن هذا الرجل كيف يكون
بلاؤه فى الحرب من لهجة حديثه وطريقة غنائه ، فإن جنبه أو إقدامه ليبدو لك
فى خلال لفظه . وما كلمة الرجل أو رأيه بأقل نغمة عن شجاعته أو خوره من
ضربته أو طعنته ، وهو هو بعينه واحد يظهر للملأ نفسا واحدة فى صور شتى .
قد يعيش الرجل من غير يدين قائما على قدميه يسعى بهما فى الأرض
ويضرب . ولكن البصيرة مستحيلة الوجود بلا خلاق ، والرجل الذى لا خلاق

له المجرد من كل أثر للخير والبر والمكرمة هو معدوم البصيرة بالمرء ، لا يرى شيئاً حق الرؤية ولا يعرف شيئاً حق المعرفة . لأن المعرفة الصادقة لشيء ما تستوجب المحبة لذلك الشيء والانعطاف نحوه ، أعنى الاتصال به الصلة الكريمة الصادقة . وإذا لم يكن من العدل بحيث لا يزال ينتصف لكل شيء من نفسه ، ويأخذ الحق منها لغيرها ، ويقمعها ويقذعها ويذلها ويقهرها ويكون من الشجاعة والمروءة والتقى بحيث يميل إلى الحق على ما فيه من عذاب ومضض ، فكيف يجد إلى العلم بالحقائق سيلاً ؟ وإنما الطبيعة وحقائقها للخيث اللئيم الخسيس كتاب مختوم ، وما يعرف مثل هذا من الطبيعة إلا قشوراً وأباطيل وخبائث مما يستخدمه في أغراض ساعته . وما مثله إلا كمثّل الثعلب ، أو ما يعرف الثعلب شيئاً من الطبيعة ؟ نعم يعرف أين توجد الأوز ! وكذلك الثعلب الآدمي وما أكثره في كل زمن وبقعة ، أترأه يعرف إلا هذا أو مثل هذا ؟ كلا بل إن اشتمام الثعلب ريح الدجاج واهتدائه إليها ، فضيلة تعلية . ولو أنه أضاع أوقاته حزينا أسفا مطرقاً يفكر في نحسه وشقائه وظلم القضاء له ، وجور الدهر واشتغال الحظ عنه بغيره من ناعمات الثعالب ذوات اليسر والرغد ، ولو لم يكن عنده جرأة وإقدام وعزم وحزم وغير ذلك من المحامد والمناقب التعلية ، لما أصاب دهره من الدجاج ولا ريشة .

فإذا قلت إذن إن شاكسبير أكبر الأذهان فقد قلت كل ما يقال عنه . على أن في ذلك الذهن الكبير مزية لعل الناس لم يدركوها بعد هو ما أسميه ذهنًا غير متعمد ، وفيه من الفضل أكثر مما يشعر به صاحبه . وقد قال نوفاليس : ما روايات شاكسبير إلا ثمرة الطبيعة ولها جلال الطبيعة وعمقها . وأرى ذلك صواباً وحقاً . فما صناعته بصناعة إنما هي وحى يتدفق به طبعه عفواً ، ويهطل به خاطره سحاً دراكاً .

ويدرك للألى ييغونه عفواً بلا مسح ولا إيساس
شيء يحصل بلا كد ولا نصب ولا جهد ولا تعب ، ينوب كدمعة المحزون
غير معتصر ، ويفيض لمنحة الجواد غير معتسر ، ويحيى كوداد الحب غير معتنف

ولا مقتسر ، ويسقط من تلقاء نفسه كالطل في السحر ، وغناء الحمام في الشجر ، أو كشذا المسك يفوح ويتشر ، وسنا البدر يلوح ويشتهر ، لا تكلف ولا تعمل ، ولا تصنع ولا تمحل ، وإنما هو نبات ينبت من جوف الطبيعة فيحترق روح ذلك الرجل ، أو صوت الطبيعة يخرج إلينا من فم ذلك الرجل . أو أن شاكسبير نأى تناوله الطبيعة فتزئم فيه بأشجى نغماتها ، وتخرج منه أشهى أصواتها . ولعل الأمم التي ستجىء بعد آلاف السنين ستجد في شاكسبير هذا معانى جديدة وبيانا لألغاز حياتهم . وإنها لنعمة الطبيعة على الرجل العظيم الصادق أن يجعله جزءا منها ، فمؤلفات هذا الرجل مهما تعمد أن يجيدها ويتقنها ، تخرج من مجاهل أعماق نفسه عفواً لا أثر فيها للصنعة والتكلف — كالدوحة نابتة من الثرى ، وكالجبال والأمواه إذ تلبس أشكالا خاصة منطبقة على قوانين الطبيعة ، موافقة لسنة الحق أيا كان . ومع ما أخرج ذلك الرجل من بدائع الآيات ، أرأيتموه يتسخط ويتشكى ويتلهف ويتشهى ؟ أعهدتموه يتألم ويتحسر ، ويتوجع ويتضجر ، أم كان خلواً من الألم والبرح والكمد والترح ؟ كلا ولكنه ستار للشجو كتوم للمصيبة ، وكم خفى فى تلك السريرة من الآلام والمحن فلم يظهر إلا ثمارها من بارع الكلم ، ورائع الحكم ، كأنها الجذور ، وكأنها الأغذية النباتية والقوى الكونية الخفية الفعل المستورة الأثر ! عظيم والله الكلام ولكن الصمت أعظم .

وعلى العموم فسكينة هذا الشاعر الجذلة الفرحة هي من جلائل الصفات . ولا أنعى على دانتي كآبته وشقوته فإنها حرب بلا ظفر ، ولكنها حرب صادقة وهي أهم المسائل وأخطر الأمور . وأرى شاكسبير يعد أعظم من دانتي من حيث إنه جاهد فظفر . ولا يخالجهكم الشك فى أنه قد كان له حظه من الهموم والأحزان ، وقسطه من القروح والأشجان ، وأغانيه تشف عما كابد من غصص الزمن ، وتجرع من مرارة المحن ، وغامس من حومة الخطب ، وكافح من غمرة الكرب . يكدح فى بحر الشقاء ويضرب ، ويطفو به ذلك العباب ويرسب ، حتى بلغ شاطئ الأمن ونجاء الله من الحين . وقد أقال الرأى من زعم أن عيش

شاكسبير كان خلواً من الأسى ، صفواً من القذى ، لم يرد منه إلا عذبا زلالا ، وفراتا سلسالا ، وأن شاكسبير لم يك إلا بلبلًا بروضة الصفاء أفنى عمره سجعًا وتثويًا ، وبلغ أجله شدواً وتطريًا ، سعيد الفال مغبوط الحال ناعم البال هادئ البلبال ، شأن البلبال والقمارى اللواتى هن :

نواعم لا يعرفن بؤس معيشة ولا دئرات الدهر كيف تدور
كلا وأبيكم ما كان امرؤ قط هكذا ، وأنى لرجل أن ينتقل من سرقة الغزلان إلى كتابة مبكيات كمبكيات شاكسبير من غير أن يكون قد ذاق الحزن ولبس الشجى ؟ بل كيف يتأتى لرجل أن يصور أمثال هامليت وكريالاناس وماكيث وغير هذه من القلوب الكبيرة المتألمة ، إلا وقد عرف قلبه الكبير الألم ؟ ثم انظروا كيف جمع بين ذلك وبين الضحك الغزير الطافح ؟ وقد تقول ولا حرج إن المبالغة عنده مقصورة على فن الفكاهة رهن بباب الضحك . وكثير فى روايات اللفظ الموجه والقول المقذع والكلم النافذ المحرق ، ولكنه عند حد ، وما كان قط ليغلو فى كراهة البشر ولكن ضحكه ينحط عليك كالسيل المنهمر . وإذا نصب من أشخاصه واحداً للفكاهة هال على رأسه ما لا يحصى من فنون المزاح والمجون وألقاب السخرية ، وما زال يتقله من الأشكال المضحكة فيما يستقصى العجب ويستنفد الاستغراب . فكأنما يضحك بماء ضلوعه وقلبه ، ثم هو ضحك صالح لا يقصد به إلا السخرية من المساكين والبؤساء والضعفاء . ولن يكون الضحك من هؤلاء ضحكا وإنما هو سفالة ولؤم ، فإن الضحك الحر الكريم من شىء ما يستلزم حبك لهذا الشىء ، وليس الضحك الكريم بمعمعة النار تحت القدر - تقهقه النار والقدر تفور وتلتهب . وضحك شاكسبير ممزوج بالرحمة حتى نحو الأغبياء والأدعياء . وهذا الضحك فى نظرى كبساط الشمس على ساحة البحر المحيط .

ولا مجال هنا للاسترسال فى وصف كل من روايات شاكسبير على حدة ، وإن كان لا يزال فى ذلك متسع للقول ومنفسح للكلام . فلو أن كل قصة من قصصه أتيح لها شارح مثل « جيتا » لكان خيرا ، وسيكون ذلك يوما ما . وقد

سمى الفيلسوف الكبير الألماني « سكليجل » رواية : هنرى الخامس وما شاكلها تاريخاً جليلاً وطنياً . وتذكرون ما قاله القائد « مارلبرا » من أنه لم يعرف من تاريخ بريطانيا إلا ما علمه من شاكسبير ، وقل فى كتبنا التاريخية لو تنظرون ما يوازي تلكم الروايات قيمة وفضلاً . وما أبدع وصفه لحرب « اجنكورت » ونعته جيش الإنكليز المكشود المنهوك . وساعة التصاف إذ توشك الحرب أن تبدئ ، تلك الساعة الجلية التى يكمن فى أنثائها النحاس والسعد ، ثم تلك الشجاعة الخالدة الذكر « معشر الرماة الذين صيغت أكفهم فى بريطانيا » ألا تجلدون فى ذلك ربح الوطنية ؟ أما فى ذلك مكذبة للرامين شاكسبير بفتور الوطنية وقلة النعرة ؟ أما تحسون قلب الشاعر الكبير ينبض فى كل حرف من مؤلفاته العديدة نبض فؤاد هادئ برىء من كل أثر للجلبة والغلواء ، كأنما صوت نبضه رنين الحديد الصلب . وظنى أن فى صدر شاكسبير هذا جرأة ليث ، وفى يمينه بطشة قسور لو أشهدته صروف الدهر ساعة الوغى .

هذا هو فلاح قرية « ستراتفورد » الذى ارتفع إلى درجة مدير تمثيل ، فكفى بذلك ذل السؤال ، والذى رmqه اللورد سواذمبتون بعين رحمته ، والذى كان السير توماس - حفظه الله - يريد إرساله إلى السجن ! إنا لم نعهده إلها كأودين إذ هو عائش وسطنا ، ولكنه رغما من ضعف إيمان الأزمان الحديثة بالأبطال ، فأى إجلال وإكبار لم يصبه شاكسبير هذا من أبناء اللسان الإنكليزى ؟ أى رجل ، بل أى مليون رجل من رجالنا لا نجعلهم فداء شاكسبير الذى هو أكبر مفاخرنا وأعظم مآثرنا ؟ - مفخرة نزهى بها على الأجانب ، وحلية يزدان بها صدر بريطانيا . انظروا ماذا يكون الجواب إذا خيرنا بين أن نترك شاكسبير أو بلاد الهند . - أن نكون لم نمتلك قط شاكسبير أو لم نمتلك قط إمبراطورية الهند - أنا أعلم أن رجال السياسة والحكومة يفضلون الهند ، ولكننا نحن لنا الحق أيضاً فى أن نختار ما نراه أفضل ، فنقول سواء حكمنا الهند أو لم نحكمها فلا غنى لنا عن شاكسبير ! ستذهب الهند يوماً ما ولكن شاكسبير لا يذهب .

بل إن لشاكسبير فضلاً عن مزية المجد والفخر . وتهذيب النفوس والأخلاق
فائدة مادية عملية وهي أنه الجامعة الكبرى والعروة الوثقى لشتى طوائف البريطان
فى أنحاء المعمورة . وسيجىء يوم تظل جزيرتنا هذه لا تعى من أبناء
بريطانيا إلا الجزء الأخس ، وسائرهم مبعثر فى نواحي الكرة مبدد فى جوانبها .
وإذا كان ذلك فما الذى يقرب بين هذى النفوس المتدايرة ، ويؤلف بين هاتيك
القلوب المتنافرة ، فيخضر بينهم الثرى ويتحلى ، ويشرق الجو بينهم ويتلأأ ،
ويصبحون بفضلله أمة واحدة ، ما ذاك الذى يكون قطباً تدور حوله مصالحهم
وأوطارهم ، وكعبة تشرئب نحوها أعناقهم وأبصارهم ؟ وماذا يقوم عمود
صلاحهم فى مستقره ونصابه ، ويستحكم رواق عزهم بأوتاده وأسبابه ؟ وماذا
يكون ذاك ؟ أبالحكومة ولائحتها ، أم بالوزارة واقتراحاتها ، أم بالسياسة
واصطلاحاتها ؟ كلا ثم كلا ! بل بشاكسبير هذا ، فهو الملك الأكبر الحاكم
على جميع طوائف الإنكليز فى سائر الأنحاء والأرجاء .

المحاضرة الرابعة

البطل فى صورة قسيس

لوثر .. البروتستانتية .. نو كس .. البيوريتانية

سيكون كلامنا اليوم عن البطل فى صورة قسيس . والقسيس فى مذهبى نوع من النبى ، إذ لا بد من أن يكون منظويا على نور الوحي . والقسيس دليل الناس فى مذاهب الدين وقائدهم فى مناهج العبادة ، والوصل بينهم وبين السر الخفى ، فهو وزيرهم الروحانى ، إذ النبى أميرهم الروحانى ، والقساوسة وزراؤه . وهو « القسيس » العارج بهم إلى السماء عن طريق الأرض ، الصاعد بهم إلى الجنان على درج الصالحات ومراقى الطيبات ومعارض الخيرات والحسنات . وهو أيضا فى اعتقادنا صوت من العوالم المستورة يترجم للناس أسرارها بعبارة أقرب إلى الأذهان وأشبه بالدتيويات من عبارة الأنبياء والرسل : يترجم أسرار السموات – أو ما سماه جيتا (السر الجلى) الذى لا يكاد يراه إنسان ، فكلنا – إلا من اصطفاه الله – إزاءه كما قيل :

يا شاهدا يرنو بعينى غائب ومشاهدا للأمر غير مشاهد

هو نبى عار من روعة جلال النبى وهول مهابته ، يشرق له فى نواحي المعيشة اليومية سراج أقل وهجا من الشهاب النبوى ، وأسكن لآء هذا ما يجب أن يكون صفة القسيس الكامل . وكلنا يعلم أن الكمال نادر ، وأنه ينبغى الكثير من التسامح والتجاوز عند الانتقال من الشروط النظرية إلى الحقائق الواقعية . فأما أن يكون قسيس مجرد من كل هذه الشروط غير محاول أن يكون كل ما وصفت ، ولا متمم وجه الفضل وأمد الكمال فذلك ما نحن منه براء ولا شأن لنا معه .

* * *

كان لوثار ونوكس قسيسين حرفة ، وقد أديا الوظيفة فى أمانة وصدق .
وأولى بنا مع ذلك أن نعدهما حسب صورتيهما التاريخية ، أعنى مصلحين .
وربما وجد فى أيام السلم من القسوس من يساوون لوثار ونوكس فى حسن
القيام بشئون الوظيفة وصدق النهوض بأعبائها - يستنزلون هدى الله على عبيده
، ويجدون بركب الفناء فى سبيل الحياة الهادئة المطمئنة . ولكن إذا جاء عصر
أوعرت فيه تلك السبيل وأوعثت ، وقامت فيها القحمة والمقات ، والموارط
والهلكات ، ودجت الخطوب وأظلمت الفتن ، وأزمت الكروب وتشنت الحن ،
فليس القسيس الذى يسير بنا فى هذه الطريق سيرة النوتى فى البحر ذى الصخور
والحجارة :

تجافى بها النوتى حتى كأنما يسير من الإشفاق فى جبل وعر
ليس الذى يساور بنا تلك القحمة ويواثب ، ويزاحم بنا هذه العوائق
ويغالب ، إلا أكبر من غيره - ولا سيما فى نظرنا نحن - وأخطر . فهو القسيس
المجاهد المقاتل لم يكن طريقه بالذلول الركوب ، ولا جرت سفينته على يم
ساكت مطمئن تحت ريح رخاء سهوة إلى مرسى الهدوء والسكينة ولكنه نزل
بأناسه سوح « ساحات » القتال فى زمن فتوق ثائرة ، وخطوب طائرة ،
وحروب دائرة ، وصروف جائرة ، وأمور باثرة ، ونفوس حائرة ، فسعد هذين
الرجلين أكبر قساوستنا من حيث إنهما أكبر مصلحينا . أو ليس كل مصلح
صادق قسيسا قبل كل شىء بطبيعته ؟ وكيف وإنه بالله يستنجد ويستغيث من
ظلم الظالمين ، وجور الجائرين ، ويعلم أن بطش الله فوق كل بطش وأن :

يد الله كانت فوق أيديكم التى أرادت بنا ما فى الظنون الكواذب
أليس هو المؤمن بالأسرار المقدسة - كاهنا يهتك ببصره الشبهات عن
حقائقها - أعنى قسيسا . وإذا لم يكن قسيسا قبل كل شىء ، فلن تراه من
الإصلاح والمصلحين فى شىء .

وكما رأينا أعظم الرجال فى مراكزهم المختلفة بينون الأديان - الأساليب
الشريفة للحياة الدنيوية - العقائد الحيوية الجديدة بأن يتغنى بها أمثال دانتى ،

والأفعال الخليفة بأن يشدو بها أمثال شاكسبير — نرى أيضا عكس ذلك : أعنى هدم هاتيك الأديان . وهو أيضا من الضرورات ، وحرى أن يكون من أعمال الأبطال ومفاخرها العظماء . وعجيب أن يكون ذلك ضروريا ولكنه فى الحقيقة ضرورى . حتى ترى نور الشاعر — ذلك النور اللين الغض يخلى مكانه لبارقات المصلح السريعة الوميض ، الطائرة الشعاع . ولا بد للكون من المصلح وليس يخلو التاريخ منه قط ، ولولا المصلحان القديس « ومينا كيس » والرجل الشديد الباس ، الصعب المراس « ثيباد أرماتس » ما ترنم دانتى ولولا ما سبق شاكسبير من أعمال الأمم ومساعى العالم من « أودين » إلى معاصره « والتر رالى » ما نطق شاكسبير . بل إن الشاعر الكامل لدليل على أن عصره قد بلغ حد الكمال ، وأنه قد أو شك أن ينتهى ويحىء عصر جديد ودولة جديدة وحال جديدة ، فلا بد إذن من أن يوجد المصلحون فيقوموا بتلك الحركة .

ولا شك أنه قد كان خيرا لنا وأجمل ، لو أمكننا أن نفلت من تلك الفتن والثورات ، ونتحامى هذه القلاقل والاضطرابات ، ونسير أبدا السير اللين الرفيق على أنغام الشعراء ، يروضنا شجى غنائهم ، وطرب حداثهم ، كما كان يفعل « أورفيس »

حيث استغفر الراسيات بلحنه أورفيس استدنى القطا الحذرات ودعا الوحوش النافرات فأقبلت خضع الرقاب نواكس الهامات وكان خيرا لنا إذ لم يؤاتنا غناء الشعراء ، لو أننا سرنا فى طريق السكينة والأمن يتولى قيادنا ويأخذ زمامنا قساوسة ذوو هدوء وسلم ، يصلحون من أحوالنا يوما فيوما . لقد كان حسبنا والله ذلك ، ولكن أبت سنة الطبيعة إلا أمورا أخرى . إذ ما برحت تقوم العقبات وتعترض العائقات فى طريق الحياة الدينية ، بل يصبح الأمر الصالح الذى كان يعد من أسباب الرقى عقبة وعائقا وقيدا لا مناص من خلعه وإطراحه ، وفى ذلك ما فيه من الجهد الجهد والمشقة . وعجيب والله كيف ترى الخطبة الدينية ، والنظرية الروحانية ، التى كانت بالأمس تشمل العالم طرا ، وتسمع الأمم جميعا ، ويرضى بها تمام الرضى ذهن

ثاقب دقيق كذهن دانتى ، تصبح اليوم حديث خرافة للقرن الحاضر ، وموضع تكذيب وإنكار ، وسخر وإصغار .. شبيهة عندهم بنظرية « أودين » . كان دانتى يرى تمثيل الحياة الدنيا وأفعال الله بالعباد بتلك النيران التى صورها فى قصته ، وتلك الأودية والجبال . ولكن لوثر لم ير ذلك ولا صوبه ، فكيف كان ذلك ؟ ولم لم تبق على مدى الأيام كاثوليكية دانتى ، حتى تذهب ويعقبها بروتستانية لوثر ؟ اللهم لا شىء يبقى !

أنا لا أحفل بمسألة ارتقاء البشر وتقدم المدنية كما يتكلم فيها علماء هذا العصر ، فإن كلامهم فى ذلك الصدد شديد الغلو كثير الخلط والخطب مضطرب مشوش ، ولكنى أقول على الرغم من ذلك إن ارتقاء النوع حقيقة لا شك فيها وبرهانها باد فى طبيعة الأشياء ، وذلك أن كل إنسان فضلا عن أنه متعلم ، فهو كذلك مخترع يتعلم بالعقل الذى وهبه الله ما صنع السلف . وبنفس هذا العقل يكشف أموراً جديدة ويبدع ويبتكر ، وليس إنسان قط يخلو من ملكة الإبداع والاختراع ، ولا رجل قط يعتقد ما كان يعتقد جده حنوك القذة بالقذة ، بل يفسح بالاكشاف مجال نظره فى الكون ، ويعد مدى رأيه فى الخلائق . والكون تعلمون عديم النهاية ، وما كان لرأى قط مهما انفسح أن يستوفيه ويستقصيه ، ويشتمل عليه ويحتويه . أقول كل امرئ يزيد رأيه فى الكون على رأى جده ، إذ يخطئ بعض ما كان يراه ذلك الجده ويراه غير منطبق على حقيقة حديثة الاكتشاف ، هذا تاريخ كل فرد ، وهو يظهر فى مجرى التاريخ العام مضاعفا أعظم تضعيف حتى يبدو فى هيئة الانقلابات الكبيرة ، والثورات الخطيرة . ولقد كان دانتى يحسب أن فى نصف الدنيا الآخر جبلا فى المحيط يطهر الله فيه أرواح المذنبين قبل إدخالها الجنة ، وهو ما وصفه فى قصته وسماه جبل التطهير . هكذا كان دانتى يعتقد . فلما ذهب كرسفور كولباس إلى ذاك النصف الآخر من الدنيا لم يجد فى بحاره ذاك الجبل الذى كان دانتى يعتقد وجوده هنالك ! أفترى الناس بعد ذلك يصدقون قول دانتى ؟ كلا ، وهذا حال سائر المعتقدات فى هذا العالم ، وحال ما ينشأ عنها من المنظمات الدينية والديوية .

فإذا أضفنا إلى ذلك الأمر المحزن ، وهو إنه إذا مرضت القلوب ووهنت العقائد ونخر الشك في عظام اليقين ، فسدت عقيب ذلك أعمال المرء ، ونجمت هنا وهناك الأغلاط والمظالم والمصائب ، ومدت الفتنة أسبابها ، وأخذت الثورة أهبتها ، وشمرت جلبابها ، وما زال من البديهي أنه لا يصدق عمل المرء حتى يصدق اعتقاده . فإذا ضعف اعتقاد الإنسان فلم يكن له من عقيدته ما هو باعث على الأعمال ، بل أصبح يجرى في جميع أمره على مذهب العرب السائد ، وسنة العادة المتبعة ، مخضعا رأيه لرأي الدنيا ، جاعلا إرادته رديفا لإرادة العالم ، وفكره جنيا لفكر الملأ ، فما هو والله إذ ذاك إلا عبد وأسير وبالحظا فيما يسند إليه خلق وجدير ، وهو أحد سواق الفتنة ، وحاداة الثورة ، يضرب عجزها ويأخذ بناصيتها إلى اليوم الموعود ، والأجل المحدود . وما من عمل يأتيه من غير صدق ولا إخلاص ناظرا إلى ظاهره الكاذب فقط ، إلا وهو إثم جديد يلد لبعض الناس جديد مصاب ومستطرف بلية ، ثم تتراكم الآثام حتى تتفجر عن الثورة انفجار البركان . وهكذا لما أصبح الناس لا يؤمنون بكاثوليكية دانتى من حيث معانيها ، ولا يقدسونها ، لما أفسد الشك والكذب والعمل المنكر الخبيث من مبانيها ، أتيح لشمها من لوثر ممزق ، ولنظامها مبد ومفرق ، وقضى ربك على العيشة الإقطاعية ، تلك العيشة المونقة البهجة التى أبدع صفتها شاكسبير أن يكون ختامها الثورة الفرنسية ، وإنما هو كما قلنا انفجار من الآثام المتراكمة كانفجار البركان ، ثم لا تستقر الأمور إلا بعد مدد طويلة من الاضطراب والقلق .

وإنه لمن البلية أن نظرنا من ذلك الأمر على جهة واحدة ، فلا نبصر فى آراء البشر ونظاماتهم إلا أنها مشتبهة ملتبسة ، وقتية رهينة بالفناء والموت ، والحقيقة غير ذلك ، إذ نجد أن الفناء هنا إنما هو فناء الثوب لا الجوهر ، والموت موت الجسم لا الروح ، . وكل إتلاف بسلاح الثورة إنما هو خلق جديد على نظام أبدع ، ونطاق أوسع ، فكانت الوثنية الأودينية شجاعة وبسالة ، وجاءت النصرانية خشوعا وضراعة ، وما الخشوع إلا ضرب من الشجاعة أشرف

وأكرم . وما من رأى جال فى صدر الإنسان جولة جد وإخلاص عن عقيدة
صدق وإيمان إلا وكان فى وقته نظرة صادقة من الإنسان فى صميم الحق ، فيها
عنصر صدق ما يزال على تجدد الأحوال جديداً ، فهو ذخراً لنا باق على كبر
الجديدين ، وتعاقب الخافقين . ثم أليس من الجور والسخف أن نرى أن جميع من
خلق الله من الأمم فى جميع الأزمان والأمكنة ، مخطئ ضال إلا نحن ؟ وأنه ليس
فى خلق الله غابراً وحاضراً من بات على هدى من ربه إلا نحن ، وأن جميع
الأمم والشعوب ضلوا وخابوا لكى نصيب ونفلح نحن — الفئة الضئيلة القليلة ،
وأن جميع تلك الأمم إنما ساروا منذ بدء الخليقة حتى الآن مسير الجنود الروسية ،
لم يك زحفهم نحو الخندق إلا ليلقوا بأنفسهم فيه فيسدوه بأجسامهم الميتة ،
فيكون لنا ثمة من جثثهم جسر نعبه عليه إلى المدينة المحاصرة فتأخذها ! وهذا
وربكم غاية الغرور ومنتهى الباطل .

وما أشد ما يتمسك الناس بهذا الباطل فيحسبون أنهم سائرون على جثث
جميع من سلف من القرون إلى أمد النصر والظفر ، ولكن ماذا عسى أن يقال إذا
هم وقعوا كذلك فى الخندق وصاروا أجساداً ميتة ؟ وكذلك أرى فى قطرة
الإنسان أنه ما برح يحسب فكره إمام الأفكار ، ورأيه خاتمة الآراء ، ويمضى على
هذه العقيدة . ولو أنصف لأبصر أن جميع من ذهب من عباد الله الصالحين ومن
حضر ، إنما هم جنود جيش واحد أدرجوا فى سلك الكتيبة تحت قيادة الله
ليقاتلوا عدواً واحداً أعنى به عالم الظلمات والباطل ، فقيم التناكر والتجاهل
والاشتغال عن جهاد العدو المشترك بقتالنا بعضنا بعضاً لمجرد اختلاف فى اللباس
والزى ؟ ألا كل الأزياء حسن ما زرت عمراه على ذى مروعة ونجدة ، ومرحبا
بالسلاح كله على اختلاف نوعه وشكله ، من العمامة العربية واليمنى المرفف
إلى معول « ثور » يضرب به الجان والمردة ، وما زجاجة لوثر فى حومة الحرب ،
والحان دانتى من البراع والقصب ، إلا عون لنا لا علينا ، وكلنا نحب ذاك القائد
وذاك اللواء !

« وبعد » فلنلق نظرة فى جهاد لوثر هذا لنعلم أى ضرب من الجهاد هو ، وكيف كان فيه بلاؤه ؟ ولوثر لا تنسوه كان من أبطالنا الروحانيين — نبيا لأمتة وزمنه .

ولعل كلمة هنا عن الوثنية على سبيل المقدمة لا تكون إلا فى مستقرها وموضعها . لقد كان من أهم خواص محمد « عليه السلام » ومما امتاز به الأنبياء عامة شدة الإنكار للوثنية ، وهو أكبر مسائل الرسل ، وعبادة الأوثان الميتة كإله هو ما لا يسكتون عنه أبداً ولا يطيقونه ، بل لا يزالون يشددون النكير عليه ويسمونهم بألدغ مياسم القذع والقذف ، وهو عندهم أس الذنوب ورأس الكبائر . وهذا جدير بالتأمل ، وكلمة « أيدول » أصلها « أيدولون » ومعناها الشيء المنظور ، أعنى العلامة أى الرمز . فليس معناها إذن إلها بل رمزا للإله ، وجدير بنا أن نشك هل كان قط إنسان — مهما بلغ انحطاطه وعماه فى رأى ذلك الصنم — أكثر من أنه رمز ؟ أنا لا أظن أن مثل ذاك الإنسان كان يحسب أن الشيء الذى صنعه يديه هو الإله ، بل كل ما يحسب هو أنه يمثل الإله ، وأن الإله كائن فيه بشكل ما . وإذا كان الأمر كذلك حق لنا أن نسأل : أليست كل عبادة أيا كانت هى عبادة بالرموز أو بالأشياء المنظورة ؟ وسواء تمثل الإله للعين الخارجية فى صورة متطورة ، أو للعين الداخلية أعنى الذهن أو للخيال ، فإنما هو فرق سطحى لا جوهرى . إذ لا تزال تبقى هذه الحقيقة وهى أن هناك شيئا ينظر — بالعين أو بالذهن — دليلا على الإله . وليس يخلو أورع الناسكين وأولع المتصوفين من الممثلات الذهنية للمسائل المقدسة وبها يعبد الله . ولولاها ما وجد إلى العبادة سبيلا : وكذلك كل العقائد والملل والنحل والتصورات المطوية على الوجدانات الدينية على هذا الحد أشياء متطورة ، ولا تسير العبادة قط إلا بالرموز — بالأوثان وعلى ذلك نقول إن كل دين وثنية ، وإنما بعضها أشد وثنية والبعض أقل .

أين إذا شرها ؟ أما إنه لا بد من أن تكون منطوية على شر كبير ، وإلا فما كانت ملاقية من إنكار الأنبياء والرسل أشده وأبلغه . أجل لماذا نرى الوثنية

بغیضة كل ذلك البغض إلى الأنبياء ممقوتة لديهم ؟ ولا أحسب أن أكبر ما أسخط نبیا على الوثنية وملاً صدره غیظاً وحنقاً ليس هو بالضبط ما كان یخطر بباله فی ذلك الصدد ویصرح به للغير ، فإن أحط وثنی من عباد الكواكب أو الأصنام كان كما رأينا ، خيراً من الحصان الذى لم یعبد شيئاً ! بل لقد كان فی عمله الحقیر هذا نوع من الفضل الخالد ، شبيه بما یحمد فی الشعراء ، أعنى إیناس الجمال الإلهی والمعنى الكبير فی النجوم وسائر الكائنات الطبیعية على الإطلاق ، فلمماذا یا ترى ینقم علیه النبی كل هذه النعمة ؟ إن أحقر وثنی عاكف على صنمه ليس إذا امتلأ صدره إيماناً بهذا الصنم ، إلا جديراً بالرحمة لا بالإبغاض وإن كان بعد أهلاً للاحتقار والمقت والاجتناب إن شئت لیمتلئ باعتقادها قلبه وليستنیر بها وعاء ذهنه الضیق المظلم ، أو بالاختصار لیؤمن بصنمه الإيمان كله یكن فی ذلك خیر له ، أو بعبارة أخرى ما هو حاضر فی ذاك الوقت من الخیر وممكن ، ثم دعه وشأنه آمناً فی سربه ماضياً على رسله .

ولكن الوثنية تصاب بعد ذلك بآفتها الكبرى ، وهى أن الإيمان بها یكون قد تطرق إليه الفساد أزمان النبوة ، ویكون الكثير من الناس قد أدركوا بعض ما أدركه النبی من أن هذا الوثن إنما هو قطعة من الخشب . وينكر النبی هذه الوثنية ، والوثنية المنكرة هى الخالية من الإخلاص والصدق لما أكلت الشكوك قلبها ونخبت الشبهات لبها ، فینما یتشبت بها الوثنى إذ یخیل إليه أنه یتشبت بطیف الخیال وأشباح الظلال . وهذا لعمری من شر البلیة وأسوأ الخنة ، ولقد قال كولریج : « إنكم لا تعتقدون وإنما تعتقدون أنكم تعتقدون » . وذلك هو الفصل الأخير من رواية الأديان والعقائد ، وآیه دنو الموت واقتراب الهلاك ، وهو شبيه بما نسجه اليوم اتباع التقالید وتقديس العادات . وليس فی طاقة الإنسان أن یأتى جنایة أفظع ، وموبقة أشنع ، ولا إثماً أفجر - وجرماً أنكر - وما هی إلا رقدة العقل وشلل النفس ، وضیاع الإخلاص والصدق ، فلا عجب إذن أن ينكر الحر ذلك ویمقته ویبرأ إلى الله منه .

ولا أجد لوثر فى أمر الأصنام وتكسيورها إلا كأي نبي من الأنبياء ، وما كان بغض محمد « عليه السلام » لآلهة قريش المصنوعة من الخشب والشمع بأكثر من كراهة لوثر لمسألة غفران ذنوب الموتى وأدواتها من الجلد والحبر كما كان يجريها بطارقة الكاثوليكية . وإنه لشأن البطل أيا كان وفى كل زمان ومكان أن يرجع إلى الحقيقة ويعتمد على الأشياء لا على ظواهر الأشياء . ويقدر حبه لحقائق الأشياء وإجلاله إياها إجلالا ناطقا يصدق به صوت الشعر ويسجح ، أو إجلالا مفعما يجيش به الجنان ويعجز عنه اللسان ، يكون مقتنه وكرهه لظواهر الأشياء مهما صقل التمويه من أطرافها ، وهذب التزييق من حواشيها ، ومهما أيدتها قريش أو عززتها قساوسة الكاثوليكية . والبروتستانتية عمل جليل جدير بفاعله أن يسمى نبيا ، وهى فى نظرى نبوة القرن السادس عشر ، وأول ضربة فى مفاصل عقيدة أصابها الدهر بداء الكذب والوثنية ، وهى تمهيد لجديد صالح مستقبل سيكون حقا ويكون مقدسا !

يظن الذى لا يدقق النظر أن من شأن البروتستانتية محوها لما نسميه عبادة الأبطال ، وجعلها أساس الخير الدينى والدينوى ترك الثقة بزعماء الدين ، وعدم الإيمان بهم . وطالما نسمع أن البروتستانتية أوقدت عصراً جديداً شديداً الخلاف لجميع ما سبقه من العصور ، « عصر الرأى الشخصى » كما يسمونه ، وإذا كانت البروتستانتية ثورانا ضد البابا ، أصبح كل فرد بابا لنفسه ، وعلم فيما علم أن من أول واجباته عدم الثقة بأى بابا أو إمام دينى ! وعلى ذلك نسمع القائلين يقولون أو لم تصبح الرابطة الدينية وكل انقياد لزعامه دينية بعد ذلك من المستحيلات ؟ أنا لا أنكر أن البروتستانتية لم تك إلا ثورة ضد أئمة الدين من بابا وبطريق وما إليهما ، كما لا أنكر أن البيوريتانية الإنكليزية التى كانت ثورة ضد الملوك والأمراء إنما هى الفصل الثانى من الرواية التى أول فصولها البروتستانتية ، وأن الفصل الثالث من هذه الرواية هو الثورة الفرنسية الهائلة التى كان من شأنها فيما يرى ويظن أنها نسخت جميع الزعامات الدينوية والدينية — الأرضية والسمائية — أو جعلت أمر نسخها قضاء لا بد من تنفيذه . والبروتستانتية هى

الجزر الذى عنه تفرع تاريخ أوربا الحديث وتشعب ، لأن الروحانيات ما برحت تنقسم فى العمليات والروحانى مبدأ العمل . وقد أصبحنا الآن وملء آذاننا صيحات « يا للمساواة » « يا للإخاء » « يا للحرية والاستقلال » : وأصبحنا ولدنا بدل الملوك أوعية أوراق الانتخابات وأصوات الانتخاب . وكأنما قد ذهب من الدنيا بتاتا طاعة الإنسان للإنسان فى الدينيات والدينيات . ولو أن الحقيقة كذلك لتناهى يأسى من الدنيا وأريقت صباية رجائى ، ولكن أرسخ عقائدى أن الأمر ليس كذلك ، ولولا الحكام أخيار الحكام - الديويون والدينيون لأصبح أمر الناس فوضى ، وشر الأمور الفوضى . ولكنى أرى البروتستانتية رغما مما أحدثت من الديمقراطية الفوضوية منشأ ملوكية حرة صادقة ، ومنشأ نظام وصلاص وإحكام ، وأراها ثورة ضد أشرار الملوك وأكاذيبهم ، وأراها الخطوة الأولى إلى إقامة أحرار الملوك بيننا وصلاصهم ، وهذا يحتاج إلى قليل من الشرح .

ولنذكر أولا أن أمر « رأى الشخصى » فى العبادة لم يك بالأمر الجديد فى العالم ، ولكنه كان فى تلك المدة جديدا ، نعم ليس فى البروتستانتية شىء جديد فى جنسه ، وإنما هى رجعة إلى الحق والجوهر بعد الإقامة على الباطل والظاهر الكاذب بشأن كل رقى وتعليم صالح . ولا أحسب إلا أن حرية رأى الشخصى ما برحت فى الناس من قديم الأزل لم يخل منها جيل من الأجيال . وما أظن أن دانتى كان قد عمد إلى عينيه فقلعهما ، ولا إلى حركات ذهنه فغلها وقيدها ، ولقد كان فى كاثوليكيته تلك حراً طليقا ، وإن أصبح قوم فى أغلالها من بعده مكبلين ، وفى أصفادها موثقين ، حرية رأى ؟ ماذا أسمع ؟ كلا والله ما كان قط فى قدرة السلاسل والأغلال ، ولا أى قوة بشرية ترغم إنسانا على الإيمان بهذا الأمر أو الكفر بذاك . وإنما رأيه فى ذلك سراج الدائم الاشتعال الذى لا يخبو إلا مع أقول كوكب حياته ، وبه يستنير ويهتدى بفضل الله وحده . إن أشقى الضالين الذى يأمر باعتقاد الأعمى والطاعة المهينة ، لا بد من أن يكون قد أقنع نفسه أولا بأنه لا حق لها فى طلب الإقناع . نعم و« رأى الشخصى » هو الذى أشار عليه بذلك كأصوب ما يؤتى . فمثل هذا الرجل حر رأى فى

ضلاله ، ولكنه حر الرأى ، وهو فوق ذلك مخلص ، وما دام فى قلب المرء إخلاص . فالرأى الشخصى جاره فى ذلك القلب وحليفه ، والرجل المخلص يعتقد بملء رأيه وبجميع ما هو مطوى عليه من النور والهدى ، بينما ترى الرجل الكاذب الذى يحاول جهده أن « يعتقد أنه يعتقد » يسلك طريقا آخر ، فلأول تقول البروتستانتية « خيرا صنعت ! » وتقول للآخر « ويل لك ! » فما هو كما ترون بالقول الجديد ولا الخطأ العذراء ، وإنما كما قلت عودة إلى جميع ما قيل من أقوال القدماء « كن حراً صادقاً كن مخلصاً » لقد كان محمد (عليه السلام) يؤمن بملء قلبه ، وكذلك كان أودين وكذلك جميع المسلمين والنصارى وصادقى الوثنيين ، لقد رأى كل فريق منهم مذهبهم الذى تبعه (برأيه الشخصى) .

وإنى لأقول ولا حرج إن الاستمرار على أعمال الرأى الشخصى لا ينتهى قط بالاستبداد الأنانى والتفرق والتقاطع ، بل ينتهى بعكس ذلك بطبيعة الحال . وليست الفوضى من نتائج البحث الحر والفحص الصادق ، ولكنها نتيجة الخطأ والكذب وضعف الإيمان . وما ثورة المرء ضد الباطل إلا ميل منه إلى ناحية الحق وجنوح إلى اللحاق بزمرة أهل الصلاح والتقوى ، فأما أهل المظاهر الكاذبة فمحال أن يكون بينهم صلة أو رابطة ، وكيف وفى جوف كل منهم فؤاد ميت لا عاطفة فيه على حقيقة شىء وإلى أمر بالحقائق لا بالأباطيل ، وإذا أقفر القلب من العاطفة على الأشياء ، أفترجو أن يكون منه على إخوانه الآدميين عاطفة ؟ كلا إنه لا يأتلف بالناس - إنه رجل فوضى ، والوحدة - أيدكم الله - والجامعة لا تكون إلا بين إخوان الصديق وأولى الإخلاص .

أما من حيث قولهم إن كل إنسان يعبد الله « برأيه الشخصى » فإن معظم الناس ليس لهم آراء شخصية ، وإنما الرأى هبة الله يهبها لأعظم الرجال . ثم لا بأس على غير العظماء أن يعتقدوا رأى العظيم ويستشعروه حتى لكانهم مبتكروه وقانصو شريدته ، ومخترعونه ونابشو دفينته ، وحسب المرء من الابتكار والاختراع ، والاكتشاف والابتداع ، أن يصح إيقانه ويصدق إيمانه . فإذا كان

ذلك ، فما ضره إن لم يكن من الرأى بمنزلة كشف خبيثته وفاض لطيمته ، ومن كان كذلك فهو الحر الصادق المخلص . بل إن له فوق ذلك من فضيلة الاكتشاف والابتكار بمقدار ما هو فاهم للرأى الذى يعتقده ويستتبطه . فإن فهمك لرأى عظيم من العظماء ضرب من الشركة مع ذلك العظيم فى إحدائه ، وكذلك لكل امرئ أن يكون متى شاء مخلصاً صادقاً ، أعنى مبتكراً بمعنى ما . بل لقد أوجد الله أمماً وشعوباً كل أفرادها مؤمن صادق ، تلك أمم الحق وشعوب الإيمان ، وقرون الصدق والصلاح ، وأعصر البر والفلاح ، أعصر مباركة وافرة الثمرات ، كثيرة الخيرات ، جمة المبرات ، إذ كل فرد يقوم على أس الحقيقة لا الباطل . فكل شجرة عمل يانعة الثمر ، وكل لقحة صنع غزيرة الدر ، وحاصل الجميع جم وافر ، بما كان كل فرد يضرب إلى ناحية واحدة ، ويؤم غرضاً بذاته وأمداً بعينه ، هذه أعصر الريح لا الخسران ، وأزمن المزيد لا النقصان .

ولد لوثر ببلدة أيزلين بمقاطعة ساكسونيا من ولايات جرمانيا لعشر خلون من شهر نوفمبر ١٤٨٣ ، وقد لبست تلك البلدة بمولده حلة فخار تبقى ما لبس النهار حلة الشمس ، وتاج مجد يدوم ما كلل البدر هامة الليل . وكانت أمه وأبوه وهو صانع فقير فى بعض معادن البقعة المسماة « موهيرا » قد ذهباً إلى سوق إيزلين الشتوى ، فأخذ السيدة المخاض فى حومة السوق وغماره ، فعادت بدار حقيرة وولدت غلاماً سمي مارتين لوثر ، عجيب والله ذلك لو تدبرتمونه . لقد ذهبت هذه المرأة « فراو لوثر » وبعلمها إلى ذاك السوق لتقضى حاجاً من البيع والشراء — علة لتبيع ثمة ما كانت نسجت من ثياب الصوف ، ولتشتري ذخيرة الشتاء لدارها الحقيرة ، ولعل فى ذاك اليوم لم يك فى طول الأرض وعرضها اثنان هما أصغر شأننا وأخمل ذكراً وأقل خطراً من ذلك العامل الفقير وزوجه .

ومع ذلك فماذا ملوك الأرض وسلاطين العالم وباباته وبطارقته فى جانب دينك الاثنين ! لقد ولد اليوم بطل جليل ، وشب لله شهاب وقاد سوف يمتد على مئات القرون المقبلة شعاعه ، فى ذلك اليوم ولد بطل أبطال سكان الأرض (الأبطال)

ارتقابه ، وخوله التاريخ اختفائه وترحابه . عجيب والله وغريب وخطير على الغرابة وكبير ! وفيه ذكرى لميلاد أقدم عصراً ، وأسمى منزلة وأرفع قدراً ، وقع منذ ألف وثمانمائة عام ، وهو حادث الصمت إزاءه أولى من الكلام ، وما عساه يقال فى مثل ذلك المقام ؟ ويزعم الناس بعد لوثر ومولده أن الأرض قد صفرت من المعجزات ، وانفضت من الآيات . كلا وأسماء الله إنما العالم غريق فى الإعجاز ، والمعجزة من نبات دياكم الثرى .

وأرى أنه كان ملائماً جداً لوظيفه لوثر فى هذا العالم ، وحكمة من الله بالغة أن ولد ذلك الرجل فقيراً وربى فقيراً كأقفر عباده ، وكان أيام تلمذته يشحذ القوت متسولاً بالغناء من دار إلى دار . وكان البؤس رفيقه ، والكرب شقيقه ، والشقاء أبداً بجاهره وجهها لوجه ، والدنيا تكاشفه الكره والعداوة لا تخادعه قط . يزخارف الباطل والكذب وبوارق الأمل الخلب ، وهكذا شب لوثر بين حقائق الأشياء المرة المضيضة لا ظواهرها الحلوة المصقولة ، غلاماً خشن الهيئة ضعيف المنة فى جوفه روح كبيرة نهمة كلها ذكاء ، وشعور شب فى ملتطم أمواج البلاء . ومصطدم أوادى الشقاء . ولكن ذلك خير مدراس له تعلم فيه سنة الحق وألف صحبة الحقائق ، وهذا واجبه فى الحياة أن يعرف الحقيقة ، ثم يرجع إليها العالم الضال بما قد طال فى الباطل لجاحه ، واشتد بالزور والكذب لهاجه ، غلام نشأ فى مهد العواصف ، وربى فى حجر القر والزمهرير ، وغذته مرضعات الهم والنكد ، وغازلته بنات البأساء والكمد ، فخرج من أحشاء وطنه خروج « ثور »^(١) من ضمير إسكاندينافيا ، وكيف وإنه ما انفك يضرب فى شياطين الإفك والزور ، وأبالسة المنكر والفجور ، كما كان يفعل « ثور » بالجان والمردة ، حتى هزم كتائب الكذب والمحال ، وكشف جنود البدع والضلال . ولعل الأمر الذى كان عليه متحول بجرى حياته هو موت صديقه « ألكسيس » بالصاعقة ، لقد كان لوثر أظهر فى زمن طفولته وصباه أشد الميل

(١) إله الرعد عند الأمم الشمالية الوثنية وقد مر ذكره .

للدروس والمذاكرة رغما من كثرات الفقر ، ورجا أبواه أن يكون له فى الرقى
قسمة فأركباه طريق الدراسة القضائية ، لأنها الطريق إذ ذاك إلى النهضة
والصعود ، فرضى لوثر بذلك رضى ككره ، واساغه مساع الشجى وأغضى منه
على القذى .

فلما كان فى التاسعة عشرة وقد شخص هو وصديق له « ألكسيس »
ليزورا أبويه فى بلدة « مانسفيلد » ثارت زوبعة ورمت بالصاعقة فأصاب
صديقه ، فإذا هو تحت قدميه ميت ، فناهج مناجى العبرة من أعماق نفسه « تبا
لهذه الدنيا وقبحا لهذا الدار ، ويا بؤس للحياة ويا رحمتا للإنسان ! ما هذه
الحياة ؟ أتزول فى لفتة الجيد ولمح البصر . وتذهب كالقمراس طوته السنة النيران
فتضيع فى مجاهل الأبد ؟ ماذا الدنيا وماذا الدول والممالك والسلطين والقياصرة ؟
كلهم فى التراب ! بينما هم رافلون ، على الأرائك متكئون . تغفر الأرض فاما
فإذا هم فى بطنها ثاؤون ، وبالعفر والرغام مكحولون ، والمدى والحجارة
موسدون ؟ بلى كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ، عزم
من ساعته على الانقطاع لله وعبادته طول عمره ، وأصبح قسيس كنيسة
القديس ، ثم أن لوثر أوجاستين بيلدة « أرفورت » برغم أبيه والكثيرين من
معارفه .

ولعل هذا أول شعاع برق فى تاريخ الرجل ولكنه شعاع وسط ظلمات ،
وقد حدث نفسه أنه كان فى تلك المدة قسيسا صالحا يجتهد لىؤدى وظيفته
ويدرك السعادة . ولكن عبثا حاول فما خف مصابه ولا قلت شقوته ، ولكن
تضاعف عليه البلاء حتى جاوز كل حد ، وما أشقاه لا من كد فى عمله ولا
نصب ، ولا من مهانة العمل وذله أتاه البلاء ، وإنما لسقوط نفسه إذ ذاك فى
أسحق مهاوى الشك والخوف - الشك فى أنه على الهدى والخوف من عذاب
الله فى الآخرة ، وقام بخاطر أنه قد دنا أجله ، وشر من ذلك أنه قد دنا عذابه
الأبدى . أليس فى ذلك دليل على خشوع الرجل وضراعه وإخلاصه ؟ لعله
جعل يقول فى نفسه « من أنت أيها المسكين حتى تدخل الجنة ؟ أنت الذى ما

عرفت إلا الشقاء والهوان ؟ كلا ذلك مقام دونه الشمس » ولم يكذب يفهم كيف أن في الصوم والتهجد وتكاليف الدين والكنيسة منجاة للمرء من النار ، فمن ثم هوت نفسه في أعتم ظلمات البؤس ، وجعل كأنما يرنح به على شفا جرف هار .

وكان عثوره على نسخة قديمة من الإنجيل في مكتبة أرفورت حسنة أكبر من حسنات الزمن ، ولم يك قط قبلها أبصر الإنجيل فلقنه درساً خلاف درس الصيام والتهجد ، وأعانه على ذلك أخ في الله قسيس ، فعلم لوثر أن المنقذ للإنسان من وهدة البلاء ليس هو نشيد الصلوات وترتيل الآيات ، وإنما هو الله ومرحمته ، وذلك أقرب إلى العقل وأوقع في الجنان . فاعتصم من رحمة الله بأوثق عروة ، وأنشأ من مغفرة الله في أرسى طود وهضبة ، ولا بدع أن جعل يقلس الإنجيل الذي أسدى إليه تلك المنة ، فأجله كما يجل مثله كلام الخالق ، وعزم على ألا يجيد عنه أصبعا . وقد كان منه ذلك حتى لقي ربه .

فكان ذلك خلاصه من أسر الشكوك والريب ، ومنجاته من مرتطم الخوف والجزع ، وانتقاله من الضلال إلى الهدى ، فازدادت نفسه من يوم إلى آخر غبطة وصفاء ، وراحة ورخاء ، وكانت النتيجة الطبيعية أنه أظهر للملأ ما كان مكتوما قبل في زوايا صدره من المواهب الإلهية ، والصفات العلية ، فأعظمه الرؤساء وبوعوه من الدرج ما هو أهله ، واكلوا به أمر البعث ، فكلما آب من رحلة كلفوه أخرى ، ثقة منهم فيه بالحزم والصدق ، ثم اختاره أمير المقاطعة « فريدريك الملقب بالعاقل » ، وكان عاقلاً عادلاً أستاذاً في جامعة « وتنبرج » فأحسن أداء ذلك العمل كما أحسن البلاء في جميع ما نيظ به من الأمور ، وجعل من يوم إلى آخر يعلو في أنظار الناس ويتغلغل في نفوسهم .

وكان في السابعة والعشرين من عمره أن رأى مدينة روما لأول مرة وكان أتاها برسالة من دير ، ولا إخال إلا أن لوثر عجب لما أبصر من حال البابا « يولوس الثاني » وسائر أحوال روما إذ ذاك ، وكان ظنه أنه قد أتى المدينة المقدسة عرش ولي الله في الأرض وإمام الناس وهاديهم سواء السبيل ، فإذا هو

بين فسق وفجور ، وغفلة وغرور ، وويل وثبور ، وبين إثم ووزر ، وبلاء وشر ، وباطل ومنكر ، وما أحسب إلا أن هذه الحالة السيئة قد بعثت خاطره في أودية الفكر وشعاب الظن ولكنها كانت هواجس لم يرفعها قلبه إلى لسانه ، ولا أسلمها وجدانه إلى ييانه ، لقد علم أنه لا يبصر أمامه هدى ولا حقاً ، ولكن ماله ولذلك ؟ وأني لرجل ضعيف مثله أن يصلح عالماً وقلب دنيا ، حقاً إن لمثل هذا العمل لإنساناً غيره أعظم قدراً . وأكبر خطراً . وحسب لوثر أن يوفقه الله إلى هداه ، ويسدد إلى خطة الحق خطاه . وبحسبه أن يقوم بواجبه في خفية وغموض ، فأما العالم فعالم الله يفعل به ما يشاء والله في خلقه شؤنون .

وكذلك ترك لوثر هذه البابوية الضالة وشأنها وعاد إلى بلاده ، نعم تركها وشأنها ولم يتعرض لها إلا بعد أن تعرضت له ، ينقض عليها ويسطو بها حتى حاجته واستشارته ، ومن أكبر فضل الله أنها حاجته واستشارته واستدعته بذلك إلى شن الغارة عليها والإيقاع بها ، إذ ماذا كانت الحال تكون وإلى أي شيء كانت تصير الأمور ، لو لم يثر لوثر ثورة الأسد المخدر في وجه ذلك المذهب الباطل فيرد عرامه ، ويقل غربه ، ويكف منه عن العالم شراً مستطيراً كان يؤذن بالويل العظيم ، والخطب الجسيم ، والتلف العميم ؟ ماذا كان يكون الأمر لو قد استمرت تلك البابوية تضرب في سنن غوايتها ، وتمعن في طريق عمايتها ، من غير أن تعرض لوثر في سبيله ، وتصادفه في منهاجه فتضطره إلى الحملة عليها ؟ إنما الواضح لي أنه لو لم يكن ذلك ما كان لوثر ليفوه بينت شفة عن مفاصد روما وموبقاتها ، وإنما يجعل الأمر في ذلك لله شيمة الرجل المتخشع المتواضع الذي لا يرى من شأنه أن يستطيل بالتسفيه على ذوى الأمر من غير أن يكون ثمة موجب أو علة ، بل يرى كما قلت . أن حسبه من التطفل بالنصيحة على الغير أن ينصح لنفسه ويغنى بها جادة الحق ومنهج السداد ، ولكن البابوية لم يكفها ما أتت في سائر الجهات والأمصار من التضليل والتغريب ، حتى هجمت على لوثر في قريته الحقيرة فسامته خطة الخسف والضميم فأبى ، وآية الرجل الشريف أنه إذا سيم الخسف قال لا يعمل فيه . وبيان ذلك أن البابا « ليو » العاشر احتاج إلى المال

وكان مبذراً متلافاً ، فابتغاه من وجه حرام وطريق ممقوت ، إذ جعل يبيع الناس عفو الله ، وعفو الله لا يحتاج إلى شفاعة بابا ولا بطريق ، وما هو بالسلعة تباع في السوق بالذهب والورق ، وإنما هي بضاعة لا ثمن لها إلا الإخلاص الصريح ، والتوبة النصوح ، ودمع المذنب يقرع وجنتيه ، وسنه يضرس سبائتيه . فإن كان لا بد من شفيع فالسيد المسيح ومحكم التنزيل ، وآيات التوراة والإنجيل ، ولكن البابا رأى الجهل فاشيا في الناس فأرسل فيهم رهبانه وقساوسته بتلك الأوراق المدلسة المرزولة ، وكان يسميها أوراق الغفران . ومع كل راهب صندوق فيقول للناس « من كان له في الجحيم صاحب أو قريب فأحب أن يغفر الله له وينقله إلى الجنة ، فلينبذ في هذا الصندوق قرشا ، فإنه لا يكاد يصل حتى يطير الروح المعذب من مثواه في النار إلى أنضر مقامات الجنة » .

ونزل أحد هؤلاء الرهبان واسمه «تنزل» على بضعة فراسخ من بلدة «وتنبرج» حيث كان لوثر ، فأصغى إليه كثير من العامة لسذاجتهم ، وبلغ من شره أن بعض القوم نبذ طاعة لوثر في كثير من أوامره اتكالا منهم على ما اشتروه من عفو الله بالدرهم المنقود ، فقدح ذلك في أحشاء لوثر ، ورأى أنه قد آن له أن يثور في وجه البابوية الكاذبة ، ولم يخش الراهب «تنزل» بل قال « إن يشأ ربي وربكم فلاصدعن مروتة ، ولأنحن أثلته » .

ثم كتب رسالة أبطل فيها عمل البابا وطعن في خطته ، وأرسل صورة منها إلى بطريق مدينة «ماجدبرج» شيخ النصرانية بألمانيا ، وعلق صورة ممضاة باسمه بياب كنيسة «وتنبرج» فهب هذا النبأ مهب الريح في كل وجهة ، وطار في أنحاء العالم الأوربي مطير البرق .

وأدبر الراهب «تنزل» فنزل بلدة فرانكفوت الواقعة على ضفة نهر «أودار» . فكتب ردوداً على أقوال لوثر ونشرها ، فتناول تلاميذ لوثر نسخة منها فأحرقوها ببلدة «وتنبرج» . وسمع البابا بذلك فقال متهكما : « لا إخال أن لوثر هذا من نوابغ العالم » واستمر لوثر يكتب الردود والمطاعن وينشرها زعماء البابوية وأنصارها ، وتقوم بينه وبينهم سوق المناظرة ، ويحمى به وبهم وطيس

الجدال فيدمغ بالحق باطلهم ، ويدفع باليقين شبهاتهم . وما زال ذلك دأبه ودأبهم حتى نفذ صبر البابا ، وذهب عنه ما أبقاه التجلد من رمتق الاحتمال والمطاوله ، فنشر لائحة كفر فيها لوثر ورماه بالخروج والزندقه ، وأمر بكتاباتاته أن تحرق ، وبه أن يرسل مكبلا في الأغلال إلى روما لعله ليحرق أيضا فيلقى من الجزاء ما لقي القسيس « هاس » من قبله ، ونعم المناظرة النار ما أنحصر وما أسرع ، وما أقرب إلى الغاية وحسم النزاع ، يا للظلم ويا للفجور ! يستدعى البابا القسيس « هاس » ويعطيه عهد الله وميثاقه ألا يمسسه بسوء ولا يناله بأذى ، ويحضر « هاس » رجلا لا مشاغبا شديدا الخصومة ، ولا مشاكسا ألد الجدال . وإنما رجلا سهل الشكيمة لين العطف سلس العنان ، فيودعونه سحنا أضيق من يياض الميم ثلاث أذرع في مثلها ، ثم يضرمون عليه نارا فيقطعون بصوارم اللهب صوتا ما رفع إلا في طاعة الله . لبئس والله ما يصنعون ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون .

أنا أحد الذين يفسحون ساحة العذر للوثر في قيامه الآن ضد البابا ، فإن ذلك البابا المترف الكافر والوثني الأنيق الثوب السائغ الطعمة ، لما أوقد ناره لحريق مکتوبات لوثر أجج بها حنقا وسعر بها غيظا وحرذا في أشجع فؤاد كان إذ ذاك في العالم - أشجع فؤاد وأضرعه الله وأشدّه تواضعا . بلى لقد استعر ذلك الفؤاد وتأجج ولات حين إطفاء . وكأني بلوثر يقول في نفسه حينذاك « أتحرق يا هذا الرجل كتاباتي هذه وما أريد بها إلا الحق والهدى ، ولم يعمد بها إلى غير الله ، وتسمى نفسك بعد ذلك إمام الناس وخليفة المسيح في الأرض ؟ أتجعل الجواب على هذه الأوراق إحراقها وما فيها إلا عظة لك وحكمة ، وتريد أن تحرق كاتبها ؟ أنت خليفة الله في أرضه ؟ كلا : أنت خليفة الشيطان ومثواك مشواه ، ودارك مغنى لإبليس وجنوده ، وعش لخفافيش العمى والجهالة ، وجحر لهوام السفه والضلالة ، وإنى لأشهد على لائحتك تلك التي أصدرتها نقمه على بالكذب والجور ، وليس لها لدى إلا النار ، ولنفعل بعد ذلك ما تشاء . » ثم إن لوثر جمع من شيعته وأنصاره مجمعا ورفعوا نارا فأحرقوا فيها لائحة البابا وأكثروا

عليها الهتاف والصياح. برأى من مدينة « وتنبرج » ، بل برأى من العالم أجمع .
لك الله أيها البابا : لبئسما صنعت إذ اسثرت من صدور الناس تلك الصيحة .
فإنها صيحة استيقاظ الأمم وانتباه العالم . لقد طالما أوغرت صدر ألمانيا حتى
ضاق ذلك الصدر بما كظم ، وحتى طفح ذاك الإناء ولم يبق فى قوس الصبر
منزع ، ولقد طال بالناس حكم الضلال ، وتراخت مدة الباطل وشاخت فيهم
دولة الزور والبهتان ، وقد آن للحق أن يميل عروشها فيهدمها .

وهل كان لوثر إلا من قبيل الأنبياء حاطمى الأصنام ، ومرجعى الناس إلى
الحقيقة بعد طول الإقامة على الضلال . وتلك وظيفة العظماء عامة ؟ أو لم يقل
محمد (عليه السلام) للناس إنما أصنامكم هذه خشب لا تضر ولا تنفع ؟ وهل
كانت مقالة لوثر للبابا إذ يقول له (ما هذه الأوراق التى تسميها أوراق العفو إلا
أكذوبة وأضلولة ، وما أنت والعفو عن الناس ؟ إنما ذلك بيد الله) إلا كمقالة
محمد ؟ لله أنت يا لوثر أى كاشف غمة ، ومنقذ أمة ، وأى مرجم شياطين ،
وسيف على رقاب الظالمين أنت ا وبأبى أنت إذ تقول ولا تبالى نيران البابا ولا
جيوش السلطان : « إنما العفو بيد الله والأمر لله وحده ، وإنما البابوية وما
يدعونه من تلك الرعاية الروحانية إفك وزور . وكيف وما أراها إلا أثوابا
مرقوشة ، وأوراقا منقوشة ، وما كانت تلك المواد الجامدة الميتة لتكون زعامة
دينية ، ورعاية روحانية ، إنما هى حقيقة رائعة ، وما دين الله وفردوسه وجحيمه
بأباطيل كتلك ولا أكاذيب ، فبهذا وحده ، أو من وبه اعتصم ، وعليه أقوم ،
وفيه أضرب أوتادى ، وأرسى أطوادى ، وإنى إذ أفعل ذلك لأقوى منكم جميعا ،
وعصمة الله أمتع للمؤمن من جميع ما تشيدونه من القلاع والمعازل ، وبأس الله
من بأسكم أشد ، وكيده من كيدكم أقوى ، وأنا وأنتم بنصر الله كما قيل :

كادوا وكدت فأزهقت ما دبروا إحدى هنالك أيما إزهاق

أنا فى وحدتى بهدى الله قوى ، وأنتم فى جموعكم بالضلال والكذب
ضعاف ، أنا من طاعة الله مدجج فى أكمل سلاح وأحصن جنة ، وأنتم من
معصية الله فى أسمال رثاث وأطمار رعايل ، منكشفو العورات حاسرو المقاتل ،

وأنا من تقوى الله على صخرة أصلها تحت الثرى وفرعها فى السماء ، وأنتم فى باطلكم كالمتكئ على الهواء ، والمعتمد على الماء .

ثم جاء بعد ذلك حفلة « ورمز » وظهور لوثر هنالك . ولعل هذا كان أجل مشهد فى تاريخ أوربا ، والمنبع الذى منه فاض تاريخ المدنية الحديثة ، والذى كان من أمر هذه الحفلة أن إمبراطور ألمانيا شارل الخامس لما أعيته الحيل فى لوثر ولم تنفعه فيه المناقشات والمجادلات ، وكان قد عقد الحفلة للنظر فى شئون الولايات ، استدعى لوثر ليعرف ما عنده ولينتهى معه عند حال ، وكان المجلس حافلاً بجميع الوجوه والأشراف وأمراء الدولة والولاة وزعماء الدين والملك ، وإلى هذا الجمع الحاشد استدعى لوثر من قرينته ليسأل ألا يزال مصراً على رأيه ؟ فيجيب نعم أو لا ، خصمان متواجهان ، وقرنان متبارزان ، أحدهما : قوة العالم وزهرة الدنيا وجيوش الأرض ، وثانيهما : رجل فرد نجل الصانع المسكين « هانز لوثر » قائماً فى نصرة الحق . وقد نصح إليه الإخوان ألا يذهب ، وذكره بنياً القسيس « هاس » ليكون فيه عبرة ومزدجر ، فأغلق دون كلامهم أذنيه ومضى على عزيمته فى الذهاب وصمم ، وقال (تالله لأذهبن ولو أن بمدينة « ورمز » من الشياطين بقدر ما بها من الحصى) ، وجعل الناس يصيحون به من نوافذ الدور وشرفاتها وهو سائر الغداة إلى الحفلة ، أن أقم على مبدئك وتشبث برأيك ومذهبك ، وإياك والانخدال والهزيمة . وجعلوا يتمثلون له آية من الإنجيل فى ذلك المعنى ، ذلك ما طلبه إليه أهل وطنه ، وهل هو فى الحقيقة إلا طلب العالم أجمع — طلب العالم الذى جهده أغلال الباطل ، وشفته ظلمات الضلال ، وأخذ بكظمه شيطان الجهل حتى بلغت الروح التراقى — طلب العالم يصيح بلوثر : أغثنا أدر كنا يا بطل الأبطال ، فإن مدار أمرنا عليك ، وأرواحنا فى يديك .

ولم يخذلهم لوثر ولا خيب فيه آمالهم ، وقام فى المجلس خطيباً فتكلم ساعتين كلاماً سداه الحكمة ولحمته الإخلاص والصدق ، أبان فيه أنه يدعى للحق وليس لغيره يدعى ، وأن كتاباته بعضها من إملاء ضميره وبعضها مستمد من كتاب الله ، فأما ما كان من بنات خاطره فذاك ملئ بالعيب والخطأ بما أنه كلام بشر ،

وأما ما كان مأخوذاً من قول الله فأساسه الحق وليس يبرأ منه أبد الدهر . ثم سألهم أن يناضلوه بالحجة والدليل فإذا دحضوا حجته زال لهم عنها وصار إلى ما يحبون . إلى أن قال : « أنا لا أنحالف ما يأمرني به العقل والنهي ، ويوحى إلى به صوت الحق من زوايا الضمير والنفس . ذلك ما فى وسعى وطاقتي وليس لى عنه محيد ولا دونه مذهب ، وعلى الله أتوكل وهو حسبي ونعم الوكيل . ألا ترون أيها الإخوان أن هذه كانت أخطر ساعة فى التاريخ الحديث ، وأن عليها قامت دعائم الدستور الإنكليزى وبرلماناته ، والحرية الأمريكية واستقلالها ، والثورة الفرنسية ونتائجها فى أنحاء الأرض ؟ نعم فى هذه الساعة غرست جذور تلك الحوادث الكبرى والمسائل العظمى ، ولو سلك لوثر فى تلك الساعة خطوة أخرى لكان لها عواقب أخرى ، وكأنما العالم الأوربى كان ساعتئذ مائلاً أمام لوثر يسأله هذا السؤال : أترى لا أزال فى محنة وبلاء يهوى بى النحس إلى مساقط الجهل والشقاء ؟ أم يرزقنى الله من ذلك الداء الشفاء ، ولظلمة الباطل من نور اليقين الجلاء ، فأغتبط بمناعم الراحة والصفاء بعد مخايب العيشة الكدراء ؟

ومما يمدح به لوثر أنه أنار فى وجه الدين ثورته ، وأحدث ذلك الانقلاب العظيم من غير أن يهيج زوابع الفتنة أو يسعر نيران الهيجاء : بل حقن الدماء فى الأبدان ، والسيوف فى الأجفان ، ولم يحول اليراع حساماً ، والقراطيس أعلاماً ، ولا استبدل من صرير القلم فى الطروس ، سليل السيف فى الرعوس ، ولا من التناضل بالأقوال ، التناضل بالنبال ، ولا جعل الكلوم^(١) موضع الكلام ، والجلاذ بدل الجدال والخصام . وقلمنا نجد رجلاً أحدث أمراً جليلاً وهاج حركة هائلة إلا غاله مما أحدث غائلات . والتهمة مما أثار محن جائحات ، وهذه من مستلزمات الفتن والفتوق ، ومستدعيات كل خروج عن الأوضاع المألوفة ومروق . وإنما وفق لوثر إلى ذلك بفضل ما أوتيته من الحزم والبصيرة ، والحزم رأس بوارع الخصال ، وكرائم الخلال ، وداعية الصلاح ، وسائقة الفلاح .

(١) الكلوم جمع كلم وهو الجرح .

ومن أكرم ما امتاز به لوثر فضيلة التسامح ، وبها كان يميز الأمر الأساسى الجوهرى من غيره . فجاءه ذات يوم عن بعض قسوس المذهب الجديد أنه يعظ الناس فى قلنسوته (وكانت هذه سنة المذهب الكاثوليكي ومخالفة لمبادئ الملة الجديدة) فلم يعبأ لوثر بتلك الشكوى بل قال : « وأى ضرر فى القلنسوة ؟ دعوه يلبس قلنسوة أو ثلاثاً إذا شاء » .

وقد ذكر « ريشتر » لوثر فقال : لقد كانت كل كلمة من كلماته كموقعة حرية ، وما أخطأ فى قوله ، ولعل أهم صفات لوثر هو أنه كان يستطيع أن يحارب فيقهر ، ويقا تل فينتصر ، وإنه كان قطعة من الشجاعة ، وفلذة من المروءة ، ولا نعلم قط فى التاريخ الحديث والغابر إنساناً أشجع قلباً من لوثر ، ولما قال فى مدينة « ورمز » كلمته الماثورة وهى : « ولو أن فى « ورمز » من الشياطين عدد ما بها من الحصى لما حفلتها » لم تك لمجرد الافتخار والته كما يكون فى مثل تلك المواطن ، ولكنه كان عن عقيدة صحيحة بأن هنالك شياطين يعترضون عباد الله فى مسالكهم بالشر والأذى ، ومن يذهب إلى الغرفة التى كان يكتب فيها لوثر ترجمته للإنجيل ير على أحد حيطانها بقعة سوداء — إثر موقعة كانت له مع شيطان من الجن ، وأصل ذلك أن لوثر كان جالساً فى تلك الغرفة يكتب ترجمة الإنجيل وكان قد نهكه الكد ، وأعياه الجهد ، وبلغ منه المرض والصوم ، وكان من أثر ذلك أن تراءى له شبح مبهم الشكل مخوف الهيئة فحسبه إبليس أتاه ليقعده عن عمله ، فثار لوثر ثورة جبار ، وأخذ الدواة فرمى بها الخيال فإذا هو قد املس . وأثر الدواة فى الحائط باق إلى الآن آية دليلاً على أمور شتى ، وأن فى قدرة أى تلميذ بمدارس الطب أن يكشف لنا القناع عن هذه الحادثة ، ويحل لنا مشكلها ، ولكن اعتقاد لوثر أن الشبح القائم أمامه هو إبليس ، ثم نهضته فى وجه إبليس وقذفه إياه بالدواة دليل على منتهى الشجاعة وأقصى غايات البأس والنجدة . ومن كان لا يهاب شياطين الجحيم وأبالسة جهنم ، فهو أحرى ألا يهاب ملوك الأرض وجبابرتها ، وقد كتب مرة العبارة الآتية : (الشيطان يعلم أن عملى هذا ليس بنتيجة رهبة ولا مخافة ، فلقد طالما رأيت

الشياطين وناذتها . والدوق جورج لا يعادل شيطاناً واحداً ، وأين هو من سطوة الشياطين ؟ فليعلم هذا الدوق أنى لو شئت أن أدخل بلدة « ليزيج » لدخلتها قسراً وعنوة وجست خلالها ، ولو أن سمائها تمطر أمثلة من الدوقات تسعة أيام ولاء) ، لك الله يا لوثر ! أى طوفان وسيل من الدوقات تريد أن تقتحم ا .

وشد ما يخطئ الذين يحسبون أن شجاعة هذا الرجل كانت ضرباً من البطش والفتك ، وصنفا من العناء والعصيان والخشونة والعجرفة ، وما أبعداها عن ذلك . وأنا لا أنكر أن هناك ضرباً من قلة الخوف مصدره قلة العطف أو قلة التفكير ، وربما كان منشؤه وجود البغضاء والحقن الأعمى ، كشجاعة النمر . وهل ترون لشجاعة النمر قيمة ؟ أما لوثر فكان غير ذلك بته ، ولم أر تهمة أكذب من نسبة الفتك والقسوة إليه وكيف ؟ وما كان قلبه قط مجالا لغير الحب والرحمة شأن كل فؤاد ذى مروءة وبر ، والنمر إن صادف قرنا أشد منه بطشا فر هاربا ، فما هذه بشجاعة وإنما فتك وقسوة . ولست أعلم شيئا أرق وألطف مما كان يصدر عن فؤاد لوثر من أنفاس المودة والعطف . تلك التى كانت أرق من أنفاس العاشق فى الحجر ، وأنفاس النسيم فى السحر ، لله ما كان أرق هاتيك الأنفاس ، وأعنى بها كلمات الرجل ، وما كان أصفاه وأخلصها من شوائب الرياء والكلفة ، وأشبهها بالعذب الزلال تتفجر به الصخرة الملساء . وهل كانت كآبته وإطراقه ويأسه مدة صباه إلا بعض آثار التفكير والاتعاظ والعبرة مما يكون عادة فى القلوب الرقيقة ، والنفوس الجديدة الشعور الذكية الوجدان ؟ وهى حالة يصاب بها ذوو الرقة من الشعراء ، وقد أصيب بها الشاعر المسكين وليم كوبر ، بل لقد بلغ من رقة لوثر وتواضعه أنه كان يحسبه الناظر غير المدقق رجلا ضعيفا هيابة ، وعندى أن أكرم الشجاعة وأسمائها ، بل أشدها وأقواها ، هى المنبعثة من فؤاد كله لين ورأفة .

وكم لنا فى كتاب لوثر المسمى « حديث المائدة » ذلك الذى جمعه أصحابه بعد وفاته من أقواله وكلماته من الآيات البيّنات الدالة على عظمة الرجل وفضله .

فمن ذلك ما أبداه عند وفاة حفيده له من جلد فى رقة ، وصبر فى حرقه ، وقوله أنه استودع الصبية عند الله ، ولكنه لا يملك مع ذلك جداً عليها قد أوقد لوعته ، وهاج غلته ، وكمداً والتياغا ، وحنينا ونزاعا . ثم جعل وهو مشدوه (مدهوش) حائر ، ينظر فى أعقاب روحها الصاعدة إلى الله قد غابت فى أثناء تلك العوالم المجهولة وراء حجب الموت ، - ينظر دهشاً حائراً وحسبكم ذلك دليلاً على صدق الرجل وإخلاصه وعلمه . إنه رغما من اختلاف الملل واقتراق النحل فإننا معشر الآدميين لا نعلم شيئاً ولن نعلم ، وكل ما يدرك إزاء حادث الموت الذى انحزم حفيدته هو أنها ستصبح عند الله ، وأن الله أرأف بها وأرحم ، وأن خير الأمور أن يسلم الأمر لله ، فالإسلام دينه ومذهبه .

ومن آيات عظمتة أنه أطل من من نافذته مرة فى جوف الليل فقال فى نفسه : « عجباً لهذه القبة الزرقاء ، وهذا الفلك الدوار ، وهذا السحاب الركام ، يا الله ما أروع وما أجل ! على أى دعامة تقوم هذه السماء ؟ لا دعامة إلا قوة الله سبحانه رفع السموات بغير عمد ، وأمطر من السماء ماء فأخرج به نباتاً ، وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها » . ولما كان عائداً ذات يوم إلى داره أعجبه رواء مغارس القمح فقال : ما أبهج منظرها صفراء تميل فوق خضراء كأنها حقائق الذهب على قضبان الزبرجد ، بركة تفتطرت عنها أحشاء الأرض ونعمة سلتها يد الله من أغمداد الثرى .

ومن آياته أيضاً : أبصر ذات مساء عصفوراً قد خيم فى وكره على شجرة بأحد البساتين ، فقال : عجباً لهذا العصفور ما راعه هول ما فوقه من هذى السموات أن يطمئن فى عشه آمن السرب ، ساكن القلب ، مفوضاً أمره للخالق الذى مهد له فى جنبه ووطأ له فى كنفه . هذا وما زالت شذور المزاح تفصل نظام حكمه ، وما برحت نكت الفكاهة تزين دياجته كلمه ، وكذلك من كان قلبه أمين النواحي رقيق الحواشى ، غزير مادة الحنان والحب ، وقدما كان الضحك الصريح عنوان الكرم والخير ، وأمارة المروءة والبر . ثم أما ترون فى حبه الشديد للموسيقى جملة تفاصيل هذه الأميال الكريمة ، وجمع تفاريق هذه

النزعات العالية ؟ وكم من معنى لطيف يعبأ به البيان ، ووجدان شريف يعجز عن تأديته اللسان ، أداه إلينا لسان مزماره ، وباحت به مناطق أوتاره . وكان يقول إن الشياطين لتفر من نغماته ، وتقعد عند وجود ألحانه ونبراته . فله أنت أيها البطل من جامع الضدين ، ومؤلف النقيضين ، بأس تسطو به على الجن وأبالستها ، ورقة جذبت بلبك نحو الأنغام ومطرباتها ، والألحان ومرقصاتها . إنهما والله قطبان لروحك العظيمة ، وبين هذين القطبين مجال لكل كريمة من الخصال ، ومضطرب لكل شريفة من الخلال .

وأرى في وجه لوثر عنواناً على خلقه ، فهو وجه نحشن الملامح تعرف في تنوء عظامه ووعورة أركانه معاني البأس والقوة ، والنشاط والهمة ، وفي العينين حزن في صبر ، ووجد في نسكينة ، وكآبة لا تكيف ، ورنه لا توصف ، وتلك أصل كل عاطفة رقيقة ، ومنها يستفيد ذلك الوجه ما يرى فيه من سيماء الشرف والنبيل ، وقد قلنا إن الضحك كان مغروسا في طينة الرجل ، ولكن تلك الطينة كانت فوق ذلك مسقية بالدموع نهلا ، وكأن فيها ينابيع الدمع وبحاره ، وخلجه وأنهاره ، وكان أساس حياته الحزن والجهد والإخلاص والجد . ولقد قال في أخريات عمره بعد مظافره وانتصاراته إنه قد مل البقاء وسئم تكاليف الحياة ، وأن له عند الله أمنية هي أن يريحه من متاعب الوجود ويقبضه إليه . ومن عابه بكلمته هذه وأعداها عليه فقد أخطأ ! وما أحسب إلا أن لوثر كان رجلا كبيرا - كبير القلب كبير العقل كبير النفس - رجل من خيرة رجالنا وصفوتهم ، ولا أراه إلا كا-نيل الأشم ، أصم الصخور صلد الصفا ، وفي نقره وثغبانه الزلال ، العذب السلسال ، وعلى جوانبه الرياض تبتسم نضارة ، وترف بهجة وغضارة ، إلى زهر وريحان ، وفاكهة ألوان . وقصارى القول إنه بطل ونبي ، ونتيج الطبيعة وسليل الحقيقة ، والجدير أن يحمد الله عليه هذه الأجيال ، ومن سوف يدرج على هذه الأرض من غابر الناس ويدب .

ثم إن مذهب لوثر تفرق شعبا فأكرم شعبه وأطيب فروعه ، ذلك الذي نبت في إنكلترا أعنى الملة البيوريتانية . فأما في جرمانيا ذاتها فإن البروتستانتية ،

أخذت تضحل حتى تحولت عن منزلة الأديان إلى مواطن الجدل والمخاصمة ، وزالت عن القلب إلى اللسان ، وعن العقيدة إلى الحجة والبرهان ، بل ما زال بها الاضمحلال حتى صارت فولتيرية ، وانتهت إلى تلك المباحثات الجلية التي كانت أيام الثورة الفرنسية ، أما في بلادنا « بريطانيا » فقد أخذت البروتستانتية صورة أخرى هي البيوريتانية ، ثم غولى بالبيوريتانية حتى صارت الملة المسماة (البريزباتيرانية) وهي الكنيسة القومية لأهالى اسكوتلاندة ، وهي ملة حق صريحة ، وعقيدة محضة صادقة مغرسها القلب ، وثمارها جمّة فى أنحاء العالم البريطانى ، وحقيق بنا أن نذكر كلمة عن مؤسس هذه الملة الإمام « نوكس » ذلك الشجاع النبيل ، وقبل ذلك نذكر كلمة عن البيوريتانية ومعناها البروتستانتية فى إنكلترا ، ومنها نشأت البريزباتيرانية - مذهب القسيس نوكس .

فى عام ١٩٢٥ رحل القسيس الإنكليزى وليم تيندال إلى بلدة لوثر « وتبرج » منجذباً إليها بشهرة ذلك البطل الكبير وخطورة مذهبه . وكان القسيس تيندال شديد التدين والتقى ناقماً على الكاثوليكية ، فرحب بمذهب لوثر أى ترحيب . وكان قبل رحلته إلى جرمانيا بطويل قال لأحد القسوس الجدلين : (إن يطل الله مدتى لأترك ركن راعى الغنم وهو أعلم بكتاب الله منك) ، ولما ذهب إلى بلدة لوثر وجدها محط الرحال وملتقى الرجال ، قد ازدحمت بالقاصدين من كل صوب وحذب وجلهم من الطلبة ، فقد أخلصوا لله وتفانوا فى حبه فلم يكن لحالهم تلك مثل إلا حالة الصليبيين ، ولا لبلدة لوثر شبيهاً إلا مدينة بيت المقدس ، وكانوا إذا دنوا من البلدة هتفوا بحمد الله وصاحوا غبطة وسروراً ، وهنالك ترجم تيندال الإنجيل وأرسل ستة آلاف نسخة منه إلى إنكلترا . ولم يك هذا الكتاب قاصراً على ترجمة الإنجيل بل كان بما ضمن من أقوال لوثر كأنه قطعة من الحركة اللوثرية ، فقابلته الكنيسة الإنكليزية بأشد المقت والإنكار ، وأمرت بعدد كبير من نسخته أن تحرق فأحرقت فى مدافن كنيسة سانت بول بعين الوزير ولزى . ولكن ذلك لم يمنع أرباب المذهب الجديد من تهريب العدد الوفير من تلك النسخ ، ومن الرسائل المهيجة التى كان يكتبها لوثر وأنصاره إلى الأقطار

الإنكليزية ونشرها بين طبقات الفقراء من العمال والصناع والباعة ، وكان المتولى لذلك جمعية اسمها « الإخوان النصارى » مؤلفة من بعض تجار لندن وأهلها مركزها لندن ، ولكن رسلها تنتشر فى سائر البقاع البريطانية ، فوجدت هذه النسخ سبيلها إلى الجامعتين « كامبرج وأكسفورد » حيث كانت النهضة العلمية قد فتحت عيون القرائح إلى المسائل الدينية ، وبعثت الطلبة على الاشتغال بالمناظرات الفقهية والإلهية ، وكانت كامبرج قد رميت بالزندقة وسرت منها العدوى إلى أختها أكسفورد ، وكان من أمر ذلك الهياج الذى أعقب انتشار النسخ المذكورة ما ألجأ الوزير ولزى إلى مؤاخذه الهائجين ، فزج قسوس أكسفورد فى السجن وأحرقت كتبهم . ولكن ولزى لم يتجاوز فى عقابهم ذلك الحد رغماً مما ملكهم من الذعر والفرق ، وإنما صبرفته شئون السياسة عن مسائل الدين .

وكان لانتشار الإنجيل بين سكان بريطانيا من التغير الأخلاقى ما لم يسبق له مثال فى تاريخ البشر ، إذ أصبحت إنكلترا أمة كتاب — وهذا الكتاب هو الإنجيل ، نعم أصبح الإنجيل كتاب كل إنكليزى يتلى فى الكنائس وفى المساكن ، وحيثما وقعت كلماته قرعت آذاناً لم تخلقها كثرة الإعادة ، ولا بلدها طول التكرار ، فحركت من النفوس ما حركت وهزت من كل جنان أريجته ، وهاجت من كل قلب غيرته فى الله وصبوته ، وحب الأمة للإنجيل راجع إلى علة خلاف السبب الدينى ، وذلك أنه كاد يكون أول كتاب أدبى نظر فيه الشعب الإنكليزى وتنزه فى رياضه وجنانه ، وجنى أزهاره وثمراته ، ولم يك قبل ترجمة الإنجيل لدى الإنكليز من أسفار الأدب إلا ما كان كتبه « ويكيليف » وكاد أن ينسى ، وإلا ما نظمه الشاعر « تشوسار » وكان لا يعرفه إلا الأقلون ، نعم لم يوجد قبل ترجمة الإنجيل فى اللسان الإنكليزى تاريخ قط ولا رواية ولا قصة ولا شعر إلا منظومات تشوسار ، فلا غرو أن أصبح الشعب الإنكليزى يرهف الآذان لاستماع عبارات الإنجيل فيجد أبهج مستمتع فيما بذلك الكتاب المقدس من الروايات والقصص ، وأغانى الحرب وأناشيد الدعاء ، والتراجم

والسير ، ومواعظ الرسل ومزاجر الأنبياء ، وحكايات الأسفار البرية والأخطار البحرية ، وجولات القسوس فى بلاد الوثنية ، وفى المناظرات الفلسفية وتصورات الكهنة ، فقد كان إذ ذاك نهضتان — علمية أحدثها ظهور دفائن العلوم القديمة اليونانية — ودينية أحدثها كشف خبايا الآيات العبرانية ، والثانية أبعد أشواطاً وأمد أنفاساً ، وأعمق جذوراً وأطول أغراساً ، من حيث إنها نهضة شملت الخاص والعام ، فى حين انحصار الأولى فى دوائر العلية المتأدين . وذلك أنه لما لم يك فى طاقة الترجمة أن تنقل إلى الإنكليزية براعات اللسان اليونانى ، تركت عرائس ذلك اللسان مخبوءة فى خدورها فلم يستطع استجلاءها إلا الواقفون على أسرار اليونانية وهم قليل . ولكن الآيات العبرانية كانت أسمع ما يكون قياداً فى عنان الترجمة ، حتى أصبحت فى ثوب الإنكليزية مثلها فى حلتها العبرانية حسناً وبهاءً ، وبهجة ورواء ، بل أصبحت أشرف ما لدينا من تحف اليراع الإنكليزى وأكرم نفائسه ، وأسلوبها ميزان الأساليب فى الإنشاء ، ونظامها معيار النظم فى الكتابة ، بل إن أثره أبقى فى نفوسهم ككتاب أدبى ، وإذا تذكرنا ما هو مبثوث فى عرض كلامنا العادى من كلمات كبار مؤلفينا — أعنى تلك الشذور التى تسربت إلى أحاديثنا من دواوين شاكسبير وملتون وصحائف دكتر وثكرى ، أدركنا كيف كان اللسان الإنكليزى فى تلك الأوقات يأخذ من ترجمة الإنجيل زخارفه وحليه .

وأعظم من أثر الإنجيل فى الأدب ولغة المحاررة ، أثره فى أخلاق القوم ، لقد كان الإنجيل يفعل بالألباب إذ ذاك ما تفعله الآن الجرائد الدينية والمقالات والرسائل والمحاضرات والخطب والمواعظ ، وكان من أثره أنه بدل آراء الجمهور فيما يتعلق بمسائل الحياة وأحوال الإنسان ، وبعث فى جسم كل طبقة من طبقات الأمة روحاً جديدة أخلاقية وأخرى دينية ، ونفض الدين صبغته على الكتابة ، فما من رسالة تصدر إلا وبها عرق زانح بالورع والتقوى . وهكذا خلفت الكتابات الدينية فى ذاك الوقت ما كان يشغل العصر السابق من مترجمات الآداب الطليانية واللاتينية ، وقد قال جروشاس وذكر إنكلترا : « وأصبحت

السيادة فيها للدين » ، وقصارى القول إن البلاد أمست وهى كنيسة كبيرة ،
ومسألة الموت وما وراء الموت تلك المعضلة التى اعتاضت على ذوى الألباب
وأولى النهى فى عصر شاكسبير ، فما عرفوا لها حلا ، عادت الآن نصب عين
الفلاح والتاجر يطالب نفسه بحلها ، ولم تك البيوريتانية فى أول أمرها تقشفاً
وتعصبا ، ولم تتعد إلى ملاهى أربابها وملاذهم فتلغيها وتبطلها ، وإنما كان
البيوريتانى فى أول الأمر كما قيل :

فله منى جانب لا أضيعه وللهم منى والخلاعة جانب

فمن أدلة ذلك أن إحدى السيدات لما صورت زوجها القائد هاتشنسون
وكان بيوريتانيا ، وجهت جل عنايتها إلى إبراز جماله كما كان أيام صباه . ولو
كان أمر التقشف والورع أمكن فى نفوسهم إذ ذاك من أمر الزخرف والزينة ،
لكان لها مندوحة عن فعلها ذاك ، ولكن السيدة مالت إلى إبداء ثغره الواضح ،
كالآلئ النسق والأقاح ، وجبين كأنه المصباح ، أو فلق الإصباح ، ولمة حالكة
مدلّمة ، فهى كما قيل :

وجاء بها ثور ترف كأنها سلاسل برق لينها وانسكابها

هذا وقد كان السيد المذكور مع حسن تدينه وصحة تقواه مولعا بالصيد
والقنص ، مغرما بالمسابقة والرقص ، كلفا بالفنون الجميلة ، ما تزال تستخفه
قصيدة وتستفزه صورة ، وتستتيه نغمة وتطيه دمية ، وكان ربما نزل بستانه
فسقى وعل ، وغرس واستأصل ، وأصلح وشذب ، ونقح وهذب .

وكان البيوريتانى بعد عزوفا عن الفحشاء والمنكر ، قد صرف صботاته عن
الحرام ، وعدل بصباياته عن مراتع الوخامة والوبال ، إلى مقامات الشرف
والكمال ، فكان أبا رحىما ، وخلا حمىما ، وزوجا شقيقا ، وأخا رقيقا ، ولم
يك قط فى فتنة النساء ما يحرك شهوته ، بل كان غضيض الجفن عن كل ما
يريب ، شامس العطف عن المغريات ، تجده الفتنة بأصعب مرام وأوعر ملتمس ،
عفيف النفس عفيف الطرف طيب معقد الإزار ، يقف من النساء عند محاسن
الحديث والسمر ، ويقنع منهن بشهوة السمع دون البصر .

وكان البيوريتانى حسن القصد فى أموره ، قليل السرف يياكر شؤونه ،
والبركة فى البكور ، لا ونية عنده ولا فتور ، مشمراً من ذيله ، منكمشا فى
عمله ، وكان أحسن ما وفق إليه من المحامد فضيلة المساواة . وذلك أن إخوانهم
فى الله أنساهم ما كان قبل راسخا فى نفوسهم من تفاوت الدرجات وتفاضل
المقامات ، حتى كان أحقر فلاح يعتقد أن الله قد شرفه وقدمه ، وحتى صار
أكبر الوجوه والأعيان يوقر مساكين الأبرار ، وصعاليك الأتقياء الأخيار ، ولكن
إفراطهم ذلك فى حب الفضيلة والتقوى وإن عاد بالقوة على أخلاقهم ، فإنه ضيق
دائرة رحمتهم وفهمهم ، وقد ظهر أثر ذلك فى الشاعر الكبير البيوريتانى ملتون —
فى احتشامه وانقباضه واحتقاره لآراء الغوغاء « كما كان يسميهم » وعزوفه
عما يحيط به من أساليب الحياة الغليظة الخشنة ، بل لقد كان على فرط حبه
شاكسير لا يظهر ارتياحا إلى مجون ذلك الشاعر الأكبر ومزاحه ، وإذا كانت
هذه حال ملتون وهو يعد سيد شعراء عصره وعصارة قومه ، فكيف كانت
الحال مع من هم أقل أدبا وعلماً ، وأجهد قريحة وأكثر فهماً ؟ نعم لقد آل ذلك
التشدد فى التدين والإفراط فى التورع بهؤلاء القوم إلى أجهد أساليب الحياة ،
وأمرها وأكرهها وأبعدها من الألفة وحسن العشرة ، وأصبح البيوريتانى وليست
الرابطه بينه وبين الغير هى رابطه الإنسانية ، ولكن نسب التورع والتدين بين
طائفة المتدينين المتورعين أصفياء الله وأوليائه . وكل من خرج عن دائرة هؤلاء
الأبرار المصطفين فليس منهم ولا هم منه ، وإنما هم منه أبرياء . وإن نفور
البيوريتانيين من المخالفين لمذهبهم هو السبب فيما نرى من الخلاف الشديد بين
رقة قلوبهم وبين غلظة ما قد يأتون من وحشى الفعال . وهذا كروميل نراه بينما
قد آدمى حشاه موت ابنه حتى حرمة الغبطة والسرور بانتصاره الباهر فى واقعة
« بطحاء مارستون » فعاد من المعترك فائزاً كخائب وظافراً كمنهزم — تراه مع
ذلك يهش وييش لدن يوقع إمضاءه على الأمر الصادر بإعدام الملك « شارل
الأول » وما ذلك إلا لاعتقاده أن ذلك الأمير المتكود الحظ من المعشر الضالين ،
وليس هو لغلظ فى كبده أو فظاظه فى طبعه ، وكان من تفانيهم فى الله أن

ماتت فيهم فضيلة التسامح والتساهل حتى فى أصغر الأشياء . وهكذا تحولت
حقائر الأمور فى حرارة التدين ووهج الغيرة جسائهم وعظائم ، وأصبح أحدهم
يؤلمه من رؤية فطيرة العيد أو كعكته ما يؤلمه من رؤية الخبائث والمفاسق ، وباتت
الحياة وهى عبء من الأعباء ، وسخرة نحالية من اللذة ، وكلفة قفر من البهجة ،
وقام بدل مباحج العهد الإليصاباتى ومفارحه ، ومأنسه وممارحه ، مرارة
البيوريتانية وجدها ، وعبوسها واربدادها .

ولقد كان البيوريتانى مصابا فوق كل ذلك بمخافة عذاب النار وهول
القيامة ، ويقضى الكثير من وقته نهب هاتيك الوسائس ، وتلك الهواجس .
وكان فى شدة حرصهم على الورع والتقوى ما يخيّل إليهم أن حياة الناس العادية
نوع من الإثم والخطيئة . ولقد قال أحد كبار البيوريتانية أوليفار كرومويل :
« لشد ما غويت وضللت أيام الشباب » وما أدراك ما هذا الضلال وما تلك
الغواية ؟ هى أنه كان يباشر الطيب الحلال من ملاهى الشباب ولذاته . ويعوز
ركانة حلم الكهل ورزانة عقل الشيخ ، ولا بأس على الشاب فى ألا يكون
كذلك .. ثم انظر إلى جون باتيان صاحب الكتاب الجليل « سيرة الحاج »
كيف حدث عن نفسه فقال : « لما كنت صبيا فى التاسعة من عمرى كانت
تحضرنى خواطر الموت وهواجس النار والحشر والجنة وما أشبه ذلك ، فكانت
مبعث رعب لى ومثار قلق وكرب ، تعزىنى أثناء لعبى مع الصبية عظة من الله
وزجرة ، ولكنى كنت أهملها وآبى إلا إقامة على ذنوبى ومآثمى » . أفترى
ما هى تلك الذنوب التى أبى إلا الإقامة عليها ؟ هى نوع من لعب الأطفال
وصنف من الرقص ، فأما عيبه الحقيقى وهو الإكثار من الحلف ، فقد كان أقلع
عنه عملا بنصيحة عجوز رأت منه ذلك فأنكرته . وكان له ولوع شديد
بسماع الأجراس تقرر ، وكان يحسب ذلك مآثما فكان لا يزال يذهب إلى
موضع تلك الأجراس من الكنيسة فيقف تحتها وهى تقرر ، حتى يخيّل إليه أن
الله سيرميه بأحدها فيفر هاربا ، وانصرف حيناً عن الرقص والألعاب ثم عاد
إليها ، وفى ذلك يقول : « لقد صرفتنى عظة رجل من القسوس عن الألعاب ،

ثم ما لبثت أن استهوتني بلذاتها ، فإني ذات يوم لألاعب قطتي وقد لطمتها لطمه وهممت أن ألطمها الثانية ، وإذا بصوت من السماء قد نفذ إلى صميم قلبي وكأنما يقول : أيهما تفضل ، وتختار : ترك الذنوب ونعيم الجنة ؟ أم الإقامة عليها وعذاب النار ؟ فأصابتنى لذلك دهشة ، وأطلقت القطه ورفعت طرفي إلى السماء ، وكأنما رأيت بعين ذهني السيد المسيح ينظر إلي كالغاضب على ، وكأنه يتهددني بعقوبة صارمة إن أنا لم أقلع عن تلك الذنوب والآثام .

وكذلك كانت البيوريتانية مزيجاً من النقص والفضل ، وخليطاً من السخف والنبيل ، ولنا أن نذم من تلك الملة عيوبها ما شئنا ، ولكنه لا يسعنا مع ذلك إلا الاعتراف بأنه لا يزال فيها ولن يزال جوهر من الحق . وهي بعد غرس غرسته الطبيعة ، وما إن تزال تنفقده فهو ينمو ثم ينمو . وطالما قلت إن الحياة معترك فما فاز فيها وظفر فهو حق ، وما خاب وانهمز فهو باطل ، فالقوة مقياس الفضل . نخذ مثلاً عظمة أمريكا الحالية ، وانظر ماذا كان أصلها ومنشؤها ؟ الله يعلم أن منشأها لم يك إلا فئة ضعيفة بيوريتانية من أهالي هولاندة أضربهم جور السلطان وشفهم ظلم الحكومة ، فخرجوا من ديارهم وهاجروا منذ قرنين إلى أمريكا في تلك السفينة الصغيرة المسماة زهرة الربيع ! ولو كان لنا خيال اليونان وشاعرهم لقلنا في ذلك الحادث المذكور القصيد المخبر ، ولكن حسبنا أن الطبيعة كتبت في هذا الحادث المذكور قصيدتها الغراء بحروف الحقائق الناصعة على صفحة العالم ، ولقد كان بأمريكا قبل تلك الفئة البيوريتانية جماعة من النزلاء مبعثرون هنا وهناك ، ولكنهم لم يكونوا إلا كجسم ميت . فلما نزلت تلك الفئة فيهم كانت كأنها الروح دبّت في الجثة الهامدة فأحيتها ، نعم لقد ضاقت بهؤلاء القوم بلادهم فعزموا على انتجاع أمريكا ، وما أدراك ماذا كانت أمريكا إذ ذاك ؟ غابات خضر وآجام سود مسدودة عذراء لم تفتزعها قدم ولا فتحت أغلاقها يدان ، مستبهمة المعالم طامسة الأعلام ، وأمم همج وحشية . ولكن هذا كله أخف وطأة من الحكومات الظالمة والملوك الغاشمة ، وقد علموا أنه مهما يكن من صعوبة جانب الطبيعة هنالك ، فإن في الرياضة ما يذلل أنفها ، ريلين عطفها ،

ويستغزرها ، ويستدر خيرها . وأنهم سيجدون من الأرض وطاء ، ومن السماء غطاء ، ثم تطمئن بهم النوى ويستقرون فى حيث تنام عنهم الحادثات وتلهو صروف الدهر ، فيقضون أعمارهم بالعبادة والتقوى ، ويتزودون من دنياهم لآخرتهم . ولما صحت منهم النيات على ذلك وصدقت العزائم ، أخذوا عددهم وشحنوا أمتعتهم واستأجروا مركباً .. السفينة المسماة زهرة الربيع - واستقبلوا بها عباب اليم .

ولما نزلوا السفينة أقاموا بها شعائر الوداع والتشجيع على صورة دينية ، ولا غرو فقد كان عملهم هذا دينياً - وإن تشأ فقل ضرباً من الصلاة والعبادة ، فصحبهم قسيسهم إلى جوف السفينة ، وشيعهم كذلك إخوانهم الباقيون بعدهم ، وابتهلوا جميعاً إلى رازق النسر فى السماء والحوث فى بطن الماء ، أن ينظر إليهم بعين عنايته ، ويسقيهم من صوب نعمته ، ويظلمهم بجناح رعايته ، ويكون لهم فى بلاد الغرب وديار الوحشة حرزاً منيعاً ، وروضاً مريعاً ، وكنا دفيئاً ، ووثاراً وطيباً . نعم لقد كان لهذه الفئة البيوريتانية شأن كبير ، وقد جعل الله على أيديهم نفاذ أمر من أجل أموره ، وإن كان قدرهم إذ ذاك لم يك إلا صغيراً فأول النار شرر ، وأول الغيث قطر ، وكل شىء حق ، فمهما ضؤل وضعف فسيريكه الدهر يوماً ما ضخماً جسيماً .

مثل الهلال بدا فلم يبرح به صوغ الليالى فيه حتى أقمرا والبيوريتانية وإن سخر منها الناس سلقاً فلا يستطيعون أن يسخروا منها الآن ، وكيف وقد أخذت عددها ولبست سلاحها ، وحملت الخدق واللباقة فى أصابعها العشر ، والبطش والقوة فى قوائمها الأربع ، وأصبح فى وسعها نزف البحار ، ونسف الجبال ، وتسخير البخار ، وتسيير الجوار المنشآت كالأعلام ، فهى الآن من أشد قوى العالم .

ولست أرى فى تاريخ اسكوتلاندة عصراً جديراً بالذكر إلا ذلك الذى حدثت فيه بيوريتانية « نو كس » وما ظنك ببلاد قفر لا تغيتها المشاحنات من أهلها والمشاغبات والفتن والمذابح - ناس فى أدنى حضيض الغلظة والسقوط

أحسن بقليل من أهالى أيرلندة الحاليين - طوائف من جياع الأمراء والسادة أبى عليهم جهلهم وحقاقتهم أن يعرفوا كيف يتقاسمون فيما بينهم تلك الغنائم التى سلبوها جماعة فقرائهم وعمالهم ، ولكنهم كالجُمهوريات الكولومبية الحالية لا يستطيعون أن يحدثوا تغييراً حتى يحدثوا معه ثورة عامة ، ولا يجدون إلى تبديل وزارة سييلا إلا شفق أفراد تلك الوزارة ، أشجاعة هذه ؟ نعم ولكنها شجاعة متوحشين لا تمتاز عن شجاعة آبائنا الأول الوثنيين من سكان الشمال ، أولئك الذين لا نجد فى مآثرهم الوحشية ومساعدتهم الدموية شيئاً يذكر . أجل لقد استمرت اسكوتلاندة جسماً بلا روح حتى نفخ الله فيها من نهضة « نو كس » روحاً ، فأصبح كل فرد بها برا صالحاً تقياً . وإن تشأ فقل بطلا ورسولاً نبياً .

ومما يقال فى مدح هذا الرجل أنه لم يطلب تلك المرتبة بحيلة ، ولا بلغها بوسيلة ، وإنما أتته من تلقاء نفسها ، وذلك بعد أن أوفى عقد الأربعين . وكان من أمره أنه عاش طول تلك المدة غامض الشأن ، قضى أيام صباه فى المدارس ، ثم تخرج منها قسيساً واعتنق المذهب الجديد - مذهب لوثر ، وقد قنع من التداخل فى شئون الغير بالإقبال على نفسه يصلح من شأنها ويحملها على المنهج القويم ، وكان يكتسب بإلقاء الدروس فى الأسرار الكريمة ، يشرح مبادئ مذهبهِ إذا سئل ، ثابتاً على الحق يصدع به متى دعت الحال ، غير حاسب أنه يستطيع أكثر من ذلك ، وعلى هذه الصورة قضى أربعين من عمره ، فلما كان ذات يوم وقد اشتد الحصار على جماعة الخوارج المصلحين وكان « نو كس » بينهم ، وقد أخذ رئيسهم يخطبهم يربط نافر جأشهم ، ويفتل مرر عزائمهم ، ويستنهض عاثر هممهم ، قال فيما قال : إنه لا بأس أن يكون من القوم من يعمل عمله من عظة الناس ونشر المذهب ، وإنه جدير بكل من وهب الله قلباً حافظاً ولساناً ناطقاً أن يكذب فى نشر الحق لسانه ، ويبيع فى الإرشاد إلى الصواب ، وإن جون نو كس هو ذلكم الرجل . ثم التفت إلى القوم فقال : « أوليس هو كما وصفت ؟ إذن فما قعوده عن الإرشاد والنصيحة ؟ » فوافقهم الجمع على مقالته وقالوا : إنه عمل غير صالح ، فاضطر نو كس إلى الوقوف ، ولكنه ارتج عليه فلبث برهة صامتاً حائراً ، ثم أجهش بالبكاء وخرج من المجلس يعدو ودموعه على وجنتيه أشد عدواً .

ومن ذلك الوقت فصاعداً ثار ثورته وأشعل المذهب البيوريتانى فى قلوب الناس إشعالا ، حتى عادت الأمة الاسكوتلاندية أمة قسوس ، وعادت البلاد وكأنها كنسية ، وبدأ الناس يحبون . واعتقادى أن كل ما جاء بعد ذلك من آداب اسكوتلاندة وأفكارها وصناعاتها أثر من آثار تلك النهضة ، بل إن من آثارها أيضا ونتائجها أولئك الرجال الذين هم فخر الأمة الاسكوتلاندية ! جيمس وات ، ودافيد « داود » هيوم ، والتر سكوت ، وروبرت بارنز . وإنى لأجد نوكس ومذهبه ينفشان قوتهما وسرهما فى قلب كل واحد من أولئك الأبطال وهاتيك العوارض ، وأرى أنها ما كانت تكون قط لولا البيوريتانية ، نعم لقد فاضت تلك الثورة الدينية الاسكوتلاندية بالخير العميم على جميع أنحاء الدول البريطانية ، وذلك أنها شبت جمرة فى كنيسة إدنبرج (عاصمة اسكوتلاندة) فإذا هى قد صارت حريقا أسرع فى كل جانب من جوانب بريطانيا ، وبعد أن دارت رحى الجهاد خمسين عاما زف الله إلى البلاد عروس الحرية متعة هنية ، وهبة سنية ، والفضل فى ذلك للذين جاهدوا لنا وكافحوا . ولم ينعموا بثمرة كدهم ، ونعمنا بها دونهم ، وما تلك بالقسمة العدل أن يصطللوا نار الجحيم ونستصبح نحن بنورها ، ونأكل جنى النحل وهم يكابدون لذع إبرها ، وتلك حال هى كما قلت أشبه بحال الجيش الزاحف على قلعة محصورة ، تبادر مقدمته الخندق المحفور فتسدها بجثتها ، لكى يفوز الباقون على تلك الأجسام كأنها قنطرة فيفتحوا القلعة ويملكوها . فسبحان قاسم الحظوظ لهؤلاء النصر والظفر ، ولأولئك الموت الأحمر . وكم من رجل كنوكس وكرومويل كافحوا وجاهدوا ، وقاسوا وكابدوا ، ولاقوا الشدة والبرحاء ، والكرب والبلاء ، بل اللوم والتفنيذ ، والهجوم والتنديد ؛ قبل أن يسوق الله للبلاد الحرية ، ترفل فى الأوراق الرسمية ، والمواد البرلمانية .

وإنه لمن أفحش الجور أن تتناول الذرية عرض نوكس بالقدرح والذم فيكون وهم كما قيل :

جزى بنوه أبا الغيلان عن كبير وحسن فعل كما يجزى سنمار
وعيب وعار ألا تزال الأجيال تستثير صدى ذلك البطل من لحده ، ثم تنصبه للمحاكمة كأنه بعض الجناة المجرمين ، ولا جرم له إلا اليد البيضاء ، والهمة القعساء ، والصدق الصميم ، والحسب الجسيم ، وإلا أنه كان يحمل تحت ضلوعه أشجع فؤاد

فى الأقطار البريطانية ، وإنه كان ولا مشاحة أنبل أبناء جلدته وأنجدهم . ولو كان متقاعس الهم متقاعد العزم للزم زاوية بيته كما فعل غيره ، فلم تنتشل اسكوتلاندة من قبضة البلاء ، وراح هو بعرض برىء الساحة أملس الجانب ، ولكنه أثر المروءة مع لوم الناس على الدنيئة مع قلة اللوم . فأصبح وحده ذا الفضل العظيم على بلاده ، والنعم الجليلة على العالم أجمع . فواعجبا أن يحمل ذلك البطل على أن يستغفر لنفسه من ذنب المروءة وإثم المجد ، وأن يسأل اسكوتلاندة العفو لأنه كان أنفع لها من الآلاف المؤلفة ممن لم يذنبوا بذنبه . فهم فى مأمن من مثل ما يصاب به من اللوم ، وفى غير حاجة إلى مثل ما يقدمه من الأعذار ! وهل فى العدل أن يحل ذلك برجل باع اللذة فى سوق الحق بالألم ، والراحة بالنصب ، والرفاهة بالشظف والقشف ، ونزل المعتك بلاء درع ولا جنة ، وأهدف للسهام صدره ، واحتمل فى الله النفى والأسر يسام العذاب ألوانا ، ويعرض للرجود والقواصف ، والرياح العواصف ، إلى غير ذلك من ضروب المحن وصنوف البلاء . ولكن ليقبل الناس فيه ما يقولون ، فليس والله يعنيه قولهم وهو يعلم من نفسه ما لا يعلمون ، وإن كان يعيننا نحن أن ندفع الظلم عن رجل لا نزال نرتع فى غرس يديه ، وأن نقشع ضباب التهمة عن شمس حقيقته .

وأرى أن أول شروطنا فى البطولة - أعنى الإخلاص - ينطبق تماما على نوكس ، وليس أحد ينكر أنه مهما تكن عيوبه وعوراته ، فلقد كان من أشد الناس إخلاصا ، وكيف وإنما كان بالحق لا غيره يتشبث وذلك بفطرة فيه وغريزة ، ثم يرى كل ما عدا الحق شبحا باطلا فيدعه . ولما نفى أسيرا مع أصحابه إلى سجون نهر اللوار بفرنسا بعد سقوط حصنهم إثر حصار طويل ، جاءهم أحد السجناء يوما بصورة مريم وسألهم أن يركعوا لها . فقال نوكس « أتزعم هذه أم المسيح ؟ كلا ما هذه إلا قطعة خشب عليها ألوان وصبغ ! وأولى بها أن تطفو على مياه هذا النهر : ثم تناولها فألقى بها فى اليم . ولم يكن مثل هذا المرح بالشئ الرخيص إذ ذاك . ولكن نوكس لا يبالى فى سبيل الحق ماذا يبذل .

وكان يسلى صحبه فى النكراء ، ويعزيهم فى المحنة السوداء ، ويقول لهم : سيظهر الله الحق مهما لج به الخفاء . والحق أبلج ، والباطل للجلج ، وآخو الباطل على الأيام مقهور ، وصاحب الحق على كر العصور منصور ، والحق سنة الديان ، والباطل

مسلك الشيطان ، ولا بد من يوم يقذف الله بالطل ففدمغه فإذا هو زاهق ، فمثل هذا البطل من لا حياة له إلا فى عنصر الحقيقة ، فهو يتشبث بأعطافها كما يتشبث الغريق فى أطراف الصخرة الركون . وما أحسب إلا أن الله قد طبع فؤاد هذا البطل على غرار أفئدة الأنبياء ، فهو نبى القلب وإن لم يكن نبى اللسان . وما أصدق ما كتب « مورتون » على قبره حيث كتب : « تحت هذه الصفائح رجل كان لا يهاب وجه إنسان » . وهو أشبه المحدثين بالأنبياء الأولين من رسل نبى إسرائيل ، له ما لهم من شدة التمسك بطريقته ، والتفانى فى الله وتضحية كل شىء فى تلك السبيل ، وشدة الإنحاء باللائمة على كل من شذ عن الصراط السوى والخطئة المثلى ، فى له من نبى عتيق فى ثياب قسيس محدث ، وما ينبغى لنا إلا أن نعهه كذلك ولا نأسف أنه كان كذلك .

وقد أنكر الناس سيرته مع الملكة مارى وغلظة خطابه لها وخشونة نصحه ، هكذا يزعم الناس ولكن من قرأ تاريخ هذه الحوادث وجد الأمر على خلاف ما يزعمون ، ولم يرَ لنصائح الرجل ومقالاته من الغلظة ما ينسب إليها . بل إنى لأراها من اللين على قدر ما كانت تسمح به الحال إذ ذاك ! ولم يمثل نو كس أمام الملكة ليعطيها ملق الحاشية ، وإنما لأمر غير ذلك كان مثوله هنالك . ومن قرأ محاوراته معها فلم يرَ فيها إلا قحة سوقى لأميرة أخطأ وجه الحقيقة ، وأشوى مقتل الصواب ، لأنه كان من المستحيل إذ ذاك أن يجمع جامع بين التأذب فى حضرة الأميرة ، وبين مصلحة الأمة الاسكوتلاندية وشرفها . ومن كان همه حينئذ أن يحمى البلاد من أيدي الأجانب من أمراء فرنسا ، ويربأ بها عن أن تكون مدبا لمكايد أمثال « دى جيز » ومسرحا لمطامعهم ، ويعزف بدين الله عن مساقط الذلة ومواطئ الأقدام ومواطن الكذب والضلال ، فغير ملىء أن يتذرع بحلاوة الملق وعذوبة الإطراء إلى الخطوة لدى الأميرة والحال عندها . وما أصدق قول « مورتون » حيث يقول : « لأن تبكى النساء خير من أن تخضل اللحي بدموع الرجال » ، وماذا كان نو كس يفعل وقد رأى الأوطان قد خانها الأعوان ، ونام عنها الأنصار ، وتواكل من أشرافها وتخاذل من عيونها وأعلامها من كان يرجى للكريهة ، ويدخر للجلي ؟ أكان يقعد عنها فيمن تقاعد ، ويخنس فيمن تقاعس ، ويتركها نهبا لأيدي الحوادث وغرضا لسهام

الخطوب ؟ كلا ما هذه شيمة الرجال ، ولا تلك سجية الأبطال ، وهذا أمر دونه خرط القتاد ، وضرب الأجياد . وقالت له الأميرة ماري حين جاء ينصحها : « من هذا الذى قد بلغ من جرأته أنه تكلف نصيحة وجوه هذه المملكة وأميرتها ؟ » فأجاب : « سيدتى ! رجل من رعايا هذه المملكة وأبنائها » جواب أصاب والله المفصل وقرطس الغرض !

نحن نلوم نوكس على عدم تسامحه ، ولا أنكر أن التسامح محمود بشرط ألا يتجاوز الصغائر إلى الكبائر والقشور إلى الجواهر ، وإنما التسامح الصادق هو العدل وامتلاك النفس عند الغضب ، وألا يكون المرء لثيم القدرة . فأما التسامح مطلقا بلا حد فهذا من المنكر الذى من حق النبلاء أن يترفعوا عنه ، وما أرسل الله المرشدين والهداة ليتسامحوا ، ولكن ليجاهدوا ويكافحوا ويهزموا ويقهروا . نحن لا نتسامح فى جرائم الكذب والسرقه والظلم إذا أصابتنا ، وإنما نخاطبها بقولنا : « أنت أكذوبة وأنت سرقة وأنت ظلامه ، لا يتسامح فيك ولا يتجاوز عنك » ! وإنما نحن فى هذا العالم لنحمد الأكاذيب ونقطع دابرها بطريقة صالحة ! ولست مشددا النكير على طريقة استئصال الباطل وإن شابها العيب ، فحسبها أن بلغنا الغرض من إزالة الشر وحو الباطل ، ومن هذه الوجهة أعنى من وجهة الضلال ولو بواسطة معيبة - بالواسطة التى لم يمكن غيرها - كان نوكس عديم التسامح .

وما كان رجل اضطهد ونفى إلى بلاد الغربه أسيرا سجيناً ليكون فى معظم أوقاته إلا مر الطباع وعر الناحية ! ولست بقائل قط إن نوكس كان فى طبعه عدوبة وفى جانبه لين ودمائة ، ولا أنه كان سيئ الخلق شرس الشيمة ولم يخل قلبه من عواطف الرحمة والبر والرأفة . هذا ولقد كان فى جرأته على الملكة باللوم ، وفى رجاحة وزنه عند أشراف اسكوتلاندا - أولئك الذين كان لهم من الكبرياء والته الميزان الراجح - واستطاعته أن يقبض على زمام النفوذ فى تلك البلاد الوحشية العاتية زمنا طويلا - لقد كان فى كل ذلك دليل على أن الرجل لم يك حرج الصدر ضيق العطن ، وإنما كان رجلا حمالا للعبء نهاضا بالفادح من الأمر ، مضطلعا بالباهظ من الخطب . ولا يكون ذلك إلا لمن أوتى بسطة فى الحلم ، وفضلا فى الذكاء والعقل ، وقد ينعون عليه تهديمه للكنائس كما لو كان ثوريا مخربا ، وإنما أمره عكس ذلك لو أنعمنا النظر ! وما

هدم الزور والفساد ، وغسل القلوب من كل دنس ورجس ؟ نعم ولا كان ديدنة الثورة بل النظام التام ، وإنما كان من سوء حظّه أن أُلجئ إلى الثورة فى سبيل إمضاء عزمه ، وما كان مثل هذا الرجل ليكون إلا عدوا للثورة والفوضى ، ولكن ماذا يصنع إذا لم يجد بدا من ركوب الفتنة لبلوغ غرضه ؟ يركبها الرجل المضطر ، يركب الصعب وهو عالم بركوبه ، هذا وإنه كان على الحق ، والحق هو النظام .

ومن العجيب غير المنتظر أن نوّكس هذا كان فيه مرح وفكاهة ، وكان بصيرا بمواضع الضحك فى كل شىء ، وصفحة تاريخه مخللة من سطور الفكاهة بما يلين من قسوة جدها ، ويحلى من مرارة وقارها . فلما تشاجر اثنان من القسوس بباب كنيسة « جلاسجو » على الأولوية فى الدخول من ذا يتقدم صاحبه ، واشتد الخصام بينهما وعلا الضجيج وتخابطا بعصويهما ، كان لنوكس فى هذا المنظر مضحك أى مضحك ! ضحك فيه مع التهكم والازدراء والمرارة شىء من الرحمة والرثاء والعطف - لا قهقهة وإنما ابتسامة تملأ العينين إشراقا ، ورجل رقيق الفؤاد ، كثير الوداد ، محب لبنى آدم ، أخ للقوى وأخ للضعيف ، صاحب للوضع صاحب للشرىف . وكان يتناول الكأس فى حان الخمار بمدينة إدنبرج - دليل والله على رقة طبعه ولطف شمائله ، وأنه لم يك كما يزعم الناس بالشرس النكد ، الجعد الأخلاق الجهم الطلعة ، المكفهر الجبين المتعصب الصخب ، كلا إنه كان من أثبت الناس أمرا وأرسخهم حالا .. حازم بصير جلد صبور ، طويل الإغضاء عن الأمر الذى لا يفسد عليه أمره ، فإن عرضت مفسدات الشرف ، والدين قام لها على قدم ، فهو كما قيل :

صفوح إذا ما الذنب لم يعد حده إلى الوتر تباع قفا الوتر أرقم
وكما قيل :

له سورة مكتنة فى سكينه كما اكنن فى الغمد الجراز المهند
لقد جاهد هذا البطل فى الله حق جهاده ، وركب من عيشته متن صعبة عوصاء
ينافح الأمراء ، ويكافح الزعماء ، بعزم لا تقل من حده الخطوب النوازل ، وجنان
ثابت على الهزاهز والزلازل .

ترى ساكن الأوصال باسط وجهه يريك الهوينا والأمور تطير

كابد والله من حياته هول حروب ضررس ، ووقائع حمس ، ولكنه خرج منها كالصارم العضب يجول فى صفحته رونق الظفر ، وفرند الفوز والنصر ، وإن كان بمضريه فلول وثلم ، وما زال الأمل حليفه حتى دخل معه قبره ، فلما جاءت سكرة الموت واعتقل لسانه ، سألوه « هل عندك أمل ؟ » فرفع أصبعه يشير نحو السماء ثم فاض ، له المجد والشرف وسقى عهده الغمام .

كلمة فى الختام عن مذهب نوكس - كان مذهبه سيادة الكنيسة على الحكومة ، ورئاسة القسس على الملوك ، أو بعبارة أخرى حاول أن يجعل على اسكوتلاندة حكومة دينية ، وهذه فى نظر الناس جريمته ، وحقا لقد حاول أن يسير الناس جميعا على كتاب الله ملوكا وسوقا ، وأن يعلموا أن هذا قانونهم الذى ليس فوقه قانون ، وشد ما ساء اغتصاب جياح الأعيان أمتعة الكنيسة ، وقد جعل يقول : « إن هذه ليست ملكا مدنيا وإنما ملك دينى ، وحققها أن توقف على منفعة الكنيسة - على التعليم والمدارس والعبادة . فأجابه الوصى « موران » مستهزئا : « هذه أحلام تقية » ذلك مذهب « نوكس » الذى سعى فى تحقيقه ، وإنه وإن يك أخفق فى بلوغ ذلك ولكنه لم يخفق فى إحياء الدين وبعث الأمة من طول رقادها مبغثا كان أصل رقيها ونهضتها ، ومجدها وعظمتها ، وكيف ينعى الناس عليه مذهبه - كيف ينكرون منه محاولته أن يجعل الحكومة لله وتلك ما لا نزال نحاول ونرجو . وما جاءت الرسل والقسوس إلا لذلك ، وقد أرادها « هلد براند » وحاولها « كرومويل » وبلغها « محمد » . أو لم تزل أمنية كل غيور مخلص ، وكل ولى تقى ، وكل رسول نبى ؟ ولا يسعنا إلا شكر ذاك القسيس البطل الذى حاول جهده تحقيق هذه الأمنية : وأفنى فى طلبها أيامه بين الكدح والجد ، والمعارضة والرد ، والنصب والسهر ، والحبس والأسر .

المحاضرة الخامسة

البطل فى صورة كاتب

جونسون - روسو - بارنز

الآلهة والأنبياء والشعراء والقسوس ، هى صور بطلية تتعلق بالأزمان الماضية ، وتظهر فى العصور الخالية . وقد أصبح ظهور بعضها فى العالم ضربا من المحال. فأما البطل الكاتب الذى سنتكلم عنه الآن فإنه من نتائج هذه الأعصر الحديثة ، وسيدوم ما دامت تلك الصناعة العجيبة - الكتابة - وهاتيك الحرفة الحديثة - الطباعة - وهذا الصنف من الأبطال يعد إحدى نواذر الدهر .

أقول إنه صنف جديد من البطولة لم يكد يتم له فى الوجود مائة عام ، ولم يك قبلها رجل كبير ليعيش ويرتزق بهذا الأسلوب العجيب ، ينفث وحي ضميره فى صفحات الكتب ويطيرها فى أنحاء الأرض بأجنحة الأوراق ، فينال معاشا ومنزلة بما يسخو له به أهل هذا العالم جزاء عمله ذاك ، وما زالت السلع والبضائع تباع ولن تزال ، ولكن سلعة الحكمة والفلسفة ووحى ضمائر العظماء لم تعرض قبل ذلك فى الأسواق هذا العرض المبين ، ويا له من منظر عجب - منظر الكاتب فى أسماله البالية ، وحجرته الخاوية ، يسوس من وراء قبره بعد مماته من أمم العالم وأجيال الأرض من ضنوا عليه أثناء حياته بالقوت الضرورى ، بل عجب وربكم وأى عجب ! ولم أر فى ضروب البطولة وصنوف العظمة ما هو أدهش من ذلك .

ووأسفاه أن البطل ما برح من قديم الأزل يلبس للناس أزياء شتى وأشكالا مستغربة ، وما برحت الدنيا تحار فى كنهه لغرابة منظره فلا تدرى ماذا تصنع به ! ونحن ننكر من القدماء أن يحملهم فرط الإعجاب بالبطل على أن يعدوه إلها أو نبيا ، وأولى بالإنكار أن يرسل الله لخلق بطلا مثل جونسون أو روسو أو بارنز ، فتقتحمهم عيون الناس ولا يروا بهم إلا عجزة ومكاسيل لا فضل لهم إلا بضع كلمات أكثر ما

فيها أنه ملهاة القوم ، ومدفعة لآناء السأم والملل ، ينبذ إليه في ثمنها من الدراهم مقدار مسكة الرمق ، أليس هذا أولى بالإنكار والنقمة ؟ ومنذ كان الفكر هو سائس المادة ، وجب علينا أن نجعل البطل الكاتب إمامنا وقائدنا ، وألا نقدم عليه مخلوقا مهما عظم ، فهو روح العالم في أى صورة برز وأى زى لبس ، وما يقوله كان حتما على العالم تعلمه واعتقاده والسير على موجهه ، وهيئة استقبال الدنيا إياه ومعاملتها له هى عنوان رفعتها أو ضعتها - دليل سموها أو انحطاطها - مقياس قيمتها وفضلها ، ونظرتنا فى سيرته نظرة فى لباب حياة تلك العصور التى هو ثمرتها ، والتى نعيش فيها نحن .

والكاتب صنفان جيد وردىء شأن كل شىء فى هذا الوجود ، فإذا دل بلفظة بطل على الجودة ، فوظيفة الكاتب البطل بيننا وظيفه كأشرف ما يكون وأعلى ، فهو ينفث لنا ما أودع الله جوفه من وحيه - وهذا أكثر ما يستطيع امرؤ أن يفعله ، وهو قبضة من طينة الحق ، وحياته قطعة من فؤاد الطبيعة الأبدى ، وكذلك حياة كل امرئ . ولكن الضعاف الأكثرين لا يعلم عن أنفسهم ذلك ولا يخلصون لتلك الحقيقة . والأقوياء الأقلون أقوياء أبطال مستمرون لأن هذه الحقيقة لا تبرح نصب أعينهم ، والكاتب البطل مرسل إلى العالم ليفهمهم ذلك حسبما يستطيع ، وهى عين الوظيفة التى كان القدماء يسمون صاحبها إلها أو نبيا أو قسيسا ، وهى التى ما أرسل بطل إلى العالم إلا لكي يؤديها .

وقد ألقى الفيلسوف الألماني « فيشتى » منذ أربعين عاما سلسلة خطب فى موضوع « طبيعة الرجل الكاتب » ، فقال مطابقة لمذهب الفلسفة الروحانية التى كان هو أحد أساتذتها : إن جميع ما نبصر من الأشياء ، ولا سيما نحن وسائر الآدميين إنما هى أثواب أو ظواهر حسية يكمن وراءها ويستتر تحتها « معنى الدنيا المقدس » ، وتلك هى الحقيقة المتوارية بحجب المظاهر ، وأغلب الناس فى عمى عن هذا المعنى ، وإنما يعيشون بين الظواهر والقشور والماديات غير خاطر ببالهم أن تحت ذلك شيئا مقدسا ، ولكن الكاتب مبعوث من قبل الله ليرى ذلك لنفسه ثم يريناه . هذا كلام « فيشتى » ولا حاجة بنا إلى معارضته ، وإنما هو أسلوبه فى بيان ما أنا باذل الجهد عبثا فى بيانه ، وتسمية ما لا أستطيع أن أسميه ، وليس له حتى اللحظة اسم - أعنى الحقيقة الإلهية التى كلها رونق وعجب وروعة ، والكامنة فى كيان كل امرئ وكل شىء -

وجود الإله الذى خلق كل امرئ وكل شىء ، وقد علم محمد هذا الدرس بأسلوبه ، ولقاه أودين بأسلوبه ، وهو الدرس الذى ما زال كل ذى قلب حى يلقن الناس بهذه الطريقة أو تلك .

ولذلك يسمى « فيشتى » الكاتب نيبا أو قسيسا لا يزال يجلو لأبصار العالم المعانى المقدسة ، والكتاب كنيسة مستمرة تعلم الناس أن الله موجود ، وأن جميع الظواهر وكل ما نراه فى الكون إنما هى ثوب « لمعنى الدنيا المقدس » — ثوب « للسر الكامن تحت الظواهر » . فما من كاتب صادق إلا وفيه سر إلهى سواء اعترف بذلك الناس أم لم يعترفوا ، فهو سراج يستضاء به وقسيس ينصح ويعظ ، ويرشد الخلق ويهديهم على طريقهم المظلم ، ومسلكهم المبهم ، فى معامى الوقت وقفار الدهر كأنه عمود من النور . ويشدد فيشتى جدا فى التمييز بين الكاتب الصادق الذى نسميه هنا الكاتب البطل ، وبين آلاف الكتاب الكاذبين غير الأبطال ، فمن كان من الكتاب قد اشتمل ذلك « المعنى المقدس » على جميع نفسه ، أو اشتمل على ناحية منها ثم لم يحاول أن يدخل البقية فى طى ذلك المعنى فهو دعى وأفك ومزور ، بل هو لا شىء مهما اكتسى من رونق الأبهة وفخامة الجاه والمنزل . ومثل هذا غير حقيق أن ينعم بين الناس بالسعادة ويفوز بالهناء ! هذا رأى فيشتى فى الكاتب وهو فى أسلوبه عين ما نرمى إليه نحن فى أسلوبنا .

ومن هذه الوجهة أرى أن أكبر الكتاب أثناء القرن السالف هو الألماني الكبير « جيتا » ، فقد قدر الله لذلك الرجل أن يشتمل عليه « المعنى المقدس » ويوهب البصر النافذ إلى أعماق السر المقدس . ولقد تبدوا لنا الدنيا من خلال الله ورونق القدس تشهد أنها من صنع الخالق ، وأنها هيكل مؤلفاته عليها جلال الله يحفها نور لين سماوى ، ولست أرى هذه إلا نبوة فى عصور ساد فيها الكفر والإلحاد ، وعملا من أجل أعمال تلك العصور وإن كان من أسكنها وأسكتها ، ولولا علل عوائق لكان مثالنا على الكاتب البطل هو « جيتا » هذا ، وما كنت إلى شىء أشوق منى إلى الخوض فى حديث بطولته ، وموضوع عظمته ، لأنى أراه بطلا صادقا ، وعظيما جليلا ، بطلا وعظيما فيما قال وفعل ، وربما كان أشد بطولة وعظمة فيما لم يقل ولم يفعل ، وهو فى نظرى آية من آيات الله — وبطل عظيم قديم أشبه فى كلامه وصمته

بنى غابر فى ثياب أديب حديث يلبس أحد أزياء التهذيب والمدنية ، وما رأينا منذ مائة وخمسين عاما منظرا كهذا .

ولكن ضلة الجليل الحاضر فى أمر هذا البطل وجهلهم بحقيقته ، وسوء قدرهم لقيمته يجعل التعرض لتقديسه وإجلاله ضربا من العبث الباطل ، ومهما أقل فيه فسيبقى لمعظمكم لغزا من الألغاز ، ولن تدركوا من أمره إلا خلاف الواقع ، وإنما أمره دفيئة سيثيرها المستقبل ، وحسب الساعة الحاضرة أن توقف على ثلاثة من أكبر أبطال القرن السالف : جونسون وبارنز وروسو ، ثلاثة كانوا من الفقر وسوء الحال يعكس ما فيه « جيتا » اليوم من الرفه والنعمة ، هؤلاء لم يظفروا ظفر جيتا ولكنهم حاربوا فصرعوا ، ولم يكونوا من جالبي الضياء وإنما من طالبيه ، ولقد كانوا من عيشهم فى أبرح برح ، وآلم قرح ، كأنما يعانون من أيامهم سلاسل وأغلالا ، ويحملون من فوادح دهرهم هضابا وجبالا ، فلا بدع أن تعذر عليهم أن يبرزوا من كوامن أفكارهم كل خفية ، أو يستقصوا الغاية بكشف الغامض من ذلك (المعنى المقدس) والذى أعرضه الآن عليكم من هؤلاء الأبطال هو قبورهم ، فإنها الكتيبان الأثرية التى يشوى تحتها ثلاثة من أضخم جبابرة القلم ، مشهد محزن ولكنه لذيد ممتع ، فقفوا بنا على تلك القبور مليا .

كثرت الشكوى الآن مما يسمونه اختلال نظام المجتمع ، وكيف أن كثيرا من العوامل الاجتماعية تسيء أداء وظائفها ، وكيف أن كثيرا من القوى العمرانية الشديدة تكدر فى غير مكدر وتكد فى غير مكدر ، وتلك شكوى لا شك فى صحتها . ولكن من نظر فى جهة الكتاب والكتب وجدها أشد الجميع اختلالا وفسادا ، بل أصل كل اختلال وفساد - وجدها كأنها قلب يصدر عنه ويرجع إليه كل اختلاط وتشوش فى العالم ، ولست أرى حالا أنكر من سوء ما يجزى به الكتاب على جليل ما يسدونه إلى الملاء . ولو غمسنا القلم فى هذا المبحث غمسناه فى بحر لا قرار له ، ولكن لا بد لنا أن نمس شاطئ الموضوع إذ كنا غير خائضين عبابه إتماما للفائدة ، وأسوأ ما كان من أمر هؤلاء الثلاثة الكتاب أنهم وجدوا عملهم فى هذه الحياة ومركزهم ضربا من الفوضى . والسائح إذا صادف طريقا مزدلا ومنهجا واضحا مضى فى سننه وأمعن فى قصده ، فإذا أصاب عقبة لا تقتحم وسدا لا يفتح فجعل يطعن فيه ييغى نفاذا ، (الأبطال)

فأحر به أن يظل من عمله هذا فى مصاب جلل ، وأوشك أن تمر به فريسة بين مخالب الهلاك !

أدرك آباؤنا ما هنالك من الفائدة العظمى فى خطاب الرجل للرجال وعظمة المرء لإخوانه ، فأسسوا الكنائس والمساجد لذلك الغرض . فما من بقعة فى العالم المتمدين إلا بها منبر يستطيع منه الرجل أن يعظ باللسان إخوانه فى الله . كانوا يرون ذلك من أهم الأمور وأنه لا خير فى الحياة من دونه . ولله ما كان أنقاه عملا وأجمله مشهدا ! فأما الآن وقد ظهرت صناعة الكتابة والطباعة فقد طرأ تغيير كلي على ذلك الأمر . أو ليس الكاتب الذى يضع كتابا خطيبيا ليست خطبته قاصرة على هذه البلدة أو تلك ، رهينة بذلك اليوم أو ذاك ، ولكنها خطبة لكل إنسان فى زمان ومكان ؟ وحقا إنه من يخطئ فى عمله ، فأوجب الواجبات على كاتب الكتاب أن يتوخى الصواب والسداد . والخطب العظيم والطامة الكبرى أن الناس لا يحفلون ألبتة أصاب كتاب الكتب أم أخطأوا - ووجد كتاب الكتب أم فقدوا . نعم قد يكون للكاتب شىء من الأهمية عند طابع الكتب الذى يرجو أن يربح مبلغا من وراء مؤلفه ، فأما عند خلافه فلا كلا ولا يعبا الناس من أين جاء ذلك الكاتب وأين يذهب ، وكيف وصل وكيف يمكن أن تستهل له طرق التقدم والاستمرار ، وإنما يراه المجتمع كأنما هو إحدى الشواذ فيتركونه هيم كالذى لا يدري أين هو .

أنا فى أمة تداركها الله - غريب كصالح فى ثمود
وصناعة الكتابة لا شك أكثر الفنون إعجازا ، أو أعجب ما أبدع الإنسان ، « وحروف » أودين كانت أول عمل أتاه أول أبطال العالم ، وليست الكتب فى هذه الأوقات إلا من قبيل « حروف » أودين ، والكتب - حرسكم الله - مستودع حكمة الغابرين ، وفيها تنجلي لنا أرواح العصور الماضية ، والحقب الخالية ، بعد أن فنيت أجساما ، وأصبحت أوهاما وأحلاما . ولا ننكر أن الجيش اللهم ، والأسطول الضخم الجسم ، والمرافئ والثغور ، والمدائن والقصور ، أشياء رائعة جليلة ، ولكن ماذا مآلها وأين مصيرها ؟ وإذا سألت اليوم عن أغاممنون وبيركليس ويونانهم ، رأيتهما عهودا تبكى وتذكر بعد أن كانت مشاهد تروع وتسر . ولم تنل عينك منها إلا دما عافيات ، وطلولا دارسات ، ورسوما دائرات ، ومعاهد خربات ، كأنها صحف

باليات تنشرها أيدي السحب السواكب ، وتطويها أكف الرياح الغرائب ، إذا نفشتها أقلام الهاطلات ، مسحتها أنامل السافيات .

لأيدي البلى فيها سطور مينة عبارتها أن كل بيت سيهجر ولكن ماذا كان من أمر مؤلفات اليونان ؟ هي اليوم عينها بالأمس لم يغيرها الزمان ؛ ولم ينكرها الحدثان ، ولا أبلتها العصور ، ولا أخلقتها الدهور ، هذا وقد خلد الله اليونان بين أوراقها وصحفها ، وأحيائها في سطورها وحروفها ، فكأنها لم تمت وإنما طوتها من تلك الكتب صناديق وخزائن ، وأصبحت في تلك الأسفار ودائع ودفائن . والكتاب - رعاكم الله - فؤاد العالم ، يعي كل ما طرأ عليه من حوادث وآثار ، وخواطر وأفكار ، ووجدانات ومشاعر ، وفعال ومآثر ، ومشاهد ومناظر ، فنعم تراث للأواخر ، وتحفة الغابر للحاضر .

أو ما زالت الكتب تأتي بالمعجزات ، كالتى زعموا أن « حروف أوديس » كانت تأتيها ؟ بلى حسبها أن فيها للناس دوافع ومحركات ، وبواعث ومحرضات ، ولن تعدم أحقر قصة وأسخفها أثرها الحميد في قارئاتها ذوات الخرق والحمق من بنات الريف ، تجدها بعد الزواج في ترتيب بيتها وتنظيمه ، ثم انظروا ما الذى شاد كنيسة سانت بول ، هو كتاب التوراة الذى هو كلمة الرجل موسى الخارجى الطريد راعى الغنم فى صحارى الطور . نعم لقد أقامت الكتابة فى العالم دولة المعجزات ، وضمت الماضى والحاضر بأوثق العقد وأوكد الصلات ، ولاصقت بين الشرق والغرب ، وصاقت بين القطب والقطب ، وجمعت بين طنجة وبكين فى القرن ، وألفت بين نوح ونايليون فى زمن ، وغيرت للناس وجوه الأمور وصور الأعمال ، وجددت شأننا بعد شأن وحالا بعد حال .

فانظروا مثلاً إلى التعليم وما أحدثت فيه الكتب من الأثر الجميل ، وحسن التغيير والتبديل ، لقد كانت الجامعات قبل الكتب هى الطريقة الوحيدة لاقتناء العلوم واكتساب المعارف . نشأت الجامعة حين لا كتب تذيع وتنتشر ، وحين كان الرجل يريد الكتاب فيبذر الضياع والعقد . وكان ذو العلم إذا أراد أن يعطى من علمه لم يجد بدا من جمع الطلاب حوله فيلقنهم العلم فما لفم . فإذا كنت فى ذلك الوقت فأحييت أن تعرف من العلم ما يعرفه « أبلارد » لم يكن أمامك إلا أن تذهب إلى

«أبلارد» ، حتى لقد بلغ قصاصد أبلارد وحججه نحو من ثلاثين ألفا يحتشدون حوله ليستمعوا فلسفته ، وإذا وجد بهذا المكان هذا العديد المجهز من طلاب العلم ، رآها العلماء الآخرون فرصة يحسن اغتنامها . فمن وجد في نفسه الكفاءة لتدريس علم رأى ذلك المكان أحق الأمكنة بأن يذهب إليه فيعرض في سوقه سلعة علمه . وهكذا كلما زاد فيه عدد المدرسين زاد عليه الإقبال من الطلاب والمعلمين معا ، وبعد ذلك أصبح المكان لا يحتاج إلا إلى التفات السلطان إليه ليجمع تلك المدارس المتعددة في مدرسة واحدة ، ثم يمنحها المباني والميز وال منح ويسمىها جامعة ، وهذا هو في نظري منشأ الجامعات .

ولكن انتشار الكتب وسهولة اجتلابها قلب الأمر قدما لرأس ، وذروة لأس ، ومتى أوجدت الطباعة نسخت أمر الجامعات وعلوتها علوا مبينا ! إذ لا يصبح المعلم في حاجة إلى أن يجمع الطلاب حوله ليسمعوا منه . وما هو إلا أن تطبع الكتاب حتى يتناوله من بأقصى الأرض غنيمة بلا عناء ، ويرتشفه شربة بلا رشاء — هنيئا مريئا — وهو متكئ على أريكته ، مرتفق فوق وسادته ، ليقلب فيه البصر ، وينعم في معانيه النظر ! ولا شك أن في الخطبة لمزية خاصة ، حتى لقد يحسن أحيانا بكتاب الكتب أن يخطبوا طلابهم أيضا ، وحسبكم ما نحن فيه الآن . وأرى أنه ما دام للمرء لسان فسيبقى للخطابة فضل لا ينكر ، وقيمة لا تحقر ، ومنطق للكلام ، بخلاف منطقة الأقلام . ولكن الحد الفاصل بين المنطقتين لم يعين حتى اللحظة ، ولم توجد بعد تلك الجامعة التي يعرض معها نفوذ قوة الكتب وتأثير سلطانها ، ولا أعرف بعد كيف تكون تلك الجامعة وما معالمها وحدودها . فإذا كنا مفكرين في ذلك فمثل هذه الجامعة لن تكون إلا كأقدم جامعة ، أعنى أن يكون من شأنها تعليم القراءة في مختلف اللغات والعلوم — أى تعليم مبادئ كل صنف من أصناف الكتب . ولكن مأخذ العلوم ومقتبسها هو الكتب أعينها ! ومبلغنا في العلم متوقف بعد على ما نقرأ بأنفسنا مهما صنع لنا المعلمون ، وأجاد المدرسون ، نخرج من ذلك على أن خير جامعة في هذه الأوقات هي مجموعة كتب .

وأما من جهة الكنيسة فالتغير الحادث عليها من نشر الكتب تغيير تام ، والكنيسة هي جماعة القسوس والأنبياء ذوى الهداية والإرشاد ، من يهدون بعظاتهم عباد الله

الصراط المستقيم . وقد كان اللسان يوم لا كتابة ولا طباعة هو الأداة الوحيدة لبث النور والهدى ، فأما وقد ذاعت الكتب فقد أصبح كل كاتب يلين من قلوب الناس ، ويأخذ بزمامها نحو الحق ، فذلك بطريق أمته وإمامها ، وطالما قلت إن كتاب الجرائد والمجلات والرسائل والشعر والكتب ، هم فى الحقيقة الكنيسة العاملة الفعالة ، هم الأمم الحاضرة . وليست الكتب خطبا لنا فقط بل هى أيضا ضروب العبادة ، وبعضها تكون قراءته أحسن صلاة لله وتسييح . أو ليس المعنى الشريف يزفه إليك البليغ فى رونق اللفظ المصقول ، يختال من صفاء السبك وإشراق الديباجة فى أكرم حلة وأبهج خلعة ، فيمتزج بأجزاء النفس ويمجى مع الروح حتى :

يظل سامعه لدينا مفاصله كأنما فترت أوصاله الكاس

يفعل بالنفس ما تفعله العبادة . ولعل الكثيرين لا يعرفون فى هذه الأوقات الفاسدة من أساليب العبادة إلا هذا الأسلوب . والشاعر الذى يريك من جمال الزهرة ما كان قبل غائبا عنك ، أليس كأنه أطلعك على مظهر من مظاهر قوة الله وعظمته ، وشعبة من ينبوع الجمال الإلهى الشامل ، وعلى سطر خطه القلم العلوى فى صحيفة الكون فبدا مبينا ناصعا ، جليا ساطعا ، وكأنما غنى لنا نشيدا قدسيا ؟ وإذا كان هذا شأن من يصف زهرة الروض ، فكيف الذى يتغنى لنا بمكارم أولى العزم ومآثرهم ، ومناقب ذوى الفضل ومفاخرهم ؟ مثل هذا كأنما يحس أكبادنا بجذوة من بحامر المحراب ، ولعلها أشرف طرق العبادة .

وما الأدب إلا كشف وجلاء لأسرار بدائع الله ، أو ما يسمونه « السر الجلى » وقد عرّف الأدب « فيشتى » بأنه البيان المستمر لما يكمن من أسرار الله فى الأشياء الأرضية العادية ، فإن أسرار الله ما برحت كائنة فى كل شئ ، وما برحت تصادف من هذا الكاتب وذاك من تبرزها فى هذه الصورة أو تلك ، فى مقادير مختلفة من الوضوح ، ودرجات متفاضلة من البيان ، كل حسب ما وهبه الله من الفضل . هذا هو الذى ما زال ذرو المواهب اللدنية من الشعراء والكتاب والخطباء والمتكلمين يصنعونه عمدا أو عفوا ، حتى لقد تجد أن شعر بيرون لا يخلو من تلك الأسرار برغم م قد امتلأ به من زوابع الحنق وصواعق القذف والانتقام ، ومعاسف الغل والحقد والضغينة على بنى البشر ، وهى (الأسرار) أيضا كائنة فى متواضع شعر بارنز ، ذلك

الفلاح الذى كان يجتلس القوافى من خلال حركات الفأس والمحراث - صاحب القصائد التى كأنها أغاريد القنبرة صاعدة من أديم السراب ، إلى أعلى ذوائب السحاب ، والحقيقة أن كل غناء صادق هو عبادة ، كما أن كل شغل صادق هو أيضا عبادة . وما الغناء الصادق لو نظرت إلا صفة للشغل الجيد الحر وتمثيل موسيقى مطرب . ومن أنعم النظر رأى هنالك قطعة جمّة من الأناشيد الكنيسية ، والصلوات الدينية ، طافية على مياه ذلك البحر الخضم الذى يسمونه بحر الأدب . فالكتب أيضا كنيسة .

نتقل الآن إلى تأثير الأدب فى الحكومة ، لقد كان البرلمان قوة عظمى تبرم أمور الرعية وتنقض ، وتعقد شئون الأمة وتحل ، وتصرف أعنة البلاد وتدبر ، وتقطع أحكامها وتقرر ، بعد طول الروية والنظر ، وإدمان التأمل والفكر ، وإطالة المناقشة والمحاورة ، وإدمان المجادلة والمناظرة ، ولكن انظروا الآن أما ترون أن عمل البرلمان هذا يعمل الآن خارج البرلمان فى طول البلاد وعرضها ، بواسطة المطبوعات ، من جرائد ومجلات ، ورسائل ومؤلفات ، وإن كان البرلمان لما يزل باقيا . ولقد قال بيرك : إن البرلمان ثلاثة أركان ، ولكن بمجلس مخبرى الجرائد ركنا رابعا أهم من تلك الأركان الثلاثة . ولم تك كلمته هذه بالمجاز والاستعارة ولكنها عين الحقيقة . وقد أصبحت خطارتها اليوم أجسم منها يوم قالها بيرك ، فالأدب هو برلماننا أيضا ، والديمقراطية - أيدكم الله - رهن الطباعة التى هى من نتائج الكتابة ، وما هو إلا أن تخرع الكتابة حتى تنبع الديمقراطية . فالكتابة تنتج الطباعة - الطباعة العامة اليومية كما نرى اليوم ، فيصبح كل ذى لسان بوقا يسمع الشعب ، وقوة وفرعا من أفرع الحكومة راجح الميزان عند وضع الشرائع والقوانين ، وجميع تصارييف السلطة ، ولا ينظر إليه من أى طبقة هو وماذا يملك وماذا يلبس ، وإنما الأمر الجوهرى هو أصحاب لسان ، وأخو بيان فيصغى إليه ، ويقبل عليه ؟ هذا لا غيره الأمر الأساسى ، فالإقامة محكومة بكل ذى لسان من أبنائها ، وهناك الديمقراطية ولا مشاحة . أضف إلى ذلك أنه ما من قوة موجودة فى الكون إلا وسيريكها الدهر يوما ما فعالة معترفا بسلطانها ، فهى لا تزال تعمل فى خفاء ، وتكد تحت غطاء ، تدافع العوائق والعوائق تدافعها ، وتصارع الموانع والموانع تصارعها ، حتى يجلوها صبح اليقين من غياهب الشبهات ، وتطلقها يد

النصر من سلاسل العقبات ، فتذهب شعاب الحق كل مذهب ، وتضرب فى مناصر الإصلاح كل مضرب . ولا تستريح الديمقراطية حتى تبرز للعيان ، ويصطفى شمسها كل إنسان ..

أو ما يزال فى كل شىء دليل على أن خير ما فى طاقة امرئ أن يصنع ، وأعجب الأشياء طرا ، وأثقلها فى النفوس وزنا ، وأخفها على الأسماع حسنا ، وألطفها فى النفوس مكانا ، وأقلها فى العقول رجحانا ، هو كتاب الله تلك الرقع الواهية المرقشة المتون بلمع المداد الأسود ! أى جليل من الأمر لم تأت ؟ وأى شىء لم تصنع ولا تصنع ولن تصنع ؟ ولا غرو فهل كانت تلك الرقع مهما حقر ظاهرها إلا أشرف نتائج الذهن البشرى ؟ هى فكر الإنسان - الفضيلة الحرة التى بها يصنع كل شىء . وجميع ما يفعل الإنسان ويحدث إنما هو ثوب فكره ، وجسم روحه ، ورأى من آرائه . فمدينة لندن هذه بجميع ما بها من منازل ودور ، وحلل وقصور ، وعدد وآلات ، وكنائس وبيعات ، وحركة وصخب ، وجلبة ولجب - ما كل هذه إلا فكرة أو مليون فكرة ، ألف شملها نظام فصارت واحدة . ما هى إلا روح فكرة جسيمة قد تجسدت فى الطوب والحديد والخشب ، والتراب والدخان والقصور ، والبرلمانات والمركبات والمصانع ، وسائر ما تنظر إليه من الأشياء . وما من طوبة صنعت إلا وقد أعمل بعض الرجال فكرته كيف يصنعها ؟ وما نسميه قطعا من الورق عليها لمع من الخبر إنما هو أطيّب مظهر للفكر البشرى ، فلا عجب أن يكون أنشطها وأكرمها .

وقد طالما أقر الناس بفضل الكتاب وخطارة شأنهم فى العصور الحديثة ، واستعلائهم على الكنيسة والبرلمان والجامعات وغيرها . ولكنه إقرار لم يشفعه عون ولا مساعدة ، وعسى أن يكون قد آن للعواطف أن تخلّى مكانها للإمدادات المادية ، وإذ كنا نقرر ونعترف بأن للكتاب على المجتمع النعم الغراء ، والمنن البيضاء ، وإنهم يحدون به فى سبيل التقدم ويسعون به فى مراقى المدنية ، فما بالنا إذن نتركهم فى أسوأ حال من نكد الحياة وجحد العيش ، من أمرهم فى حيرة عشواء ، وضلالة عمياء ؟ ويقينى أن كل شىء فيه فضيلة قوة خفية ، فسيحسر يوما ما لثامه ، ويميط قناعه ، ويسفر لنا ناصع الصورة واضح الغرة ، بين الإشارة جهير الصوت ، فأما أن يلبس أناس زى الأدب والكتابة ويقبضون أجرها ، ويتضور من الجوع الكاتب الحقيقى صاحب

الخير والمنفعة ، فما ذلك بعدل وإنما جور وعسف . ولكن رد هذه المظلمة لن يكون وأسفاه إلا بعد الجهد الجهد ، والزمن المديد ! وكم دون ذلك من مشكلات ومعضلات الله وحده المعين على حلها . فإذا سألتهم ما هو أحسن نظام يجعل عليه حالة الكتاب في العصور الحديثة ؟ وما هي خير طريقة لتنظيم شئونهم واستمرارها تكون على تمام مطابقة لمركزهم ولمركز المجتمع ؟ استقلت من الإجابة عن هذا السؤال لقصور مبلغ عقلي عنه ، وإنها لمعضلة لو تابعت عليها عدة عقول راجحة لما استطاعت لها حلا تقريبا ، فكيف بعقل واحد ؟ نعم ولا أحسب أن أحدا يقدر أن يقول ما هو أحسن نظام لأمر الكتاب ، فأما إذا سألت سائل ما هو شر نظام وأخبره ؟ لقلت : هذا الذي هو كائن اليوم - هذا الخلط السائد والقوضى المستحكمة ، وما أبعد ما بيننا وبين نظام صالح طيب .

وثمة شيء لا يفوتني ذكره ، وهو أن هناك غير أمر العطايا المالية أمرا أهم وأعظم ، ألا وهو إجلال الكتاب وتقديسهم . وهو أمر كان معدوما في القرن الثامن عشر - قرن الجحود والكفر ، فأما هبة العطايا وترتيب الرسوم فهي على ضرورتها في بعض الأحيان ، قلما تقرنا وحدها من النظام المطلوب لحالة الكتاب . وإنني لأحد الذين أسأهم كثرة ما يغلط به من سلطان المال وفضله على كل شيء . بل إنني أحد القائلين بأنه لا ضير على الحر أن يكون فقيرا ، وأنه يجب أن يكون من الفقر محك لأذهان الكتاب ومعيار لقيمهم وأقدارهم . وقد أوجدت الكنيسة النصرانية فرق الشحاذين من رجال أبرار قدرت لهم الشحذ والتسول ، ورأت الكنيسة أن ذلك من أسباب نشر روح الدين وتأيينه . وهل أسست النصرانية نفسها إلا على الفقر والحزن والاضطهاد والصلب وسائر أصناف الغم والمهانة ؟ ولنا أن نقول : إن من لم يعرف هذه الأشياء فيتعلم منها درسها الذي لا تقدر قيمته ، فقد فاتته من فرص التعليم أتمنها ، ومن أسباب التقويم والتثقيف أمتنها ، ومن فوائد التربية والتهديب أكرمها وأحسنها . ولم تكن الشحاذة والحفاء ولبس المسوح وشذ الحبال في الأوساط ، بالشيء الجميل أو الجليل في أعين الناس حتى جملة وشرفه مزاولة الكرام له ، وإتيان الجلة الأشراف إياه .

وليس موضوع الشحاذة من أغراض هذا الكتاب ، ولكن من ذا الذي لا يقول بأن كاتباً كجونسون لم ينفعه الفقر وتفيده الفاقة ؟ ولقد كان مثله جديراً أن يعلم أن المال

أو النجاح - كيفما كان - لم يكن الغرض الذى يسعى ليدركه . وكان مليا أن يعرف أن فؤاده لم يخل مما قد جبلت عليه سائر القلوب من الكبرياء وحب الذات بجميع شعبه وفروعه ، وأنه من أوجب الواجب اقتلاع هذه الأغراض اللئيمة من تربة النفس . ثم اذكروا أن ييرون مع غناه وشرف نسبه ، كان أقل فائدة وأصغر مآثرة من بارنز مع فقره وضعة نسبه . وما يدرينا أنه إذا وجد فى المستقبل البعيد ذلك النظام المنشود كان الفقر لا يزال ركنا من أهم أركانه ، وكان الكتاب - أبطالنا الروحانيون - لا يزالون طائفة من الشحاذين متاحا لهم العوز والتكفف حتى يجنوا ما فيهما من كرائم الثمرات ، ويتنفعوا بهما انتفاع غيرهم باليسار والغنى ؟ ولا أنكر أن الطيب الكثير يبلغ بالمال ، ولكن ما يبلغ بالفقر أطيب وأكثر ، وإنما علينا أن نعرف حد المال فنقف عنده ، ونعلم أن ما زاد على ذلك فضول حقه الرد والرفض .

هذا ولو فرضنا وجود الإمدادات المادية والرسوم المالية ، فأنى لنا بمعرفة الكاتب الكبير الذى يستحقها ؟ إنه لا بد قبل ذلك من أن يجوز الامتحان اللائق . وأرى أن الحياة الأدبية - تلك التى كلها فوضى يتلاطم موجهها ويتصادم لجها ، هى نوع من الامتحان ، وما زال هناك عنصر من الحق فى قولهم إن الجهاد فى سبيل الصعود من وهاد الطبقات السفلى إلى ذرى الطبقات العليا هو من الأمور التى لا بد من بقائها ، لما يترتب عليها من استمرار رقى العالم ، إذ أنه ما زال يولد فى الطبقات السفلى من ينبغى أن يكون فى أرفع المنازل وأسمى الطبقات . ولكن كيف ينظم ذلك الجهاد ؟ هذه مسألة المسائل ، فأما أن يترك هذا الجهاد كما هو الآن رهنا بمحاسن الصدف ، فكلما أفلح فيه كاتب من عصابة خاب الباقون ، أو نجح واحد من ألف هلك فى الطريق بعد التسعمائة تسعة وتسعون ، ويترك مثل بارنز يجود بروحه ولا يجود عليه إنسان بدرهم ، ومثل جونسون يزجى الوقت بين الثوباء والمطواء فى حجرته ينطبق عليه قول القائل :

نلوم على تبلدها قلوبا تلاقى من معيشتها جهادا

إذا ما النار لم تطعم وقودا فأوشك أن تمر بها رمادا

حتى إذا شرع يكتب ، راح وهو من دفعة العمل وعجلته مع البنخس والبوكس كأنه فى مضمار ، أو كأن يديه يدا عائم يكافح التيار . ويترك مثل روسو على جمر

الإعسار والاحتقار يتململ ويقذف بشرر الكلم اللذاع ، فيؤجج الثورات الفرنسية — هذا وأيم الله شر النظام وأسوؤه ، فأما النظام الأحسن فهيئات منه نحن وأنى لنا به الآن !

يبد أنه لا شك هناك فى أن ذلك النظام آت يحمله المستقبل البعيد فى جوفه جنينا فى رحم الزمان الآجل ، وهذا ما أجرؤ على أن أُنَبِّأ به ، لأنه لا يكاد الناس يرون فضل الشيء حتى يأخذوا فى تسهيله وترجيته ، وتنظيمه وترقيته ، ثم لا يستريحون أو يروه قد بلغ منتهى ما يستطيعون أن يبلغوا به . وقد قلت : إنه ليس فى سلطات الكنيسة والحكومات بأنواعها سلطة تستحق أن تقارن بدولة الأقلام ، وقد قال الوزير « بيت » وقد سئل أن يكتب بشيء من المال للشاعر الأكبر بارنز : « الأدب سيد نفسه يدبر زمامها ويسوسها وليس فى حاجة إلى الناس » قال المستر « سوذى » : نعم هو سيد نفسه يسوسها ويدبر زمامها ، وهو أيضا سيدك ، يسوسك ويأخذ بخطام أنفك إذا أنت لم تلتفت إليه وتعرف له قدره ! » .

وما معظم الضرر بواقع على الكتاب ، فإنهم أفراد وجزء ضئيل جدا من الجسم الكلى ، وفى جهدهم أن يجاهدوا ويكابدوا حتى يظفروا ، أو يموتوا فيعذروا ، ولكنه يهتم المجتمع أن يضع شبهه ومصابحه فى الذرى والغوارب ، وحيث ترى فتهدى ، أم يجعلوها تحت أقدامهم ويبددوا جوهرها الساطع شررا يستطير فى حيث لا مقتبس ولا متور ، ويعرضوا أنفسهم بذلك لما قد عساه يحدث من الحريق ؟ وقد حدث . والنور — هداكم الله — هو رأس المنافع وأصل الحياة وأول حاجات المجتمع وآخرها ، وأن دنيا يتقدمها النور لجديرة أن تظفر فى حربها مع الدهر وتكون للإنسان أحسن دنيا ، وعندى أن مرض الفوضى الكثائية هو أصل سائر الأمراض فداؤه تشفى المجتمع من كل داء به وعلة . وقد بدأ فى آفاق الأدب بفرنسا وبروسيا تباشير نظام نقابلها بالاستبشار والهتاف ، لأنها بشير بأن ما قد حدث فى هذين البلدين خليق أن يحدث فى غيرهما .

إن أهم ما سمعت عن الصين أمر فيه علينا لبس وإبهام ، ولكنه يحرك فىنا أعظم الشوق على لبسه وإشكاله ، وهو محاولتهم أن يختاروا ملوكهم من بين كتابهم وأدبائهم . وأرى أنه من الخطل والخطب أن يتكلف أحدنا فهم هذا الأمر فضلا عن

شرحه وبيانه ، وما أحسب إلا أن مثل هذه الأمور لن يكون إلا عديم النجح ، غير أن
فى مجرد محاولتها فضلا كبيرا | ويظهر أن فى جميع أنحاء الصين عناية شديدة بالبحث
عن أولى الألباب فى كل خيل من النابتة . ولكل درجة من الطلبة مدرسة ، فمن
أظهر براعة فى دنيا المدارس رفع إلى أعلى منها درجة ، وهكذا حتى يفضى إلى أشرفها
منزلة . ومن ثم ينقل إلى مراكز الحكومة ومناصبها ، وربما قلد عملا أو ولاية ، وتلك
هى الطائفة التى منها يختار الولاة والحكام مع الأمل والرجاء . ففهمهم — وليس فى
غيرهم — ظهرت آيات الفضل وأمارات اللب والذكاء . نعم فليجرب هؤلاء وإن
كانوا لما يزاولوا الحكم والإدارة وقد يعجزون عنها ويعيون بها . ولكن لهم على كل
حال فهم وعقل — ذاك الذى لا يستطيع الحكم والإدارة إلا به . وليس العقل بآلة كما
جرت الحالة بتشبيهه ، ولكنه يد يمكنها أن تستعمل كل آلة . فليجرب هؤلاء الفتية
ذوو الألباب فإنهم أحق الناس بالتجربة ، ولا أحسب أن هناك شيئا أسر لطلاب
الإصلاح ذوى الإخلاص والغيرة من إسناد الرئاسة إلى ذوى العقل ، لأنهم فى الحقيقة
ذوو العدل والبر والمروءة والرحمة . قلدهم أموركم تظفروا بكل شيء ، دعوا توليتهم
تخسروا كل شيء !

ولعلكم ترون مثل هذه المسائل غريبا مما لا يجرى فى محاورات الناس ولا يدور فى
مذكراتهم ، وليس العيب فى المسائل وإنما فى الجليل والعصر . إنما الواجب أن تطرح
هذه المسائل على بساط البحث والمناقشة حتى تنضج ، فتخرج إلى حيز الفعل .
ويسلينا بعد أنا أينما ألقينا البصر وجدنا دليلا بيننا وبرهانا ناطقا على أن دولة القديم قد
زالت . وإن طول عمر العادة ليس فى هذا الزمن حجة على وجوب بقائها ، وأن
الأشياء التى كانت قبل اليوم قد بليت وفقدت مزاياها ومعانيها ، وأن الألوفا المؤلفه
من الأوربيين قد أصبحوا لا يطبقون الاستمرار على أسلوب المعيشة القديم . وإذا
عادت الملايين من خلق الله وهم لا يستطيعون إحراز المطعم ، ويظل ثلث الناس لا
يطبقون الحصول على أرءا أنواع البطاطس مدة ثلاثة أرباع العام ، فقد آن ولا شك
للأمور أن تتغير وللأحوال أن تتبدل ! هذا وحسبنا ذلك فى الكلام عن النظام المؤمل
لتحسين حالة الكتاب .

وإن عدم ذلك النظام وإن كان من آفات كتابنا الثلاثة ، فلم يك بعد أشد من الآفات ! بل كان ثمة آفة هي أصل عدم النظام وأصل كل آفة أخرى ! وهى إلحاد القرن الثامن عشر وكفره . فأما خطب عدم النظام فقد كان على مضضه يمكن احتماله ! وقد كان الكاتب البطل يطبق الصبر على وعوثة الطريق ووعورته ، وعلى وحدة السفر ووحشته ، ويثقب بعقله النافذ فى السدود المعترضة والعقبات القائمة ، لولا أن ذلك العقل قد قلل من حدة تأثير ما كان حوله من الكفر والإلحاد . نعم ، لقد كانت آفته العظمى وطامته الكبرى ما ساد فى تلك الأزمان من شلل الأرواح وموت النفوس ، ولم يعد ذلك الوسط السيئ والجو الفاسد أثره الخبيث فى قلوب أبطالنا الثلاثة ، وحسبى أن أقول عن القرن الثامن عشر إنه كان عصر إلحاد ، وقد نعت به بكل خسيصة ، ووصفته بكل دنيئة وخبيثة ! والكفر - وقاكم الله - جملة المحن والبلايا ، وجعبة الداهيات والرزايا . وليس الإلحاد هو موت الأذهان فقط ، بل موت الأخلاق كذلك ، وفيه كافة أنواع الكذب وعدم الإخلاص وخمود الأرواح كما قلت . ومثل ذلك العصر أبعد العصور من فهم البطولة ومعرفة الأبطال ، وجو سام لهم ، والبطولة روح لا تنتعش إلا بنسيم الإيمان والتقوى . وكيف وقد كان معنى البطولة قد محى من كل خاطر وبال ، وأمسى يراه كل إنسان حديث خرافة وضربا من المحال ! وأصبح قد سار به القارطان ، وبات فى خبر كان ، وطارت به العناية وتبدد فى رياح الكفر تبدد الهباء ، وذاب فى موج الجحود ذوب الجفاء ، أو ذوب السراب المرقوق فى أكناف القفرة الملساء . وقام بدل معنى البطولة معانى الشك والاستخفاف والرسوم الميئة والاصطلاحات الجامدة ، وأصبح الناس فى عالم - لا رعاه الله من عالم - خلو من الروعة والعجب والعظمة ، عالم خلا جوه من التقديس فباض فيه الشيطان وأفرخ .

وما كان أنحب الأفكار إذ ذاك وأخسها وأسفلها إذا قورنت بأفكار قدماء الوثنيين المتوحشين ، لا بأفكار الأتقياء دانتى وشكسبير وملتون . وكيف وقد كان الوثنيون يشبهون الحياة الإنسانية والطبيعية بشجرة جذورها فى عالم الموت وفروعها فى الجان ، وهى فينانة غيداء ، وحفة غناء ، كثيفة الورق ملتفة الأغصان ، غير محصية الفنون والألوان ، ممددة الظلال منفسحة الأفياء ، قد ضربت فى جميع الأرجاء

والأنحاء ، وغصت بها كافة الآفاق والأجواء . فنسى كفار المدنية الحديثة - أهل القرن الثامن عشر - هذا التشبيه وشبهوا الحياة والكون بمكيئة تصلّ صليل الحديد ، وترن رنين النحاس . يا لله أى فرق بين الشجرة والمكيئة ؟ قارنوا - أصلحكم الله - بين هاتين . أما أنا فلست بقائل قط إن العالم مكيئة ! لست بقائل إنها تدور بلولب وعجل وبما يقوله الاقتصاديون من العوامل والمصالح والموانع ، والموازن والمقاييس . ولكنى صائح بملى أن هنالك أسراراً خلاف رنين آلات المصانع ، وضجيج صراخ البرلمانات ، وأن العالم على كل حال ليس بمكيئة . أقلا ترون بعد فضل آراء الوثنيين المتوحشين على آراء أولئك الجهلة المتمدينين أصحاب المذهب « المكيئى »^(١) ؟ ولا عجب فقد كان الوثنيون القدماء أمة مخلصه مؤمنة ، ولكن هؤلاء الكفرة الأشقياء لا إخلاص لهم ولا صدق ولا مرعوه ولا شعور ، وكان الحق عندهم هو ما أجمع الناس على استحسانه لا ينظرون إلى لب الشئ وحقيقته ، بل إلى أقوال الناس فيه ، فمقدارك من الفضل بعدد ما تحرز من أصوات المادحين . وكأنما غاب عنهم أن الإخلاص قد يكون فى هذه الدنيا وأنه لم يصبر بعد من المستحيلات . بل جهلوا معنى الإخلاص بالمره . وكم من ساقط كاذب كان يسائل الناس من صميم قلبه سؤال مندهش غير متصنع ، « ألا ترونى رجلاً مخلصاً ؟ » أما لو حسبت نفسك أيها اللثيم الدقيق رجلاً مخلصاً ، لشد ما أخطأت معنى الإخلاص . وجملة القول إنه كان عصر موت لا حياة ، اللهم إلا حياة كحياة المكينات حركة بلا روح ، وكان الرجل العامى حينذاك لا ينجيه من الغرق فى عباب ذلك الكفر إلا ركوبه خشبة صلبة من حطام المذهب القديم والدين القويم - ملة القرن السالف الذى عفا الدهر رسمه وأقام على طلله ذلك البناء الخبيث الذى كل طوبة فيه قلب كافر ونفس ملحد ، وهو بعد لا يسلم من دوافع تيار الكفر وغوالب لجه وغوامر موجه . وهو هالك لا محالة إلا أن يكون صارم العزم ماضى الجنان شديد الأيد . فإذا كان ذلك لم تك حياته بعد إلا حياة يحفها الموت ، ولم يستحق من الأسماء إلا لقب « نصف بطل » .

(١) نسبة إلى مكيئة يقولها كارليل تهكماً بالقوم لأنهم كانوا يزعمون أن الكون مكيئة .

وكل ما وصفت الآن هو ما نسميه الشك وهو عنوان هذه الآفات وأصلها . ولو أرسلنا عنان القلم فى ذلك المضمار لاغتال شأوه ما ليس يحصى من الساعات ، ولكن فى قليل الكلم غنية عن كثيره ، وقد يُجتزأ عن طول المقال بقصيره . وإن كان ذلك المسمى « الشك » هو الداء العقام ، وسم الحياة الذى إليه وُجِّهت جيوش الهجاء ، وثُلث كنائن القذف منذ بدء الخليقة . وحرب الشك واليقين هى الحرب التى لا تنتهى : ولقد تظلم أهل ذلك القرن الشك أن نحاسبهم حساب المجرم ، وإنما هى سنة الدهر وتصرفات الحلال واضمحلال المذاهب القديمة ، وبلى الآراء العتيقة ، والإعداد والتجهيز لمذاهب سيجى بها المستقبل البعيد خيرا من القديم وأسمى ، فكيف نأخذ القوم بذلك وإنما هو قضاء محتوم ، وقدر محموم . وفى الرثاء لهم ورحمتهم مندوحة عن عدلهم وتأنيبهم لو نفقه . ولنعرف بعد أن إعدام الصور القديمة والأوضاع العتيقة ليس إعداما للحقائق الخالدة ، وإن الشك أو الإلحاد على شره ونكره ليس بخاتمة وإنما هو فاتحة .

ولقد أنكرت فى بعض كلماتى مذهب بتنام — مذهب الماديين ، وما إنكارى له بطعن على مؤسسه وأتباعه ، كان مذهب الماديين هو الجحود المحض بوجود الله ، واليقين الصراح بأن الكون خال من كل معنى إلهى ، وليس هو إلا مادة جامدة تتحرك بدوافع غريزية فيه — أقول : إذا كان مذهب الماديين هو الكفر المحض فهو عندى خير من مذهب الشك ، بما أنه استقرار وثبات فى ذلك الموضع الذى يحوم حوله أهل شك فى حيرة وتردد ، ورأى أن الإقامة على شر الطرفين أشرف من الحيرة بين بين ، ولأن يرزق المريض الشفاء أو الموت ، خير له من أن يظل وهو لا حى فيرجى ، ولا ميت فيبكى . نعم ورأى أن هذه المادية المكيئية^(١) هى اقتراب من المذهب الإيمانى الحديد ، بما أنها كانت اطراحا للتصنع والسفسطة ، وكانت كقول الإنسان لنفسه : « لا شك فى أن هذا الكون إنما هو مكينة ميتة من الحديد ، وما إلهها إلا الجاذبية وإلا الجوع والشره وحب الذات . فدعنا ننظر كيف يمكننا استخراج أكرم نتائجها

(١) المادية أعنى مذهب الماديين ، على حد قولهم النصرانية أى مذهب النصرانى ، والمكيئية نسبة إلى مكينة وقد مر تفسيرها .

يحسن إدارة العجلات ودقة تحريك اللوالب ! » أفلا ترون بعد ذلك فى جرأة المادية على التمسك بما تعتقد ، معنى توفر القوة والرجولة والشجاعة ، حتى يمكنك أن تسميها نوعا من البطولة ، وإن كانت بعد بطولة قلعت عيناها ! هى كما قلت الغاية القصوى لذلك الشك الذى أخذ بخناق القرن الثامن عشر - بلغها أصحابها بفضل الصراحة والصرامة والجرأة والشجاعة ، ويظهر لى أن جميع الكافرين والمؤمنين باللسان لا بالقلب ، سيصيرون يوما ما إلى المادية لو ساعدتهم جرأة وصدق نية . والمادية كانت بطولة عمياء ، وأنها أشبه النوع الإنسانى فى الماديات بجالوت فى طاحون بيت المقدس . يدور مفقوء العينين ، ثم لا يلبث أن ينشب يديه فى أعمدة الطاحون فينهار فوقه البناء خرابا ، ولكنه خراب يشفعه الخلاص .

ولكننى مع ذلك أقول - وأرجو أن أصادف قلوبا واعية - إن كل من لم يجد فى ذلك الكون إلا آلة جامدة فقد أضل سر الكون شر إضلال ، ولست أرى سقطة أشنع من أن يتجرد رأى الإنسان فى هذه الخليقة من كل معنى إلهى ، فإن ذلك كذب وباطل - كذب فى سويداء لبه وصميم كبده ، ومن كانت هذه عقيدته فأحرى به أن يخطئ الصواب فى كل شىء ، وأن لا يقع على سداد قط . فكل نتيجة يستنتجها أفسدتها عليه تلك الغلظة الجوهرية ، فهى جديرة أن تعد فى نظرنا شر أضلولة غير مستثنين أضلولة السحر نفسها ، وكيف وقد كان السحر يحمل أهله على عبادة شيطان حى ، والمادية تحمل أهلها على عبادة شيطان حديدى ميت ؟ عجبا لها إذا جردت الكون من آلهة ، أفلا أقل من أن تترك فيه شيطانا ؟ تبا لها لقد عرت ذلك الوجود الرائع من كل آيات الشرف والجلال والروعة والقدس ، وتركته جثة بلا روح وهيكل بلا حياة . فأنى للإنسان بعد ذلك بمساعى الأبطال ، ومآثر ذوى الهمم والمروءات من الرجال ، وإنما الذى يستفيد من ذلك المذهب الكاذب هو أن ليس فى الحياة إلا حب الشهوات والملاذ ومخافة الهم والألم ، وإن الحقيقة القصوى فى حياة المرء هى الحرص الممقوت على المدح والمال وسائر الماديات ، أو بالاختصار هى الكفر ، والكفر عقوبة نفسه .

أما الإيمان فهو عندى صنع العقل الراجح ونتيجة الذهن الصحيح ، وهو عملية خفية مبهمة لا توصف ، شأن كل عملية حية جوهرية . ولم نعط العقل لنعارض به

ونسفسط ، ونجادل ونغلط ، ولكن لنرى به حقائق الأشياء فنفهم ونوقن ، ثم نجعل اليقين أساسا نبني عليه الفعال ، ومبدأ نستهل منه فواتح الأعمال . وليس الشك نفسه بجرمة ، وكيف وما كان قط للإنسان في مسائل المذاهب والعقائد أن يقع على أول ما يصادف فيحتضنه ويعتقده ، ولا من العقل أن يركب الرجل رأسه في الرأي وينخرط في الأمر من غير تدبير ولا روية ، وإنما العاقل من بات يقسم رأيه ويشاور نفسه^(١) ولا يمضى الرأي حتى ينضج ويختمر .

لا كإمضاء جاهل عجرفى يركب الأمر قبل شد الحزام

فإذا فعل ذلك جاء رأيه مشحوذ الغرار محصد الحبل حصيف العقيدة ، جديرا أن يجلى ليل الخطوب والأتراح ، ويخلص بين الماء والراح ، ويكشف معالم الحق الصراح . والشك والبحث والتنقيب غريزية فى نفس كل عاقل ، وهى جولة العقل فى الأمر الذى يحاول أن يعرف ليعتقده ، وتنبت شجرة اليقين كما ينبت غصن الشجرة من مستتر الجذور ، ولكنه لما كان الواجب على المرء فى عادى الأمور أن يسر شكوكه حتى يؤول بها طول النظر والتقليب إما قبولا أو رفضا ، فما بالكم بأسمى الأمور وأعلاها التى يعجز عن صفة كنهها اللسان ؟ فأما أن يبرز المرء شكوكه ويحسب أن المجادلة والمناظرة هى أقصى مبلغ قوة العقل وأكرم مآثره ، فهذا مثل أن تقتلع الشجرة فتعكسها وتعرض على الأبصار منظر جذورها القبيح بدل ما كانوا يترقبونه من ناضر الورق ويانع الثمر وفينان الأفرع الخضر ، فترىهم منظر الموت والشقاء موضع الحياة والنماء !

والشك - كما قلت - ليس فى العقل فقط بل هو فى النفس والأخلاق أيضا ، وهو مرض الروح كافة . وإنما يحيا المرء باعتقاده شيئا من الأشياء لا بالمناظرة والمجادلة فى جملة أشياء . ولن ترى حالا أسوأ من أن يظل الإنسان وهو لا يؤمن إلا بالشئ الذى يزر عليه جيبه ، ويلتهمه بإحدى حواسه ويهضمه ! وهذه مسقطة ليس دونها وأبيكم مهبط ولا منحدر ، وإنما نسمى الأعصر التى يهوى بها الإنسان لهذا الدرك أمرض العصور وأخسها وأحقها بالحزن والبكاء ، وفى مثلها

(١) يقال : يشاور نفسه إذا جعل ينظر بأى رأيه يأتمر ، وذلك إذا اتجه له رأيان لا يدرى على أيهما يعتمد .

نشل يمين الدهر وتقرح كبد الدنيا ويجمد نبض الحياة ! وفى مثلها تغيض عيون الخير ، وتطمس معالم البر ، وينقطع العمل الصادق الحر ويقوم بدله الخدق بالتقليد والمحاكاة ، وهو عنوان رق الأنفس وأسر الأذهان ، وعمه البصائر والقلوب . وهنالك تنتهب أموال الدنيا وتهمل واجباتها وتستلب خيراتها ، لا تؤدى حقوقها ولا تصلح شئونها . وكيف وقد ذهب الأبطال ، وجاء كل كاذب دجال ؟ والحقيقة أنه لم يأت منذ العهد الأخير من دولة الرومان قرن هو أحفل بأهل الزور والدجل من ذلك القرن الثامن عشر . اذكروا - رعاكم الله - رجال ذاك القرن وانظروا ماذا كانوا يتصنعون من حمد الفضائل ، وذم الرذائل . وهل رأيت عندهم إلا قولاً بلا فعل ، ومنطقاً بلا عمل ، شقشقة هادرة ، وهمما فاترة ، وألسنة نحالة ، وقلوباً كاذبة ، وأعيناً تندى ، وأفئدة كالصخر أو أقسى ، ونفوساً وسنى ، وجعجعة ولا طحنا ؟ وكأنى بهم قد حسبوا أن الغش والنفاق والكذب هى من عناصر الحق التى لا يقوم إلا بها . ولقد بلغ من ذلك أن الوزير شاتام ذلك المشهور بالجرأة والشجاعة يتصنع المرض ، ويدخل مجلس البرلمان ملفوف الأعضاء فى الخرق كأنه مكسر العظم مجبره ، ويشيع عن نفسه أنه فى أشد بُرجاء الداء ، وأنه لولا حقوق الشرف والمروءة وحرمة الأوطان ، لما خرج يتحامل قطيع الخطو مبهور الأنفاس . حتى إذا انقطعت به أشواط البيان فى ميادين المناظرة ، وطارت به أجنحة البلاغة فى آفاق المناقشة والمحاورة ، نسى ما قد تكلفه من التمارض فاستل ذراعه من لفافته استلال الصارم الجزار من غمده ، وجعل يهزه ويطوحه فعل الخطيب المصقع والمنطيق المفاوة ! وكذلك ما انفك شاتام هذا منذ قرع أبواب السياسة إلى أن قرع عليه الحمام أبواب الحياة ، وهو يمزج بين الصدق والكذب والحق والباطل . نصفه للشرف ونصفه للخسة ، وشطره لله وشطره للشيطان ، ولعل حجته فى ذلك أن الدنيا لا تنال بإرضاء الناس ، والناس معظمهم بله مخاديع . فمن أراد الدنيا فليجعل الغش والخديعة ذريعتيه ، فكيف والحال هذه تؤدى حقوق العالم ؟ وماذا ينشأ عن ذلك المذهب العقيم من البؤس والشقاء ، والمحن والأرزاء ؟

وكأنى بك قد وقعت على أصل أدواء العالم حينما تسميه عالما كافرا — عالما
عديم الإخلاص — عالم كذب وباطل — عالما شيطانيا ! وهذا هو ما أراه منبع كل
آفة اجتماعية — منبع الثورات الفرنسية .

وأرى أنه لا بد من تغير هذه الحال ، ولست أتوقع للعالم خيرا ونفعا حتى
يحدث ذلك التغير ، وإن أملى الوحيد فى حسن المآل ، وعزائى عما أراه من شقاء
العيش وبؤس الحال ، هو أنى أرى ذلك التغير قد بدأ وأنه مستمر . وإنى قد أجد
من آن إلى آخر الرجل المؤمن الذى يعرف أن هذا العالم حق ، وما هو بأكذوبة
ولعبة ، وأنه هو نفسه حى وليس يميت ولا مفلوج ، وأن العالم حى يخفق فيه
روح الله ويجول فى أرجائه رونق الجمال والجلال ، وأنه كحالته فى أوائل الزمن
وبكرة الدهر ! وعندى أنه متى عرف أحد الناس ذلك عرفه الكثيرون ، بل عرفه
الجميع على مدى الأيام ، وكيف أنه جلى واضح لو كشف الغيبى عن قلبه الغطاء ،
وطرح عن إنسان عينه الأقداء ، وكأنه بذلكم الرجل المؤمن وهو ينظر من دولة
الكفر فى أعقاب نجم آفل ، وبقية ظل زائل ، ويستقبل من دولة الإيمان تباشير
صبح أغر ، ونفحات روض عاطر ، ولا يرى الرسوم القديمة على متانتها إلا
خيالات تهم بالزوال ، وأشباحا تشد للرحيل الرحال . وكأنى بذلك المؤمن
يخاطب دولة الكفر المدبرة بقوله : « ما أنت بحق وإنما خيال زور ، فاذهبى وعليك
العفاء ! » نعم ستذهب دولة الإلحاد بجواشيتها من ماديات وكفريات ، ورسوم
كاذبات ، وما ذلك القرن الثامن عشر بعد إلا فلتة من فلتات الدهر لا تجيء حتى
تنصرف ، وإنى لأتفاعل للعالم بإقبال السعد والنجاح ، والخير والفلاح ، ودولة
الإيمان يقوم عمودها ، ويخضر عودها ، ويضرب رواقها ، وترف أوراقها ، وعند
ذلك يروح العالم بقدح رابح ، وسهم راجح .

بل ما لنا وفوز العالم وربحه ؟ لشد ما لهج الناس بذكر العالم ونجاحه وخيئته ،
وإنما يجب على كل رجل أن يعرف أن له حياة تعنيه شئونها ، وتعوده أعباؤها ،
مهما يكن من أمر الدنيا ، وسواء أفلح العالم أو أخفق ، وأن عمره إنما هو لمحة
بين أبدين ، وما للإنسان بعد الموت إلى هذه الحياة من كرة ، فجدير بنا ألا نعيش
عيشة النوكى الأصفار من كل فضل ومكرمة ، ولكن عيشة النبلاء العامرى
النفوس بالحق والهدى . وما لنا والاهتمام بالدنيا وما فى نجاحها ربح لنا ولا فى

خبيثتها خسارة ، وإنما هم العاقل أن يعنى بأمر نفسه ، وفى ذلك مندوحة له عن غيره ومشغلة . وأحق الناس بالالتفات إلى هذه النصيحة قوم أولعوا بالتطواف فى أنحاء الأرض قصد ترقية الأمم والشعوب ، وللأمم والشعوب إله أرحم بهم من كل مخلوق ، وأملاً بتعليمهم وترقيتهم . وفكرة الجولان هذا من نتائج تصنع القرن السالف وكذبه ، فليتنجه بها أهل هذا القرن ، وليكن لهم فى إصلاح شئون أنفسهم شغل عن القيام بمصالح الغير .

وفى تلك الأحوال وهاتيك الأزمان ، كان يعيش كتابنا الثلاثة جونسون وبارنز وروسو — فى أزمان أصفرت الحياة فى أثنائها من كل أثر للحق والصدق . فأما الحقائق القديمة فكانت قد هدرتها ، وخرس لسانها ، وأما الجدية فكانت أجنة فى بطن المستقبل لا جرس لها ولا نبس ، ولم يك لاح فى ظلمة الكفر المظلمة فجر اليقين وصديق الإيمان ، ولم يك فى نبع قفار ذلك الكذب والباطل ينبوع حق . كلا ولا الثورة الفرنسية نفسها التى هى على علاتها نوع من الحق ، وإن كان بعد حقاً ملتفعا برداء من نار جهنم ! وما أبعد ما بين سيرة لوثر ذات الغاية المحدودة ، وبين سيرة جونسون المحفوفة بالمزاعم والفروض التى عادت لا تقبل ولا تفهم ! لقد وجد محمد أباطيل زمنه مصنوعة من الخشب قابلة للحرق فأحرقها وأخلى من عقباتها سبيله ، ولكن أباطيل زمن جونسون لم كانت مما يحرق بالنار فبقيت فى طريقه . وما برح كل قوى من الرجال يجد الحياة ملأى من الأعمال — أعنى من الصعائب والآلام — بما يستفرغ من جهده ، فأما أن يظفر المرء مبین الظفر فى عصر كعصر جونسون فذلك أصعب الصعائب — فلم يك مصاب جونسون قاصراً على العوائق وفساد النظام والفقر الذى حبس رزقه عند قرشين فى اليوم ، بل لقد كان جونسون قد سلب نور روحه ، فلا معالم تهديه فى الأرض ، وأبرح من ذلك أن أصفرت سماؤه من كل نجم ! فلا غرو أنه لم ينل النصر المبين من هؤلاء الثلاثة أحد ، وحسبهم أن جاهدوا فأبلاوا ، ولذلك أقول عرجوا بنا على معاهد أولئك الأبطال ، لا كأبطال فازوا وظفروا بل كأبطال جاهدوا فصرعوا وقد مهدوا لنا السبيل — ثلاثة جبابرة قاتلوا فى حرب الكفر والإيمان فنسفوا من جبال الباطل ما بات أثراً جسيماً على قبورهم ، فقفوا بنا على تلك الأحداث فإن فيها عبرة وتذكرة .

لقد سبق لى الكتابة عن هؤلاء الأبطال قصدا أو عرضا ، ولا أراكم إلا عالمين من سيرهم ما لا حاجة بنا إلى ذكره ، وإنما نتكلم عنهم الآن كأنبيا ذلك العصر العجيب . وإن فى الكلام عن حالتهم وحالة عصرهم من تلك الوجهة — أى من وجهة أنهم أنبياؤه — بحال لجملة آراء . وإنى أراهم الثلاثة رجالا ذوى صدق يحاولون فى إخلاص أن يبلغوا غاية الصدق ، ويثبتون أقدامهم فى أرسى قواعد الحق ، فكانت طبائعهم من أكبر البواعث على مليهم إلى سنة ، إذ كان لهم الحق من عظمة النفس ما لم يستطيعوا معه أن يقيموا على الباطل ، وقد جعلت سحب الأضاليل والأكاذيب تنهال تحت أقدامهم فلم يكن لهم إلا على أديم الأرض معتمد ، وإلا فلا مستقر لهم ولا مطمأن . وقصارى القول إنهم كانوا أبناء طبيعة فى عصر كلفة وتصنع — كانوا رجالا مخلصين فى حين لا إخلاص ولا صدق ، وفدوا بنفوسهم الشريفة على هذا العالم وقد طال عهده بالشرف والمروءة .

فأما جونسون فما زلت أراه رجلا من اعظام رجالنا — قوى النفس متين الخلق ، شريف الطبع مفعم الفؤاد من كوامن الكرم ، بما عجز عن استثارته جهود العصر الذى عاش فيه . ولو صادف من إيمان جيله جوا أكثر نورا وحرارة لانفجر فؤاده بأعذب ينابيع الفضل والكرم ، ولجاز أن يصبح ملكا جليلا أو إماما كبيرا أو شاعرا فحلا . وعندى بعد وأنه ليس من العقل أن يشكو المرء عصره وقومه ودهره ، ولا فائدة فى ذلك ولا ثمرة . وهب عصره عصر خبيث فما باله لا يطيبه ، وجيله ردىء فما له لا يحسنه ؟ وكان جونسون فى شبابه معسرا رث الحال عائر الأمل منفردا . ولا تحسبوا أن سعة الرزق وفسحة النعمة كانت تجلى عن عيشه سحب الهم لو أنها اتفقت له ، وذلك أنه كان مصابا بالسوداء والألم الجثمانى والروحانى الناشئ من محاربة نفسه لجيوش الضلال والكفر ، فكان كما حدث اليونان فى خرافاتهم عن هرقل إله القوة — إذ قالوا إنه كان يلبس قميصا من نار فهو منه فى عذاب أليم وبلاء مقيم ، ثم لا سبيل إلى نزعته ، وكيف وإنما هو بشرته وجلدته ا وعلى هذه الحال كان لا بد أن يعيش يائسا من الخلاص والنجاة .

يا ابن بوران لا مفر من الله — ولا من قضائه المحتوم

و كأنى به يمشى بين القوم قد قصر خطوه المرض ، وتركته الوحشة غريبا فى الأقربين ، يحمل بين جنبيه فؤادا ضخما شرها إلى المكارم منهوما بالعلی ، وروحا غاصا بخلیط مشوش من مبهم الأفكار والخواطر يلتهم كل ما يصادف من فائدة دينية . وربما قنع من الفوائد الدينية بما قد يعثر عليه من أقوال الكتاب والشعراء . وحقا لقد كان سيد أهل زمانه ونابغة قومه الذى كان يجزبه على تلك العظمة والنبوة درهمين فى كل يوم . ولكن ماذا يؤثر ذلك فى نفس جبارة لا تهزم ، وعزم ماض لا يكل ، وفؤاد صارم لا يقل ، ثم لا تنسوا تلك الحكاية المأثورة عنه – حكاية الحذاء – وذلك أن جونسون كان قد بلى حذاءه وبصر به بعض الكرماء فى نعليه الباليين فرحمه ، ثم عمد إلى حذاء جديد فاشتراه له ووضع على باب داره فى خفية . حتى إذا جاء جونسون ورفع النعلين يحدد إليهما النظر من عينين كليلتين ، أخذته النخوة وشمخ بأنفه الكبر فرماه من النافذة ، ومعاذ الله أن يتدلى البطل العظيم إلى مهابط الشحاذة ويسف إلى محاط السؤال ، وقد يحتمل القر والثلج ولذع الجليد للإخصمين ، فأما الشحاذة فلا . فانظروا هداكم الله أى قوة كانت فى ذلك الرجل المعوز البائس ، وأى إباء وعزة ، وأى توكل على الله واعتماد على النفس ! إنى أرى فى جوف هذا الرجل عالما من القوة والخشونة ، والبؤس والفاقة ، ولكنه بؤس أبى عفيف ، وفاقة عزوف أنوف ، وهذه الحادثة عنوان على حياة الرجل جميعها . نعم لقد كان رجلا حرا جديدا الديباجة وليس بأخى باطل خلق الأديم ، ولا ذليلا ولا شحاذا ، وأولى بكل ذى مروءة أن يقوم على ما وهبه الله ولو كان الوحل والترب ، لا على عطايا الغير ولو كانت الفضة والذهب !

ومع ما نرى لجونسون من وعورة الإباء ، ومرارة الكبرياء ، وشدة الأنفة ، أكان قط رجل أرق حشا منه ، وأسلس انقيادا نحو الأمر الشريف والمعنى المقدس ؟ وقدما كانت النفوس الكبيرة منجذبات تلقاء ما هو أشرف منها وأسنى فؤادا ، نحو كل شيء . أنبل منها وأسمى ، وإنما صغار النفوس ودقاقها هى التى لا تفعل ذلك . وجونسون فى ذلك خير مثال لما ذكرت قبل من أن آية المخلص أنه حسن الطاعة ، وإنك لا ترى الخضوع والخشوع لمعانى البطولة إلا فى عصر كله أبطال . وقد قلت إن جوهر الفضل الكرم ليس فى أنه جديد مبتدع . فلقد

كان جونسون فاضلا وكريما مع إقامته على قديم الآراء ، ووجد في ذلك القديم حاجته وبغيته فعاش به عيشة شريف حر ، وما وجد بطل وشأنه في ذلك غريب ، لأنه مع إقامته على تلك الرسوم القديمة الميتة لم يكن من أهل الأكاذيب والظواهر ، وإنما أخا حقائق وأصول ، وذلك أن الرسوم القديمة التي أقام عليها كانت تحمل في أجوافها عنصرا من الحق . وعجيب والله من هذا الرجل إبصاره أسرار الكون المقدسة ، وحقيقة الحياة الكبرى ، في ذلك العصر الورقي^(١) المحلل الجذب المشحون بالكلفة والغش والتصنع ، ولا نعلم كيف وفق ما بين مذهبه ومذهب ذلك العصر ، بل كيف اطردت له عيشة فيه ؟ وحقا إنه لأمر جدير بالتأمل المشفوع بالاحترام والرحمة والإجلال . والله أشهد أن من أعجب الأمكنة عندي وأقدسها تلك الكنيسة — كنيسة سانت كلمنت — التي كان جونسون يعبد الله بها في زمن فولتير ، في زمن الكفر !

وإنما عد جونسون نبيا لأنه كان ينطق عن ضمير الطبيعة ، وإن كان بالأسلوب الاعتيادي المتصنع . أو ليس في كل أسلوب شيء من التصنع ؟ وما كل شيء متصنع بأكذوبة ، بل كل شيء متصنع كان في مبدأ أمره حقا . وما نسميه بالرسوم المتصنعة والاعتبارات الباطلة لم تكن في أوائل أمرها بمنكرات ، ولكنها كانت صالحة ضرورية . وما الرسوم والاعتبارات إلا طرق وأساليب وعوائد توجد حيث يوجد الإنسان ، وإنما تتكون الرسوم كما تتكون السبل ، وتنهج مفضية إلى غاية شريفة يؤمها الجسم العديد من أختيار الناس . وأصلها أن رجلا على الهمة شديد الإخلاص يجد السبيل إلى فعلة من الفعال — قل مثلا بث شكره لله ، أو تأدية السلام لرجل من الناس . أقول مثل هذا العمل أو ذاك على ما ترون من صغره هو في الحقيقة جسيم ، وإنما صغرته في أنظاركم العادة ، وما كان ليوجد في هذا العالم لو لم يقدر له الله مبدعا ومبتكرا هو أول من نطق به وأوجد . فهو لذلك بطل وشاعر ، بما أنه قد أعرب عن معنى شريف ما زال يضطرب بفؤاده وبأفتدة الآلاف المؤلفة من خلق الله ، فهذه طريقته في التعبير عن ذلك المعنى — هذه آثار خطاه — هذه مبادئ المنهج ، ثم يحىء رجل آخر فيترسم آثار الأول

(١) نسبة إلى الورق أعني أن موضوعات الكتاب كانت كلها مادية ، فهي مثل الورق التي تكتب عليه .

وتلك خطة أسهل ، يترسم آثار الأول مع إصلاح وتصحيح وتحسين وتنقيح . وكلما زاد ركاب الطريق اتسعت أقطاره وانفسحت نواحيه ، حتى يحول منهجا واضحا وسبيلا مضروبا . يمتطيه كل غاد ورائح . وما دام لذلك الطريق غاية مقصودة ، ونهاية محمودة ، فهو مألوف للناس مرضى لديهم ، حتى إذا ضاعت الغاية هجر الطريق . فالرسوم — رعاكم الله — تكون فى أوائل أمرها مملوءة بالمعانى الجليلة ، ولكم أن تسموها جلودا وأجساما تسكنها حقائق حرة صحيحة ، ولولا ذلك لما وجدت تلك الرسوم . وقد قلنا عن الأصنام نفسها إنها لا تكون باطلة حتى تعتورها الشبهة فى نظر عابدها ويضعف إيمانه بها ، وما أحسب أن كثرة ما تعودناه من ذم الرسوم منسينا قيمة الرسوم الصادقة وفضلها ، وإنها كانت وسوف تكون ألزم ما نحتاجه فى سكنى الدار الدنيا من الفرش والأثاث .

واذكروا أيضا كيف كان ذلك البطل يتحدث أيام صغره بإخلاصه إذ لم يكن يشك فى أنه من أكثر الناس إخلاصا ، ومن أكفئهم للقيام بأى جليل من العمل . ولقد كان فتى شديد الجِد والاجتهاد يستنزل الرزق من شاهق ويستدر به صخرة صماء ، ولو طلبه من غير طريق الحق لأغدق عليه ودر ، ولكنه رجل حق لا يقيم إلا عليه ولا مضطرب له من دونه . أما ترون فى ذلك لزوما لمنهاج الحق من غير افتخار ولا إعلان ، لا كمن خط على جبينه بالمداد كلمة « حق » يظل الناس ولا شأن لهم إلا يتحدث به وإطراؤه ، وكذلك ما برح الفضل زينة من لا يتبه به ويعجب .

كان جونسون نبى قومه وكان كلامه لهم إنجيلا ، شأن أمثاله من الأبطال وأضرابه . وكان أنفَس ما قال لهم يدور حول موضوع الحزم ، وما أعظم ذلك الموضوع وأجله فى هذه الدنيا التى قلت فيها معلومات الإنسان وكثرت واجباته . وكان فحوى ما علمه القوم هو : « قبيح بكم أيها الناس أن تغمسوا أنفسكم فى غمار الشك وأعماق الفكر فى عالم قصرت فيه المدارك وحسرت البصائر ، وثقلت أعباء القروض وموازين الحقوق . إنكم إن تفعلوا ذلك تلقوا شقوة وبؤسا ، وتكونوا كالذى تخبطه الشيطان ، وأنى يكون للملحد الجحود عقل يعمل به ويعيش ؟ » . هذا هو إنجيل جونسون الذى لقنه الناس وعلمه ، وشفعه بإنجيله الآخر الذى فحواه : « خلصوا عقولكم من شوائب الرياء ودوسوا على الثلج

والجليل في نعالكم البالية لا في أحذية الغير ، ذلكم خير لكم » (كما كان يقول محمد^(١)) وعندى أن هذا إنجيل حكيم - أحكم ما تيسر في هذه الأوقات .

أما كتابات جونسون فهي وإن نفقت سوقها قليلا فقد أصبحت بين أهل هذه العصور بضاعة كاسدة ، ولا أنكر أن كثيرا من آراء جونسون قد أصبح اليوم قليل القيمة ، ولكن أسلوب تفكيره وعيسته سيبقى على القيمة جديد الرونق أبد الدهر ، وإنى لأرى في كتب جونسون من أبين آيات الفضل وأرجح براهين الحكمة والعقل مالا يدفع ولا يفل ، وما هو جدير أن يرحب به على علته مهما كانت ، لأنه كلام حر صريح أريدت به أغراض سامية وأمور جلية . أما أسلوبه ففيه جفاء وصلابة - خير ما وفق إليه إذ ذاك - أسلوب ضخيم البناء يابس المفصل ، كأنما يسير الهوينا في أرجح رزاة ووقار قد أصبح اليوم غير مألوف ولا مستظرف ، وربما سمعت له طيننا وجلجلة لا يوازيهما ما ضمن من المعنى ، ولكن هذه كلها مغتفرة في جانب ما أودع كلام الرجل من الحكم والآيات .

وإنما العبرة بالمعاني دون الألفاظ ، والأرواح دون الأبدان ، وكم من أسلوب حلو مونتق خلو من المعنى ، كالقشرة العجيبة النقش لا لب فيها ، والصدفة المصقولة ولا درة . وما كانت أرباب تلك الأساليب الكاذبة إلا جناة مجرمين ، خليق بكل ذى دين ومروءة ألا يواقع خطيئتهم ويركب سننهم ، وجدير بكل قارئ أن يتحامي كتبهم ويحتنب أقوالهم : ولو أن جونسون لم يترك لنا إلا معجمه (قاموسه) لكان حسينا دليلا على رجاحة عقله وحدة ذكائه . ومن اطلع على وضوح تعريفاته وحدوده ومتانة مبانيه ، وصحة معانيه وحسن مذهبه كان خليقا أن يعده أحسن المعاجم جميعها . وإنى لأنظر إليه فأراه في جمال تنسيقه وفخامة صناعته ، كالقصر المشيد متشاكل الأطراف متشابه الجوانب ، يطرد فيه روح النظام ويجول في حجرته رونق الإتقان والصناعة - ولا تفوتنا كلمة عن صاحب جونسون وتابعه اللورد بوزويل - ذلك الذى جاوز الحد في إجلاله وتقديسه لجونسون . وقد بالغ الناس في تفنيده على ذلك وغلوا في احتقاره وإصغاره ، ورغمنا من أن لهم بعض الحق في ذلك فإنهم بعد جائرون وظالمون . وعندى أن

(١) يشير إلى الآية القرآنية ﴿ ذلكم خير لكم لو كنتم تعلمون ﴾ .

إجلال بوزويل لجونسون ما زال من أجل الآثار ، وأعجب الأخبار ، وماذا أعجب من منظر اجتماع ذينك الرجلين – اللورد الاسكوتلاندى الأبله المغرور يدنو حانى الرأس خاشع البصر إجلالا وهيبة نحو الأستاذ الجسيم فى أطماره الرثة التربة ، وغرفته الحقيمة الخاوية . هذا والله صريح الإجلال لنفس كبيرة وروح شريف ، وهذه عبادة الأبطال فى زمن أقفر فيه العالم من الأبطال والعبادة . بل كيف أقفر منهما وقد بلغ أكمل صورة فى هذين الرجلين ؟

ولعل الوجود ما خلا طرفة عين من الأبطال وعبادة الأبطال ، ولا جناح علينا أن ننكر ما قاله القائد الفرنسوى « دى كوندى » من أن الألفة تذهب الإجلال ، حتى أن البطل الكبير لا يكون بطلا فى عين خادم مرقده ، وأن نرى أن البطولة أشرق من أن تلمس الألفة شمسها . فإذا وجد الخادم الذى لا يرى عظمة سيده ، فالذنب عليه فى ذلك لا على السيد العظيم ، ولعل الخادم حسب أن البطولة هى حلة موشاة وتاج وإكليل ، وأبواق تسجع ؛ وأذبال ترفع . وإذا كانت الحقيقة كذلك فقد كان بالقائد الفرنسوى أن يجعل كلمته هكذا : « لا ملك يكون سلطانا فاخر المظهر فى عين خادم مرقده » ولو عمد إنسان إلى الملك المهيب لويز الرابع عشر فنزع ثيابه وتركه عريانا ، إذن لرأيت شخصا حقيرا لا موضع فيه لإجلال خادمه . والخادم الذى يحمل فى جوفه روح خادم أى روحا وضيعه ليس خليقا أن يفهم بطولة البطل ! وإنما يفهم البطل من خالط نفسه جوهر البطولة .

أفلا ترون بعد أن إجلال بوزويل لجونسون لم يعد موضعه ، وأنه ما كان ليجد فى بريطانيا نفسا أحق بحنو الهامة وثنى الركبة من تلك النفس الكبيرة . وهل كان جونسون إلا رجلا عظيما أركب من عيشته ظهر صعبة شمس ، فراض جهده من صعوبتها وذلل من شماسها ، وخلق فى مضطرب فوضى الأقلام ومختلط فوضى الأديان والسياسات ، فمهد لنفسه منهجا واضحا وسط تلك العناصر المتصادمة ، واستطاع على رقة حاله ووهن جسده وغبرته وشعته ، أن يستخدم تلك القوى المتضاربة المتلاطمة بما كان فيه نفعه وفائدته ، وذلك بهدى الله وبكوكب إرشاد لاح له فى سماء عالم الأسرار فوكل به عينا كلوعا ، وعقد به

لحظا علوقا ، وجعله قبلة سفينته فى بحر الحياة العجاج ، صافحا عن كل مغرية ومغوية ، ومال عن حزب إبليس ولم يرفع على قلعة الكذب لواءه ..

* * *

أما روسو فلم يبلغ فى البطولة الدرجة العليا ، وليس بمصيب من إطرائى قسط جونسون ولا نصيب بارنز ، وما هو عندى بالرجل القوى وإنما رجل مريض النفس سريع الانفعال كثير النوبات العصبية ، ولم يكن أوتى فضيلة الصمت — وأى فضيلة وأيكم ومزية قصر عن غايتها معظم الفرنسيين بل معظم أهل هذا العصر ، والرجل القوى هو فى مذهبي من كتم مصيبته وأخفى عن الناس دخان نيران أحشائه ، وقد كان يعوز روسو الجلد والصبر على الشدائد ، وهما أول شروط البطولة . وإنه لمن الخطأ أن يسمى الناس سرعة الهياج قوة ! والرجل المريض الأعصاب ليس جديرا أن يسمى قويا وإن عجز ستة رجال عن إمساكه حين تثور به النوبة الشديدة ، وإنما القوى من استقل بالحمل الفادح ثابت الوطأة قائم الصلب . وخلق بنا فى هذه الأوقات الكثيرة الصخب العالية الصراخ ألا نزال نذكر ذلك ، والرجل الذى يعيه أن يسكت حتى يحين وقت الكلام والعمل ، هو رجل عاثر الرأى جائر عن القصد .

وأرى فى وجه روسو عنوانا على خلقه .. حاجيين مشرفين وعينين غائرتين تجول فيهما حيرة وقلق ، ويضطرب فيها نزاع ولهف ، ووجها حافلا بآيات الشقاء الوضع ومعنى السوقية والحطة — عيوب لا يعوض منها فى ذلك الوجه إلا آية الجد الشديد والحدة الصارمة . وقصارى القول إنه وجه رجل متعصب وبطل مشوه ، وإنما نذكره هنا لأن فيه — على علاته وهى كثيرة — أول صفحات البطولة : الإخلاص . ولست مخطئا إن قلت إنه لم يك قط فى الأبطال من هو أشد إخلاصا منه ، حتى لقد كان له من شدة الإخلاص ما لا يقوم له طبعه الحاد الضعيف لولا هذا الإخلاص — طبعه الذى بلغ به أخيرا من المناقضات المنكرة ما يوشك أن يكون جنونا . بل لقد أصابه بالفعل فى آخر أمره صنف من الجنون ، وذلك أن أفكاره ركبته كما تركب الشياطين الإنس ، وساقته أعنف السوق إلى كل قحة ومهواة . وكانت منشأ عيوب روسو ومصدر شقائه ، هو ما يعبر عنه بهذه اللفظة المفردة « الأثرة » حب الذات ، وهو منشأ كل عيب ومصدر كل

شقوة . ولم يرُض روسو نفسه على قذع النفس . طلعة إن لم يزعها الإنسان نزعته به إلى شر غاية ، ولم يشحذ عزمته لقهر جيوش الأهواء والشهوات ، وكان قد ملكه جوع خبيث للشهرة وغير الشهرة . وأخشى أنه كان رجلا كثير الغرور والزهو ، به غلة إلى مدح الناس . وتذكرون قصته مع السيدة « جنليز » وذلك أنها سارت به إلى دار التمثيل بعد أن اشترط عليها أن يخفى نفسه عن أعين شهود التمثيل ويجلس بحيث لا يراه إنسان ، قائلا : « أنا لا أود أن يرانى الناس هناك ولو أن لى الدنيا بما فيها » . ولكنه اتفق رغما من ذلك أن أرخى الستر ورأى القوم روسو ولكنهم لم يحفلوا به كثيرا . فأظهر أشد الغضب وقضى ليلة أسفا مكتعبا ، ولم يفه إلا بحر الكلام ومضيض القول . ولم يزل من عقيدة السيدة أن غضب روسو لم يكن لرؤية القوم إياه وإنما لقلّة احتفالهم به حينما رأوه . وأسفاه على ذلكم البطل ! لقد خالط دمه سم الأنانية ، وتقسم فؤاده الريبة والوحشة والتبرم بالناس والاكتئاب والإطراق والهم ، حتى أصبح لا يطيق عشرة إنسان . وكان رجل من سادة الريف يتردد إليه ويجالسه فرحا به مسرورا بحديثه ، مبديا له أصدق آيات الوداد والولاء ، فجاءه ذات يوم فوجده فى أسوأ حال من الغم والاكتئاب بلا سبب ظاهر . وبينما الرجل فى حيرة من ذلك المنظر العجيب صاح به روسو وعيناه تلتهبان غضبا : « سيدى لا يدر بخلدك أنك تستطيع أن تموه على سبب زيارتك هذه فإننى أعلم به منك . لقد جئت الآن لتفاجئنى وسط مصائبى وآلامى ، وتنتظر أى عيش نكد أكابد ؟ وأى حال شديدة أقاسى ؟ وكيف أتحرق وأتوجع ؟ وماذا أذوق وأتجرع ؟ فليكن ذلك يا سيدى ، وهاك مرجلى على النار فانظر بها عنوان الفاقة ، واستمع من أزيزها قصة البؤس . انظر سيدى فى تلك القدر ، هل ترى بها إلا رطلا من اللحم وكراثا وثلاث بصلات ؟ وأنت بعد ذلك فى حل أن تقول ذلك لكل من لقيت » فمثل هذا الرجل قد جاوز مصابه كل مصاب ، وعدا فى الشذوذ كل مقدار ، وأصبحت أعماله تلك نواذر حديث الناس وفكاهات سمرهم يلهون بها ويضحكون منها ، وما هى بلهوه ولا ضحك . وكذلك رجفات المصارع المتخبط فى دمايه واقته سكرة الموت ، هى مصيبة له وعذاب ، وهى فرحة الجمع المشاهد ولذته .

لا تحسبوا أن رقصى بينكم طربا فالطير يرقص مذبوحا من الألم

وبعد كل ذلك فلا يسعنا إلا القول بأن روسو هذا ، قد عمد نحو الحقيقة فى
عصور الباطل بتلك الكتب التى كتبها - العقد الاجتماعى وإشاداته بذكر الطبيعة
والحياة الهمجية الطبيعية ، وكان يؤدى بذلك لقومه رسالة نبى حسب طاقته
وطاقة الوقت ! ومن العجب أنه كان فى فؤاد روسو هذا وسط هذه العورات
والخسائس ، والحمق الذى كاد يكون جنونا ، جذوة من النور الإلهى . وما ذلك
إلا أن الله قد أثار بعد تقادم عهد من بين ذلك الكفر والجحود والفسوق ، شعورا
قويا فى فؤاد ذلك الرجل يوحى إليه أن هذه الحياة حق - وأنها ليست بفكرية ولا
نظرية من النظريات ، وإنما حقيقة عظيمة هائلة . بذلك أوحى إليه الطبيعة وأمرته
أن يصدع فصدع . فإذا لم يأت قوله محكما بليغا فإنه جهد المجتهد . إن خطاياهم
وشواذه وسرقته الأقمشة ، وشروده فى الآفاق وبؤسه وشقوته كل هذه آيات
الحيرة والدهشة والترنح التى تبهر رجلا حمل من الأمر ما لا طاقة له به ، وترك فى
مجهل طامس الأعلام لا يعرف كيف يهتدى فيه .

أما مكانه فى الكتابة فمقدور فوق قدره . وعندى أن كتاباته كعقولة مريضة
ولست من النوع الذى أسميه صالحا ، وإنما يمتاز روسو فى كتاباته بتغلب
الحيوانية والمادية ، وتلك هى التى تعينه على تصوير صوره المثقلة بالزخرف
الجذاب . ولكنها صور .. خلاف كرائم الصور الشعرية مما أبدعه عقل شكسبير
أو (جيتا) كلا ! ولا كتصويرات (والتر سكوت) ، وكل من نظر فى بدائع
هؤلاء ففهم ، عرف الفرق بينهما وبين مصنوعات روسو ومن رمى على منواله ؛
عرف الفرق بين الجمال الحر والكاذب ، وظل جديرا أن يفرق بين هذا وذاك ما
عاش ، فإنه فرق كالذى بين نور الشمس ونور المراسح الصناعى .

لقد تبينا فى جونسون ماذا يستطيع البطل أن يقدم إلى العالم من الخير ، رغما
من كل ما يحفه من المكاره والآفات . أما فى روسو فلتبين أى شر وضر وبلاء
قد تصحب ما يهديه البطل من النفع والخير . والحقيقة أنا لو ننظر إلى موقع
روسو من التاريخ ، لرأينا مشهدا جلالا ومنظرا هائلا . ولشد ما أساء العالم إلى
نفسه بإساءته إلى ذلك البطل . وماذا أفادهم أن شردوه وتركوه يأوى من الفاقة
إلى أسطح المنازل يحدق به من همومه وأحزانه شر صحابة ، ويطيف به من
العوز والكربة أنحس خليط ، شريدا طريدا يلجأ من غار إلى كهف كأنه الريح

الهُوجاء حيرى مولهه (حسرى تلوز بأطراف الجلاميد) بلى ماذا أفادهم أنهم ألحوا عليه بالضرب والأذى ، وهاجوه وأوغروه حتى تميز من الغيظ وجن جنونه ، وحتى جعل يعتقد أن العالم شر والمدنية سوءة وجريمة ، وأن الدنيا أكبر أعدائه ، وقانونها الظلم وناموسها الجور وأساسها اللؤم ، وكان أولى بالعالم أن لا يعادى مثل هذا الرجل ويستنزل عقابه ونقمته ، فيصبح معه كما قيل :

حداك إلى الحين حتى استشرتني عليك وإنى فى عرينى لمخدر
لقد قدر العالم على إلقاء ذلك البطل إلى الأسطحة ، وعلى اتخاذه أضحوكة يسخرون منه كما يسخر بالبله والمجانين ، وعلى إجاعته وتركه يتضور من السغب كالوحش المسجون . فهلا قدر العالم على منعه من إضرار الثورة وإشعال الأرض نارا تلظى . ولقد وجدت الثورة الفرنسية إنجيلها فى كتابات روسو ، وقد أحدثت آراؤه الشبيهة بالجنون فى آفات المدينة وتفضيله عيشة المتوحشين على عيش المتمدينين ، جنونا فاض فى أنحاء فرنسا وغمرها ، ولنا بعد أن نسأل ماذا عسى العالم وملوك العالم أن يبلغوا من ذلك الرجل وماذا يصنعون به ؟ هذا سؤال نعى ، ويعبى العالم ، تعبى ملوك الأرض بجوابه ، فأما ما يستطيع روسو أن يصنع بالعالم وملوكه ، فذلك يا للأسف واضح بين ، يضرب أعناقهم .

* * *

كان من أعجب العجائب أن ظهر فى القرن الثامن عشر — قرن الكفر والضعف . بين رجاله الذين كلهم تكلف وتصنع كأنهم تمائيل الخشب وعرائس الورق ، بطل كبير فى زى فلاح حقير يحمل الفأس ويسحب المحراث ، ألا وهو روبرت بارنز الاسكوتلاندى ، الذى جاء فى ذلك العصر القفر كالينبوع الشبم الفرات وسط البيسابس الملس ، أو كالفتقة الزرقاء فى الغيم المتلبد ، أو كمنظر السماء وزينتها خلال سقف القصر المزخترف ، إذ كان القوم لا يعرفون من سماء الله ونجومها إلا صورها المنقوشة بسقف ذلك القصر ، أو ما يمثلونها به من الأشكال النارية^(١) . فبينما هم فى

(١) التى يسمونها بالعامية « الصواريخ » .

وسط تلك الصور والأكاذيب ، انفرج لهم سقف المكان عن منظر السماء والكواكب فدهشوا ، أو تملكثهم حيرة ولم يدروا ماذا يفهمون من ذلك المشهد وماذا يقولون فيه . وبعد أن طالت بهم الحيرة أجمع رأيهم على أن هذه السماء ونجومها الباهرة ما هى إلا من قبيل تلك الصور والأشكال التى اعتادوا رؤيتها ، جهلا منهم وضلة وعماية . وماذا ترجو من أناس ختم الله على قلوبهم فهم لا يصرون ، وضرب على آذانهم فهم لا يسمعون ؟ فوأسفاه ! لبئسما تلقى به القوم هدية الله إليهم — ذلك البطل الجليل ، وبئس منزله بينهم وجواره فيهم ! ولا أعلم رجلا لقي من الغبن والوكس ، والتعس والنكس ، ما لقي روبرت بارنز ، فيالله أى جوهرة كريمة نبذت بأكناف صحراء ، وأى درة مكنونة ألقيت بكف خرقاء ، وأى بلبل صداح تقاذفته أيدي الأطفال ، وحر كريم تناشبتة أظفار السفلة الأندال !

أضاعونى وأى فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر
وكان أبوه صانعا فقيرا ، وقد حاول جملة أشياء فخاب فيها وما زال من عيشه فى عذاب دائم وبرح مستمر ، وقد حدثنا بارنز فقال : « كانت ترد على أبى طلبات الغرماء يتقاضون ديونهم ، فكانت تنخب أفئدتنا وتستذيب دموعنا — دموع الوالد الكدود المكدود المعنى المعذب ، وزوجه الجلدة الصبور ، وصبيتهما وفيهم بارنز كان لهم الله . لقد ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وحتمهم مشارعها العذبة وهى حل مباح للوراد ، ومنعتهم مراتعها الخصبة وهى طلق حلال لكل مرتاد . تأملوا — رحمكم الله — فى قوله : « كانت رسائل الغرماء تستذيب دموعنا » أى مشهد حزن ومنظر ألم ! وإننى ما زلت أرى فى والد بارنز بطلا صامتا وشاعرا مفحما ، ما كان ابنه لولاه ليكون ذلكم الشاعر الناطق والبطل الكبير ؛ ومما يدل على فضل ذلك الوالد شهادة معلم ابنه حيث يقول : « لقد جئت مدينة لندن وحضرت بها نوادى السراة والأعيان ، فلا والله ما لذ أذننى كحديث والد بارنز ، ولا نعمت فيها بمجلس كتلك التى أمتعتنى مدة حول مائدة ذلك الصانع المسكين » وقد كان فى الحقيقة مسكينا منغص الحياة مرنق موارد العيش جامد أخلاف الرزق ، لم يصادف نجحا فى السبعة الفدادين التى رزقه الله ولا فى أى شىء غيرها ، فكان بينه وبين الدهر حرب لا تنتهى ، كان المغلوب فيها أبدا ، وسوق لا تقض كان الخاسر فيها دائما . ولكنه ثبت فى تلك

الحرب طول عمره وما كان منه قط حيصة ولا فرة ، فيا له من كريم باسل أيد الركن ثابت الأس ، لا تهيل من جانبيه الحوادث ولا تخون من قطريه الكوارب والكوارث ، حمول يغضى على الأقداء ويردد أنفاس الصعداء ، وتضيفه النوازل والكرب فيقريها الصمت والسكون ، وتهم المصائب أن تلتهمه فيلتهمها ويجعل لها صدره الرحب قبراً لا تنبش دفيئته ، ولا ترد وديعته :

مفازة صدر لو تطرق لم يكن ليسلكها فردا سليك المقانِب

* * *

حليم إذا ضاقت بلاد بأهلها يضل الفضاء الرحب فى صدره الرحب يا له من بطل يناضل كتائب الدهر مستورا عن الأعين ، لا تسير محاسن ذكره جريدة يومية ، ولا تطير روائع خبره أسلاك برقية ، ولا تقيد نوادر مجده مصابد الشعر ، ولا تطلق غرائب همته شوارد النثر ، ولكنه لم يذهب عمله سدى ، ولا شىء فى العالم يذهب سدى ، نعم لم يضع من هذا ولده ! وأن يذهب فهذا روبرت بارنز سليه - وسليل عدة أجيال كلها أمثاله .

لقد خرج بارنز إلى هذه الدنيا مخفوا بالملكاه والشدائد ، بين سوء حال وسوء تعليم وكد ونصب ، يجتلس النظم من ساعات الكدح اختلاسا ، ويسترق النظر فى كتب الفحول استراقا ، ويكتب بلغة ريفية مجهولة إلا لإقليم صغير من البلد الذى ولد فيه . ولو كتب ما كتب باللغة الإنكليزية الشائعة ، لما شككت فى أنه كان ينال إجماع الناس على أنه من أعظم رجالنا . وإن كان فيما حمل ألوف الناس على معالجة لغته الصعبة واستفتاح أغلاقها عما أودعت ، وفض أختامها عما ضمنت ، دليل قاطع على أن هنالك جوهر مكنونا وسرا مصونا . وبعد فقد أحرز إقرار الكثيرين بالفضل واعترافهم بالقدرة والسبق ، وما تزال دائرة ذكره فى اتساع ، وصوت صيته فى ارتفاع ، وقد شرع الناس فى جميع أنحاء العالم السكسونى حيثما طارت الريح بلفظة إنكليزية ، يدركون أن من خير ما أنجبت التربة البريطانية رجلا فلاحا اسكوتلانديا اسمه روبرت بارنز . نعم ولا حرج على إن قلت : إنى أرى فى بارنز هذا جوهر كريمة بريطانية ، أبدى الله صفحتها وجلا رواعها وبهجتها ، على حين لا عهد للناس بالجوهر - نعم جوهره هى على لألائها ووقدتها أمتن الأشياء وأصلبها ، كالحجر

الكامن فى أحشاء الأرض - كالحجر ولكنه المطوى على آبار الرأفة والرحمة ، وعلى نيران الذكاء وزلازل الحدة والشهوة ، وعلى حلو النغم ومطرب الغناء .. طبع شريف خشن ، وسداجة قوة وعظمة فيها بوارق الحدة ، وفيها أنداء الرأفة ، فهى كإله الرعد « ثور » إله المزارع والريف .

ولقد حدثنى أخو بارنز وهو المستر جلبرت - رجل فاضل عاقل فقال لى : إن بارنز كان فى صباه شديد الفرح مستعذب الحديث جذل الكلام ، أذا لعب وضحك ومرح ، شريف الوجدان وفير العقل . وكان يوم هو غلام يثر الحب ويحصد الزرع ، أفرح حديثا وأعذب إشارة ، وأبعث لسرور الجليس بمراحه وجذله وانطلاق فكاهته منه فى سائر أطوار حياته . وهذا كلام جدير بالتصديق ، ومراح بارنز الغريزى وجذله الفطرى - ذلك الخلق الذى لا أشبهه إلا بشعاع الضحى أو بالزهر الضاحك فى رونق الربيع الجديد - ذلك الخلق ممزوجا بمرارة جده وحرارة حدثه ، وذوب رحمته ورقته كان من أخلب صفات بارنز . وكان ذلك البطل جم عتاد الأمل ، غزير مادة الرجاء ، ولم يكن بالمطرق الحزين خلى الشكوى والأنين ، رغما من شدة مصابه وطول عذابه ، وإنما كان ينفذ الأحزان عن كبده ، نفذ الغصنفر لؤلؤ الطل عن لبده . وكان كالجواد العتيق يستقبل قعقة السلاح بقهقهة الصهيل ، ويرقص على صدح الأبواق وقرع الطبول ، ويهز الأعطاف والأوصال كهز الكماة القنا العسال ، ويضرم الشدأ إما إضرام كتضريم الهند الحسام ، نيران الموت الزؤام ، فى الجيش الكثيف اللهام . ولا أرى مراح بارنز ونشاطه وأمله ، إلا نتائج ما أوتى من عواطف الحنان والرأفة - أصل كل فضيلة وأساس كل مكرمة .

وربما أخذك العجب إن قلت : إن بارنز هذا أكبر نوابغ البريطان فى القرن الثامن عشر ، ولكنى أوقن أنه سيجىء اليوم الذى لا يعجب الناس فيه من قولى هذا . وشعره على ما فيه من قوة وفحولة ما هو إلا حفنة طفيفة من كنوز فضله ، وثمره فجأة من بستان عقله . وقد قال عنه الأستاذ « ستوارت » كلمة تقال فى كل شاعر ذى قيمة ، وهى : أن شعر بارنز لم يكن ملكة خاصة فيه ، وإنما هو النتيجة العامة لذهن حاد متوقد مطبوع ، بدا له أن يعبر عن أفكاره بطريقة الشعر . هذا ولقد كان حديث بارنز

المرئجل العادى أبدع من شعره وأبدع من حديث كل مخلوق ، فكان أعجوبة القوم
ونادرة العصر و كان :

شرك العقول ونزهة ما مثلها للمطمئن وعقله المستوفز
إن طال لم يملل وفى إيجازه يهوى المحدث أنه لم يوجز
وكان حديثه كسلم الموسيقى قد جمع درج الألحان من أخفض جرس التحية وألين
عبارة الملاطفة ، إلى أرفع صوت الغضب وأشد صيحة الوجد ، وقيمة ضحك الجذلان
وزفير الولهان ، ورنه الثكلان ، وإيجاز المجترئ بإشارته ، وإطناب ابن المقفع فى
يتيمته .

* * *

وقد شهره الأميرات البارعات الأدب ، بأنه كان يخلبهن بحديثه ويستخفهن حتى
يكدن يطرن فى الهواء ، فهذا والله أعجب منه ما رواه النقادة النابغة المستر لو كهارت
عن خدمة الفنادق ، كانوا إذا رقدوا فى فرشهم للنوم فسمعوا بارنز يتكلم وثبوا من
مضاجعهم فالتفوا به وكلهم إقبال عليه وإصغاء لحديثه ، خدمة الفنادق ! وما لى
أعجب من ذلك ؟ أليسوا رجالا ينصتون إلى رجل ؟ ولقد قرأت وسمعت كثيرا فى
صفة حديث بارنز ، ولكن أجل ما بلغنى عن ذلك هو ما حدثنى به العام الماضى شيخ
مسن كان من أخص أصدقاء بارنز ، وهو أن بارنز ما فتح فاه قط إلا ألقى منه
حكمة . قال ذلك الشيخ : « وكان بارنز قليل الكلام كثير الصمت ، فإذا تكلم جلا
من غوامض الموضوع وأوضح من مشكلاته » . ولا أرى لماذا يتعرض المرء للكلام فى
الموضوع إذا لم يفعل كذلك ! وجملة القول إذا نظرنا إلى قوة نفس ذلك البطل
وفحولته فى كل ما نطق وكتب وصنع ، وشدة صراحته ، وسمو همته ، وكمال
مروءته ، ونفاذ بصيرته ، ووفرة رجولته ، تعذر علينا أن نجد له فى القرن الثامن عشر
نظيرا :

قد طلبنا فلم نجد لك فى السؤدد والمجد والمكارم مثالا
ولكننا إذا أجلنا النظر فى عظماء القرن الثامن عشر ، وجدنا بينهم رجلا فيه مشابه
من بارنز - وهذا هو ميرابو ، فهما فى الجوهر متشابهان وإن تباينا زيا وتخالفا ظاهرا ،

(الأبطال)

نعم إنهما سواء فى قوة البدن وقوة الروح ، كلاهما غليظ الرقبة شديد الكدنة^(١) ، كبير النفس ضخمة الفؤاد ، ولكن ميرابو أكثر صخباً وأشد دفعة وقلقا بالفطرة والنشأة والشبه القومى . ومزية ميرابو بعد هى الصدق والعقل ، ونفاذ رأى وحدة الجنان ، وكل أقواله جدير أن يحفظ ويمثل ، وما كلمته إلا طعنة الرأى فى حشا المشكل ، ولمحة برق اليقين فى دجى الشك :

المعى موفق يهدى الله له لدى الخطاة العياء العقام
وإذا باد الحوادث بالرأى أصاب الصواب بالإلهام

* * *

المعى يرى بأول ظن آخر الأمر من وراء المغيب

* * *

وكذلك كان بارنز ، وكلاهما كان جياش الصدر بمراحل الأهواء والشهوات ، طوراً تعصف عصاف الجنائب وتارة تخطر من النسيم ، وفى كليهما العارضة والبدئية والمزح والضحك والفكاهة ، والقلق والنشاط والتوقد ، والعزم والهمة ، والصدق والصراحة ، والجد والإخلاص . فهما من محتد واحد فى الكرم ، وإن تشعبت بهما بعد ذلك الأشكال . ومن جوهر بعينه فى النبيل ، وإن تنوعت بعد بهما الأعراض والأحوال . فلو أن بارنز شغل مكان ميرابو فى الحكومة والسياسة لأجاد مثله فى كليهما . ولكن شجاعته العتيدة كانت يالأسف تصرف فى أسر مهربى البضائع فى خليج سولوإى بتلك البحار الشمالية . وفى السكوت عن كثير من المغضبات ، حيث كان لا يجدى الكلام وإنما الحنق الأخرس . ولو صادفت تلك الشجاعة موضعها لأجملت اللد الخصام فى المناظرة ، واستحقت قول القائل :

كم حومة للخطاب فرجها والقوم عجم فى مثلها خرس
شك حشاها بخطبة عنسن كأنها منه طعنة خلّس

ولبّدت تلك الشجاعة لعيون الملأ طراً فى تدبير الدول وتنظيم الممالك وإصلاح شئون العالم . ولكن القوم — أعنى الحكومة — قالت لبارنز قول موبخ : « لست

(١) الكدنة : القوة .

للتفكير إنما أنت للعمل « فكأنها قالت له ضمنا : « لا حاجة بنا إلى قوة المفكرة — أكبر قوى البلاد في هذا القرن — وإنما نريد منك أن تمسح الأراضي ، ولسنا لغير ذلك نريدك » حسن والله هذا وجميل ! حتى لكأن قوة التفكير ليست في كل آن ومكان أهم ما تحتاجه الدنيا . أوليس شر الناس هو الرجل الذي لا رأى له ولا تفكير عنده ، ولا يرى وإنما يتجسس ويعيث ويتخبط ويهذى حقيقة الشيء الذي يزاوله ، ويظل حائرا مضللا لا خير فيه ولا ثمرة ؟ هذا هو شر الناس وهو الآفة والبلية . وعسى قائل يقول : ما بالك تعلن شكواك وندمك على ذلك ؟ أما تعلم أن ذا القوة قدما ممنوع من مجال إظهار قوته ؟ « نعم وذلك أضر بما نعيه وأبرح . وإذا كانت الشكوى قليلة الحدا فما ذكر الحقائق بقليلة . ولا يسعني إلا القول بأن استغناء العالم الأوربي عن مثل بارنز والثورة الفرنسية على الأبواب ، لا يدعوني إلا إلى الحزن والأسف .

وبعد فأهم صفات بارنز الإخلاص ، وهو أيضا أكبر مزايا شعره وعيشته ، وما قصيده الذي يتغنى به بمجرد تصورات وتوهمات ، وإنما إحساسات تجيش بخاطره وتثور بوجدانه . وسر ذلك وسر فضله في جميع أركان حياته هو الحق . وحياة بارنز هي ما يمكن أن نسميه رؤية محزنة سداها الحق ، ولحمتها الإخلاص . ولكن الإخلاص المر الوعر ليس القاسي ، ولكنه إخلاص جرىء ثائر يساور الحقائق ليروضها ويقتادها . ومن ثم ترى في جميع الأبطال روح التوحش والسطوة .

عبادة الأبطال — لقد يعزينا عن شقاء أولئك الكتاب الأبطال إجلال بعض الناس إياهم ، ولكن أى حالة عجيبة وصل إليها ذلك الإجلال ! أما إن في ازدحام خدمة الفنادق بباب غرفة الجلوس ، يرهفون الآذان لاستراق كلمة من كلام بارنز لإجلالا منهم لذلك البطل ، وإن كانوا بذلك لا يشعرون هذا . وقد أوتى جونسون في اللورد بوزويل أخشع محترم ومعظم ، وسخر الله لروسو أشراف الدولة وأمراء بيت الملك يودونه في غرفته الحقيمة ويجلون منه رجلا تقاسمته النوائب ، فشطره للبؤس وشطره للمس والخبيل . تناقض وأيم الله عجيب ، وحياة لا يلتئم طرفاها وينكر أسفلها أعلاها ، فبينما هو يجالس العيون والسراة ، ويؤاكل الرؤساء والقضاة ، إذا هو ينسج بيده سطور الغناء لينال من القوت مسكة الذماء . ومن مأثور قوله في هذا الصدد : « لقد حملت نفسي بالتغذى في منازل الأمراء على خطر الهلاك جوعا في منزلى » وفي ذلك

على عاشقيه ومعظميه من العار ما فيه . وعلى كل حال سواء نال الكتاب الأبطال حقهم من الإجلال أو لم ينالوا ، فهم أساتذة العالم يؤدّبونه ويحكمونه ويعظونه، وما نافذ فيه إلا كلمهم لا مرد لها ولا ملغى لحكمها . فعلى الكاتب البطل أن يفكر ويرى ، وعلى الملائ أن يدعن ويخضع ، وعلى الكاتب أن يأمر ، وعلى العالم أن يصدق ، وللعالم بعد أن يختار طريقة الإذعان والطاعة ، فإما قهرا وإما اختيارا ، وإما حسبة وإما اضطرارا ، إما صحو خريف فينان الظلال ، ناعثم الآصال ، طيب أرذان الصبا ؛ مصقول رونق الضحى ، وإما سحب صواعق تظطر الحين والبوار ، ونكباء تنسف الدور وتقتلع الأشجار ، طريقان متعاكسان مفضاهما واحد ، وصورتان متباينتان والجوهر فرد ، فإما نور مفيد وإما بريق مبيد ، وليس الأمر الهام هو ماذا نسمى البطل وبماذا نعامله ، وإنما هو الصدق كلمته ونصدق بأمره أم لا ، وإذا كانت كلمته صادقة وأمره الحق فسنعقدها ونعمل بها طوعا أو قسرا ، إن لم يكن بميلنا ورغبتنا فبرغم أنوفنا ، فأما هيئة استقبالنا إياه ومعاملتنا له ، فذلك من شئونا وراجع إلينا ، وأما كلمته فذلك رسالة الله إلى العالم ، ولا بد من أن نرغبنا على تصديتها وتستولى على نفوسنا .

وآخر أقوالى فى هذا المبحث كلمة عن أهم حوادث حياة بارنز ، أعنى وفدته على إدنبرج ، وطالما رأيت أنه قد كان فى رباط جأشه هنالك وثبات جنانه ، أوضح آية على وفرة رجولته ورجاحة فضله . لقد كان فى انتقاله من أسفل حضيض البؤس والكذب والخمول ، إلى أشرف ذرى النعمة والهناء والذكر ما هو جدير أن يطير بلب أى امرئ ويذهب بعقل أى إنسان . فبينما روبرت بارنز فلاح مسكين قد رزاه النحس ، أجزته الزهيدة سبعة جنيهاً فى العام - فعادت الدنيا فى عينيه أضيق من بياض الميم ، وخرج على وجهه يريد الهجرة إلى أمريكا ، إذا به قد ولج زمرة الأشراف والأمراء فأفسحوا له بينهم أكرم مقام ، وبوعوه صدور المحافل ، وخصبرته ربات القدود يسايرنه مزهوات بمسايرته ، رائيات إليه بأعين الجأذر ، عاطغات سواف الآرام^(١) وأتلت نحوه الأعناق ، وازدحمت فيه العيون ، فعليه من حلق نطاق ،

(١) سواف جمع سافنة وهى صفحة العنق . الآرام جمع رئم وهو الظبى .

والضراء ثقيلة على كاهل الرجل — ولكن السراء أثقل ، وفي كل ألف من النابهضين بعبء البؤس واحد ينهض بثقل النعمة ، ونادر في الناس من له أن يقول :

كلّ بلوت فلا النعماء تبطرني ولا تخشعت من لأوائه جزعا .
ولا نعلم في الناس من فوجئ من النعمة بمثل ما فوجئ به بارنز ، ولا نظن أن رجلا غيره كان يبدى ما أبداه من الرزانة والوقار . فلقد لقي ذلك الحادث الجليل لا حائرا ولا وجلا ، ولا هائبا ولا خجلا ، ولم يؤت من ذلة ولا استخذاء ، ولا من نخوة ولا غلواء ، وكان يشعر وسط هذا الجمع الزاهر أنه هو روبرت بارنز الفلاح المتواضع ، وأن هذه المرتبة السامية والجاه العريض ليس إلا من قبيل النقش في صفحة الدينار لا ينقص من قيمته ولا يزيد ، وإن الشهرة ما هي إلا ضياء يرسل على الرجل فيريك أى رجل هو ، ولكنه لا يجمل منه ولا يقبح ولا يشوه من صورته ولا ينقح ، غير أنه ربما قبح وشوه بما يملأ الرجل كبرا وغرورا ، ويصعر خده ويصلف جانبه ، وبما ينفخه حتى يتصدع فيعود كالأسد الميت خير منه كلب حى ، فبارنز فى هذا الأمر قد برع وفاق ، وجاء غرة زهراء فى جبهة السبق . ولكن هؤلاء الجماعة — عشاقه المعجيين به — هم كانوا سبب شقوته وموته ، هم الذين حرموه لذة العيش وحرّموا عليه طيب الحياة ! هم كانوا يلتفون به فى حقله ، ويحولون بينه وبين عمله ، لا يقعدهم عنه بعد الدار ولا شطط المزار :

فأضحوا ولو كانت خراسان دونهم رأوها مكان السوق أو هى أقرب
لقد أعىى عليه مع صدق الجهد والمحاولة ، أن يمحو ذكر نفسه من أذهان الجماعة ، وكم أراد ان يفصم عروة ما بينه وبينهم فما أفلح ، وهكذا تقلب عليه الدهر بالأكدار والمحن والخطايا ، وأدبرت عنه الدنيا وزايله الأمن والعافية والغبطة وحسن السمعة ، وأصبح إلا من الهموم والأشجان منفردا ، وإن فى ذكراه واللّه لحزنا وبشا ، وفيهم كانت زيارات القوم إياه إذا لم يكونوا يقيلون عثرته ، ويسدون خصاصته^(١) ؟ بلى إنه ما من رحمة كانت زيارتهم وإنما للهو والتفكه ، وذهبت حياة البطل ضحية ذاك .

(١) الخصاصة : الفقر .

قال ريشتر : إن فى جزيرة « صوماطرا » ضربا من جسيم الذباب يراق الأجنحة ،
يستصبح به سراة القوم فيجعلونه فى أطراف العصى كالذبال ويسيرون فى ضوئه .
وهكذا ينعم سراة القوم بأمثال النجوم الطوالع ، والشهب اللوامع ، فسلام الإله وريحانه
على تلك الذباب !

المحاضرة السادسة

البطل فى صورة ملك

كرمویل - نابليون

الثورة فى العصور الحديثة

الثورة الإنكليزية

نذكر اليوم آخر أشكال البطولة – ذاك الذى نسميه الإمارة ، وأمير الناس وقائدهم الذى عن رأيه يصدرن ، ولأمره يذعنون ، وبه فى جميع الأمور يقتدون ، واجدين فى ذلك الخير والفلاح والفائدة . إنه لجدير أن يوا من ديوان الأبطال صدره ويحمل فى دولة العظماء اللواء ، وإنما هو فى الحقيقة جملة البطولة على اختلاف أصنافها ، وهو الخلاصة والزبدة والعصارة ، وقد جمع الله فى ذاته سائر ضروب الأبطال ، وليس ذلك على الله بمستنكر .

وقد تعرض هنا مسائل خطيرة ومباحث معضلة ، يمنعنا من طروقها ضيق المجال . وإنما نذكر كلمة شبيهة بكلمة (بيرك) حيث يقول : (إسناد القضاء إلى نخبة من القضاة يشتركون فى إصدار الأحكام ، هو روح الحكومة) فكذلك نقول نحن : إن خلاصة أعمال المجتمع الإنسانى سواء سارت على طريق الخطأ أم على منهج السداد ، هو الاهتداء إلى أعقل رجال بلدك وأفضلهم وأحزمهم ، ثم تقليده الحكومة والسلطة ، وإعطائه الخضوع والطاعة ، حتى يستطيع بذلك أن يهذى الناس حسبما يلهمه عقله ويوحى إليه فؤاده . وإنما إلى ذلك قصدت لوائح الإصلاح والثورات الفرنسية وغير فرنسية ، اهتد إلى أعقل رجال بلدك وأكفئهم وارفعه إلى المكان الأعلى ، وبجله وأكبره تبرز لبلادك خير حكومة . وإنك إن تفعل هذا فقد بلغت المدى وكل شيء بعد ذلك فضول ولغو . فإن أعقل الرجال هو أيضا أكرمهم وأبرهم وأرحمهم ، وليس فوق

نصحه نصح . وقول الإمام إمام القول وكل ما يأمرنا به فهو ولا شك أحكم وأليق وأعلى ما نستطيع أن نجده تحت قبة الفلك . وهو ما يجب علينا أن نأتمره ونصدع به مع الحمد والشكر ! وتلك الحكومة هي الضالة المنشودة والغاية القصوى .

أقول الغاية القصوى والله يعلم أن الغايات تبلغ بالأمل ولا تنال بالفعل ، وللأمانى جياذ ساجحات تسبق وفد الرياح ، يرسلها الفكر فى مضمار الوهم فتطير بأجنحة الرجاء إلى كل غاية أبعد منالا من الثريا . فإذا طلبت تلك الغاية بأفراس العمل فى ميدان الحقائق قامت العقبات ، واعترضت النوب والآفات ، وسقطت الجياذ أثناء المضمار طلحا أنضاء ، حسرى الجهد والإعياء ، دامية السنابك من الجفاء ، مهزولة الأعطاف من الأين والوجى ، وكذلك تبقى الغايات منا طعمة المنى سخرة الواقع ، كالخيال فى المرآة يبيع العين ما يمنع الكف :

أو كالسماء وكل ما زينت به وكبعدها وكقربها من لاق وإنا وإن استحال علينا أن نبليغ الغايات ، فحسبنا أن نأخذ فى سمتها أو نقع منها على مسافة ترضى وتسرى ! ولا يقل أحد من الناس ما نهى عنه الشاعر الألمانى (شلر) إذ قال : « المرء تلقاء الحوادث ضعيف ، فلا يقس أحد منكم بمجهود النزر القليل بمقياس الكمال » ومن خالف هذا القول كان مريض العقل بداء السخط ، مأفون الرأى مصدودا عن الحق ، ولكن لا ينس المرء مع ذلك أن نجعل الغاية نصب العين فإنه لا يقوم عمود صلاح الدين والدنيا على أساسه ويستقر به فى نصابه ، حتى ينزل الإنسان قريبا من الغاية ، فإذا لم يتم له ذلك انهارت دعائم الصلاح وتقوض رواقه ، ونحن نعلم أنه ليس فى العالم بناء يمكنه أن يشيد جدارا فيجعله فى أقصى درجة العمودية ، أى أن يجعل الزاوية الحادثة بينه وبين سطح الأرض تسعين درجة بالضبط لا تنقص ولا تزيد درجة . كلا فهذا مستحيل علميا ، فكيف باستحالته عمليا ؟ ولكن إذا لم يدن البناء بالجدار من هذه الغاية بعض الدنو ، فأحر بجداره أن تنهار أركانه ، وينهدم جثمانه . نعم إذا استهان بقانون العمودية وطرح مقياسه ومعياره ، وجعل يراكم الطوب بعضه على بعض بلا نظر ولا حساب كيفما اتفق ، فأجدر به أن تسوء عقباه ويشقى ، فإنه قد أغفل أمره ونسى نفسه . ولكن قانون التوازن — ناموس

الطبيعة - لم ينس أن يسرى عليه وعلى بنائه ، وما هي إلا برهة حتى يسقط هو وبنائه فيرتد كتيبا مشوشا ومعهدا خربا .

وهذا هو أصل كل فتنة ، وتاريخ كل ثورة ، وحديث كل انفجار اجتماعي في الأزمان القديمة والحديثة . أجل إنما سببها هو أنك وليت الرجل العاجز وجعلت غير الكفاء على رعوس الأعمال - الرجل الخسيس السافل الدنيء الكاذب ، ونسيت أن هنالك قانونا أو ضرورة طبيعية تستدعي تولية القادر الكفاء ، وظننت أنه لا بأس عليك إن تراكم الطوب بعضه فوق بعض كيفما جاء واتفق ، بلا قاعدة ولا حساب . والرجل الكاذب إذا وليته كان جديرا أن يتخذ كل كاذب خبيث مثله ، ومن ثم يروح أمر الناس مختل النظام مبدد الشمل ، تأكل جوفه الخيبة ويهدم أركانه الشقاء والبؤس . وترى الملايين من خلق الله قد اضطربت عليهم أمور دينهم ودنياهم ، واسودت في عيونهم ظلمات اللبس والحيرة ، فهم يمدون الأيدي استهواء ولا هادى ولا مرشد ، ويسطون الأكف استعطاء ولا مانع ولا رافد . وحينئذ ينفذ قانون التوازن حكمه ، وتسرى نواميس الطبيعة ، وهي التي ما غفلت عن العمل طرفة عين ، فتشور الملايين ويجن جنونهم ويسقط البناء والبناء .

إن من يفتش الآن المكاتب العامة والخاصة ، يلقي بها أسفارا ضخاما ومؤلفات جساما تفيض في موضوع (حقوق الملوك المقدسة : ومعناه أن كل مالك مهما كان ، هو خليفة الله في الأرض قد ولاه الملك القدوس زعامة خلقه بعقد مقدس خفي ، فعقدت في رقاب العباد بيعته ، ووجبت عليهم طاعته ، واستحكمت في نفوسهم مهابته وخشيته) . تلك هي عقيدة القرون الغابرة ، ورأى آباءنا الأول . عقدة دفنت معهم في قبورهم ، ورأى بان بينهم ، ومذهب عفت رسومه وطمس الدهر أعلامه ، ومجلدات كالقبور تبلى فيها أفكارها ، وتنخر في أجوافها عظام محتوياتها ، لا يزورها إنسان ولا يعوج بها مخلوق ، وباطل لاح في ظلم الجهل ثم محا آيته نور اليقين ، ودولة زور استقل نجمها ثم نحوى ، واشمخر طودها ثم هوى ، وأكذوبة أدبل منها الحق . وإنى مع ذلك لا أرى من كرم الطبع وشرف الشيمة أن نتبع ذلك الباطل المدبر لعناتنا ، ونلحقه أهاجينا وشتماتنا ، فحسبه هزيمته وكفاه خزيه وفضيحته ، بل أرى - ولا يعجب القارئ ولا يرع - أنه لا يحسن بنا أن نترك هذا الزور والمحال يمضى من (الأبطال)

غير أن نفتش أجزائه ، ونفحص أنحاءه وأرجاءه ، ونقلبه بطننا لظهر علنا نجد فى ثناياه معنى من الحق ، وأن فيه لحقا يجدر بنا وبسائر الناس ذكره . أما قول هذه المؤلفات : « إن أى إنسان تأخذه عينك من بين الناس وتمسكه يدك فتجعل على رأسه صفيحة من الذهب مكللة بالياقوت والزبرجد ، وتسميه ملكا يرسل الله عليه فى الحال شعبة من نوره ، ويمده بروح من عنده ، ويعمر فؤاده بأسراره القدسية ، ويؤهله فى التو واللحظة لأن يحكم عليك حسبما تقتضى مشيئته ، فذلك حق وخرافة ، وحسبه منا أن نتركه يلى ويعفن فى أجواف كتبه ، أو بعبرة أصدق أجواف قبوره . ولكنى أقول — وهو ما عناه وأراده أرباب مذهب .. حقوق الملوك المقدسة .. : وهو أنه يوجد فى الملوك وفى جميع العلائق والمسئوليات والسلطات التى تكون بين الولاية والرعية . إما حق مقدس أو منكر شيطانى . لا بد من أحد هذين إذ أنه من أفحش الخطأ والكذب ما قاله القرن السالف الكافر ، من أن هذه الدنيا آلة ومكيئة ، بل إن فى الكون لإلهها ، وكل ما يجرى بهذا العالم من حكومة وإل وطاعة رعية ، بل كل عمل وحركة لا بد أن ييؤء إما برضى وإما بغضب من الله ، وأشرف ما يجرى بين الرجل والرجل هو لا شك الحكومة والطاعة . والويل لمن يطلب من طاعة الناس ما لا يستحق ، ولمن يأبى أن يؤدى من الطاعة ما أوجبه الله عليه لرعيم أو أمير . بذلك يجرى قانون الله المقدس مهما سنت شرائع البشر ونهجت نواميس الحكومات . نعم إن فى كل دعوى يدعيها الرجل على أخيه إما حقا مقدسا أو منكرا شيطانيا .

هذا أمر جدير بالنظر والتدبر ، وخلق أن نذكره فى جميع شئوننا ولا سيما فى أمر الزعامة والولاء أهم تلك الشئون . وعندى أنه شر من مذهب « حقوق الملوك المقدسة » هو ذاك المذهب ، إن العالم يدور على محور المصلحة الذاتية وتدبير الثروة ، وإنه لا معنى هناك مقدسا فى تعاشر الناس وتخالطهم ، وإنى أكرر عليك قولى : « إنك لن تأتبنى بالملك القادر الكفاء لأجعلن له على حقا مقدسا » . ولعل دواء أدواء الأمم فى هذه العصور هو أن يوفقها الله بعض التوفيق إلى إيجاد الملك الكفاء ، وأن يلهمها طاعته والانقياد إليه إذا وجد ! وإنى أرى فى الملك القادر — هادى الأمة فى سبيل الأعمال الدنيوية — خلة الدين كذلك ومعنى القسوسية . فهو أيضا هادى الأمة فى سبيل شئونها الروحانية التى هى مصدر الشئون الدنيوية . فالملك لذلك رئيس

الكنيسة أيضا . ولندع بعد مذهب « حقوق الملوك المقدسة » يلى فى أجواف مؤلفاته أو قبوره ، لا نوقظ صدهاء ولا نستثير هامته .

وحقا إن التماس الرجل الكفاء والحيرة فى ذلك لمن أشق الأمور وأجسمها ! وتلك هى آفة الأمم فى هذه العصور والأزمة الحرجة . هذه أوقات ثورات ، وإنى أرى بناء شئون الدنيا قد اطرخوا المقاييس والمعايير وأغفلوا قانون التوازن ، فانهار البناء بهم فإذا هم والبناء خليط أنقاض مشوش ! وليست الثورة الفرنسية هى مبدأ هذا التهدم والسقوط بل لعلها الغاية والنهاية . ولا نخطئ إذا قلنا إن المبدأ كان منذ ثلاثة قرون أى منذ نهضة لوثر ، وكان داء العالم إذ ذاك تحول كنيسة الله أكذوبة ، ووقاحتها وصفافاة وجهها إذ تدعى لنفسها القدرة على غفران ذنوب العباد بالدرهم والدينار ، وكان هذا مرضا فى الدين - داء فى الروح والجوهر . ومتى أدوى الجوهر واعتل الروح فأحل بالجسم والظاهر أن يفسد ويذوى - ثم يزداد فسادا ومرضاً ، لقد كان الإيمان قد فنى وباد ، وفاض الشك وتفشى الجحود والإلحاد ، وطرح البناء معياره ومقياسه وقال لنفسه : « أى قيمة لقانون التوازن ، وأى فضل فى الحساب والنظام ؟ ضع الحجر على أخيه كيفما جاء واتفق ، ولا يعينك أن تحشم النفس مراعاة قانون أو حساب ! » وكانت العاقبة يا للأسف كما تعلمون !

وإنى لأتبين اتصالا طبيعيا والتئاما تاريخيا ما بين مقالة لوثر إذ قال للبابا : « أنت أيها الملقب نفسه « البابا » إفكاً وزورا ، ما أنت بأب فى الدين ولا والد لنا فى الله ، إنما أنت أكذوبة يعجز اللسان أن يجد بين الألفاظ المهذبة الرقيقة ما يليق بنعتك وصفتك ! » وبين صيحة الثورة الفرنسية إذ علا بها ضجيج الثوار فى قصر الإمارة يصيحون « إلى السلاح ! إلى السلاح ! » . ولا يحسب الحاسبون أن هذه الصيحة المزعجة الجهنمية كانت شيئا حقيرا أو باطلا ! كلا إنما كانت صوت الأمم النائمة هبت من رقاد كاد يخنقها أثناء الكابوس - نعم صوت الأمم هبت من حالة بين الرقاد والموت فبدأت تشعر أن الحياة شئ حق ، وأن عالم الله ليس بممكنة تساس بالدهاء والمكر ، وتدبر بعلوم الاقتصاد والرياضة . نعم لقد هبت فأرسلت صيحة جهنمية - وإنما أتت جهنمية لأن طغاة الملوك وعتاة الحكام أبوا إلا أن تكون كذلك ، لقد هبت الأمم وقالت لا بد للأباطيل أن تنتهى ويخلفها نوع من الإخلاص كيفما كان ، ولا بد

لنا من عودة إلى الحق ولو جرت علينا أهوال ثورة فرنسية ، وجلبت على رعوسنا شر الفظائع وأشنع البلاء ، هذه هي الثورة الفرنسية - هي كما ترون حق ، ولكنه حق ملتفع فى شواظ الجحيم ولظى جهنم !

وكان قد ذاع لدى جماعات كثيرة من أهالى إنكلترا أن الأمة الفرنسية كانت فى تلك الأوقات (أوقات الثورة) قد جنت ، وإن الثورة الفرنسية كانت صنفا من الجنون تحولت فرنسا و فرق عظيمة من سكان المعمورة أثناءه مارستانا . ذلك كان رأى العدد العديد من الإنكليز وفلاسفتهم . إن الثورة كانت حريق جنون شب ثم حُمد وأصبح الآن فى عالم الأحكام والأوهام ، والقصص والعجائب ، والنوادر والغرائب ! فليت شعري كيف كان وقع الثورة الثانية - ثورة ١٨٣٠ فى نفوس هؤلاء الفلاسفة الذين حسبوا أن الثورة الأولى كانت فلتة جنون وبيضة الديك ، وأن حديثها أصبح كحديث الخرافات لا يكاد يصدق ؟ ماذا كان شعورهم حينما رأوا فرنسا قد ثارت ثانيا إلى السلاح تكافح كفاح المستميت تذبذب وتذبذب ، وكل ذلك لتؤيد الثورة الأولى وتحفظ آثارها ونتائجها ؟ نعم إن أبناء رجال الثورة الفرنسية وأحفادهم يبررون عمل آبائهم وأجدادهم ، ويأبون إلا تمسكا به وإصرارا عليه . هم لا يبرأون منه إلى الله ، بل يعملون على حفظ أثره ، واستنتاج ثمره ، باذلين الدماء والأرواح فى سبيل ذلك . ولعل فى هذا الحادث (حادث الثورة الثانية) أكبر مصاب لأولئك الفلاسفة الذين أسسوا مبادئهم وشادوا مذهبهم على أن الثورة الفرنسية فلتة جنون تبرأ منها فرنسا ، ولا يعود بها الزمن أبدا ، نعم إن فى ذلك الحادث نكبة لأولئك الفلاسفة ، حتى لقد ذاب قلب الأستاذ الألماني « نيبور » كمدا وتقطعت نفسه حسرة ، لما بلغه نبأ هذا الحادث ، ثم اعتل على أثر ذلك وقضى نحبه قتيلا بدءا الأيام الثلاثة (هو اسم ثورة ١٨٣٠) وما هكذا تموت الرجال ! - ولست أشبه هذه الموتة إلا بموتة الشاعر الفرنسي الكبير (راسين) الذى قتله آن لويز الرابع عشر بجهمه^(١) مرة ورمقه شزرا ، فيا ليت الأستاذ الألماني علم أن الكرة الأرضية صلبة جلدة ، وأنها طالما تحملت صدمات الدهر وضربات القضاء ، وأنه ليس من البعيد أن تعيش وتبقى وترى دائرة

(١) عبس فى وجهه سخطا .

حول محورها بعد ثورة (الأيام الثلاثة) . ولقد جاءت تلك الثورة الثانية لتعلم الناس جميعا أن الثورة الفرنسية لم تكن قط فلتة جنون ولكنها ثمرة حرة من ثمار هذا العالم — عالم الله ، وأنها كانت حقا يحسن بكل إنسان أن يعده حقا لا باطلا ولا جنونا .

وحقا أنه لولا الثورة الفرنسية لأشكل علينا ماذا نصنع بعصر مثل ذلك العصر الملعون ، ولعميت علينا وجوه الرشد ، واستبهمت معالم القصد وكنا لا محالة هالكين . وإنا لنرحب بالثورة الفرنسية ترحاب المشرفين على الغرق بالصخرة العبوس . وهل كانت الثورة الفرنسية إلا كذلك أو وحيًا صادقًا ورسالة حقا ، وإن راعت القلوب وأزعجت الخواطر في عصر تصنع وكذب — رسالة تنبئ أن للكون سرا ، فإن لم يكن إلهيا فهو إذن شيطاني ، ولكنه سر على أية حال . وأن التصنع والغش ليس بحق ، وأنه لا بد أن يتحول حقا ، وإلا اشتعل العالم تحت ما يستره من أثواب الغش واللؤم والباطل فأحرقها . وليت شعري إذا احترقت فصارت « لا شيء » ، أفهل كانت قبل ذلك إلا « لا شيء » . نعم بالثورة الفرنسية انتهى التصنع والغش والباطل الأجوф الفارغ ، وانتهى شر كثير وفساد جم . والثورة الفرنسية رسالة الله إلى الأرض صدع بها صوت من الرعد ، أو صرخت بها نفخة إسرافيل في الصور يوم القيامة ؛ فمن أسرع إلى اعتقاده أصاب خيرا وحمد العقبى ، ثم لا طمأنينة ولا صفاء ، ولا أمن ولا سلام أو تعرف هذه الرسالة حق اليقين . وقد كان الرجل وسط هذه الأباطيل والأكاذيب والأضاليل جديرا أن يصبر ويتنظر — جديرا أن يمضى في شأنه ويعنى بعمله ، ويعلم أن القلم العلوى قد جرى بحكم الهلاك والموت على هذه الموبقات والشرور ، وإن هذا الحكم الصارم قد كتب اليوم في الأرض بعد أن صدر في السماء . لقد كان الرجل المخلص جديرا أن يرى ذلك ، فيغتبط ويصبر ويتنظر ، ثم هو من وجهة أخرى إذا أبصر ما قد وقع فيه العالم من الأزمات والشدائد ، وصيحاته المتوالية يطلب انفراج الأزم وتراخي الخناق ، كان جديرا أن ينصرف بحكم هذه الضرورة عن شأنه وعمله إلى شئون أخرى ، لا سيما وقد نال السيل الزبى وبلغت الروح التراقي . وعندى أن أنفس الحقائق في مثل هذه الحوادث (حوادث الثورة) هي حقيقة « عبادة الأبطال » فإنها أجمل العزاء وأحسن السلوة في هذه

الأوقات ، وأملنا الوحيد نبي سياسة الدنيا وتدييرها . ولو أن الثورة هدمت جميع التقاليد والنظامات ، والعقائد والمذاهب ، والملل والنحل لسلمت لنا هذه الحقيقة ، فإن ثقتنا بأن الله مرسل لنا الأبطال ، وما جبلنا عليه من إجلالهم حينما يرسلون إلينا — هذه والله نعمة تشرق علينا كنجم هداية وسط غياهب الدخان وغياهب النقع ، ووسط كل انهدام وانفجار .

ولو أنك أسمعت ثوار الثورة الفرنسية كلمة « إجلال الأبطال » لوقعت منهم موقع التكذيب والإنكار ، ولأرخوا دونها حجب الآذان وقالوا حديث خرافة . فقد كان هؤلاء المجاهدون فضلا عن عدم احترامهم الأبطال لا يصدقون بوجود الأبطال ، بل لا يودون أن يجيء الزمن يبطل قط ، وكأنهم ظنوا أن الكون بعد أن تحول مكينة ، وهن وبلى حتى ضعف عن إخراج الأبطال وعقم صلبه منهم ، وإذا صح أن الكون قد أصبح كذلك فإنني قائل له أولى لك أن تكف بالمرّة عن إخراج الرجال ، فإننا لا نقبل بضاعة ليس فيها التحف والنفائس ، ولا نرضى بأنسجة ليس فيها الخرز والديباج ، أو بالاختصار لا غنى لنا عن الأبطال . أما مذهب « الحرية والمساواة » فقد كان من نتائج تلك الأحوال ، كان إذ ذاك شيئا طبيعيا فلذلك لا يجمل بى أن أرد عليه ، ومعنى « الحرية والمساواة » هو هذا « بما أنه قد استحال وجود العظماء والأبطال ، فللعالم الآن أن يستغنى عن هؤلاء الأفاضل النواذر بالجماهير العديدة المتساوية فى ضئولة القدر وخسة القيمة وخفة الأحلام وعجز الآراء » ماذا أقول فى هذا المذهب وبماذا أقابله إلا بعذر أربابه والسكوت عنه كحقيقة كان لا بد منها إذ ذاك ، ولا مفر ؟ ذهب أرباب ذلك المبدأ إلى أن الناس أحرار متساوون ، وإنه ليس لرجل أن يسود ويقود ويتسلط ، وحجتهم على ذلك أن عبادة الأبطال واحترام المسليطين والزعماء والقادة قد ظهر فسادهما وما هما إلا كذب وباطل . فحسبنا منهم ما كان ، لقد خدعنا من هذا الطريق مرارا حتى فويت الثقة به ، وطال تصديقنا حتى لا نصدق ، وإذا كثر بحال النقود الزائفة فى الأسواق كذب الناس بوجود الذهب الصراح . وإنه قد تصلح الأمور وتستقيم الحال بلا ذهب ، أنا لا آخذ القوم بهذه الآراء بل أعذرهم عليها ، وأرى أنها كانت ثمرة ذلك العصر الطبيعية ، وإن كانت صابا وعلقما .

وبعد فليس هذا المذهب إلا تحولا وانتقالا من الباطل إلى الحق وليس هو بالحق ، فإذا رثى (١) أنه الحق بأكمله فهو إذن باطل محض - نتيجة الشك الأعمى يحاول أن يكشف عماه ليبصر ، فإن عبادة الأبطال موجودة فى كل زمان ومكان . وما هى قاصرة على إجلال الملوك والسادة والسواس والقادة ، بل إنها لتمتد من عبادة الله إلى أخط مواطن الحياة العملية . وانحاء الرجل لأنحيه بالسلام ما لم يكن خديعة وملقا فهو من قبيل عبادة الأبطال ، واعتراف بأن فى كل إنسان خلقه الله روحا من الخالق ، وأن كل امرئ مظهر لجلال الله . وعندى أن الذين أبدعو إشارات التحية ودلائل الملاطفة والاحتفاء التى تجمل الحياة وترينها هم شعراء . وآداب المقابلة والمعاشرة ليست بكذب ولا باطل ، والولاء والإجلال المفرط المشرف على العبادة لا يزال من الممكنات بل من المحتمات .

وإنى أقول : إنه وإن رأينا كثيرا من أبطال العصور الأخيرة قد ظهوروا فى الثورات وكانوا ثوارا ، فإنهم بفطرة الله أبناء نظام لا ثورة ، واشتغالهم بالثورة بلية عليهم ومصيبة . إذ يرى أحدهم فى الفتنة وكأنه فوضى ، وما هو بفوضى ولا كانت الفوضى قط من شأنه ، ولكن جوا من الفوضى يحيط به ، وعقبات منها لا تزال تعتاقه وتعرقل مسعا ، وهو عدو الفوضى وخصمها ، وإنما النظام عمله وظيفة كل إنسان . وما خلق الله الإنسان إلا ليصلح الفاسد ويلم الشعث ، ويعمد إلى الشئ المختلط فيصبيه فى أبدع قالب من النظام ، ويلقيه فى أكمل صورة من التنسيق والإحكام . والإنسان رسول النظام ، أو ليس كل ما يصنع المرء فى هذه الدنيا هو تنسيقا وتنظيما ، فالنجار يعمد إلى الشجر الغليظ الأشعث فينعم نخته وثلثه ، ويحسن تقديره وتصويره ، ويجيد خرطه وصقله ، ويقلبه فى أعجب القوالب والصور ، ويتركه ذا نفع للناس ووظيفة فى المجتمع ، وقد خلقنا الله جميعا أعداء الفساد والفوضى . وإنه لمن البلية علينا جميعا وسوء الحظ أن نصرف عن التنسيق والتنظيم ، إلى التقويض والتعطيم ، وسوء الحظ فى ذلك والبلى مضاعفة على الرجل العظيم الذى يكون حبه للنظام على قدر عظمتة .

(١) رثى فعل ماض مبنى للمجهول والضمير عائد على المذهب .

وكذلك نرى أن أشد أعمال الثورة الفرنسية جتونا كانت تسير نحو النظام . أقول وليس رجل من أولئك الثوار قد طار فى دماغه جنون الحق والفتك إلا وهو مدفوع فى كل حركاته نحو النظام منجذب إليه ، وكيف وما حياته نفسها إلا مسيرة نحو النظام ، بل لهى النظام ذاته . إذ أن الفوضى هى الفساد هى الموت ، وما من فوضى ثور إلا ويجعل الله لها قطبا تدور عليه فتتحول بفضله نظاما . وما دام الإنسان إنسانا فسيكون للثورة رجل ك نابليون أو كرمويل تختم به وتتم . عجبنا والله كيف تكون عبادة الأبطال فى أزمان الثورة ضربا من المحال فى عقيدة الشعب السائر ، ثم لا نلبث أن تبدو للعيان فلا يستطيع أحد إنكارها ، وأرى « الحق المقدس » معناه على وجه العموم « القوة المقدسة » . فإذا حسبت الإمارة والسلطة فى عصور الثورة انمحت وماتت ، إذا بها قد عادت إليك فى شخص نابليون أو كرمويل ، وإنما هى المظاهر الكاذبة والقشور قد هتكت وأتلفت وظهرت الحقائق والجواهر من ورائها صحيحة خالدة ، وتاريخ نابليون وكرومويل هو ما سننظر فيه الآن إن شاء الله ، وهو آخر أصناف البطولة كما قسمنا ، وإنى أرى فى تاريخ هذين البطلين ما يعيد إلينا عهد الملوك فى طفولة الأمم ، إذ يرينا كيف كانت تنشأ الإمارة فجر تاريخ العالم ، وكيف كانت تولى الملوك يومئذ .

كرومويل - نابليون بونابرت

يعلم الذين نظروا فى كتاب الأبطال الذى وضعه الفيلسوف الإنكليزى توماس كارليل ، وعربه الفاضل محمد السباعى ، وأخرجته للناس مكتبة البيان أننا انتهينا فيما أظهرناه من هذا الكتاب إلى الكلام على كرومويل ونابليون بونابرت . وأنا الآن إتماما للفائدة ، ولأن كارليل خير من كتب على نوابغ العالم ، وكرومويل ونابليون هما من أنبغ النوابغ ، آثرنا أن نتحف قراء البيان بتلك الكلمات الإلهية التى خرجت من قلب ذلك الرجل الإلهى (كارليل) عن كرومويل ونابليون . قال كارليل تمهيدا للكلام على كرومويل .

* * *

لقد حدثت فى إنكلترا حروب داخلية كثيرة : حروب الوردة الحمراء ، والوردة البيضاء ، وحروب سيمون دى مونتفورت - حروب ليست من الأهمية بمكان . ولكن حرب الخوارج (البيوريتان) كان لها من الخطارة ما لم يكن غيرها . حتى ليحوز لى أن أسميها جزءا من تلك الحرب العظيمة العامة التى ليس إلا منها يتكون تاريخ الدنيا الحر الصميم - حرب الإيمان ضد الكفر ! جهاد حزب الله المتمسكين بالحقيقة ضد الكذبة الفجرة العاكفين على المظاهر والقشور . وقد لا يرى الكثيرون فى خوارج إنكلترا إلا عصابة سفلة غلاظا فظاظا مولعين بهدم الرسوم وإتلاف القوالب والأوضاع ، وأجدر بهم أن يدعوا أعداء الرسوم الكاذبة . ولعلنا نجد لهم عذرا فى احتقارهم البطريق « لود » زعيم الديانة إذ ذاك ، وحنقهم عليه وعلى أميره الملك تشارلس الأول . و « لود » هذا هو فى رأى ضعيف العقل منكود الحظ وما هو بالخائن اللئيم ، وإنما هو رجل أحق ؛ وأكبر حقه التمسك الأعمى بمذهبه والاستبداد الممقوت برأيه ، وهو كناظر مدرسة لا يرى فى العالم شيئا إلا قواعد مدرسته ورسومها وأوضاعها ، معتقدا أن هذه هى قوام الدنيا وعماد الوجود ، وأن صلاح الكون مرهون بها . والمحنة العظمى والطامة الكبرى

ان الملك تشارلس الأول عمد إلى هذا الرجل الذى رأى في الكون والحياة والوجود هو ما ذكرت ، وجعله الرئيس لا على مدرسة بل على أمة يدير من شئونها أكثرها إشكالا ، ومن حاجها ومصالحها أشدها اعتياصا وإعضالا ، ويرى هذا الرئيس الشقى المسكين أن تدار تلك الشئون والمصالح بالقواعد القديمة والنظمات العتيقة ، بل يرى أن نجاحها فى إعلاء شأن هذه القواعد وتأييد أسبابها ، ثم تراه كالأحمق الضعيف يندفع بأقصى الشدة والعنف فى سبيل غايته لا يجيل رأيا ولا يعمل روية ، ولا يسمع نهيا ولا يصغى إلى نصيحة .

جامحا فى العنان لا يسمع الزجر - ر ولا يرعوى إلى الرواض هو كما قلت رجل أعمى التعصب أحمق الاستبداد ، يأبى إلا أن ينفذ قواعده المدرسية على نفوس الأمة - قائلا للشعب : تنفيذ قواعدى قبل كل شئ ! له الله من مستبد أحمق . أبى إلا أن يجعل عالم الله الطويل العريض مدرسة ، ويأبى الله أن تكون دنياه مدرسة . وبعد فيغفر الله له أفلا ترون أنه لقي من العقاب ما هو أهله ؟ (وبعد) فالحرص على الرسوم والأوضاع حميد مستحب إذ أنه من شأن الديانات وغيرها أن تلبس الرسوم والأشكال ، ولا مقام للإنسان قط إلا فى الأمكنة ذات الرسوم والأوضاع . ولست أحمد فى المذهب الخارجى (البيوريتانى) عريه من الأثواب والقوالب ، وخلوه من الرسوم والأوضاع ، بل أعيب ذلك عليه وأراه عورة أحق بالرحمة والأسف - فأما الذى أحمد منه فهو روحه ولبابه ، وكل لباب وجوهر فلا بد أنه يلبس زيا ويسكن رسما وقالبا . غير أن من الرسوم ما هو ملائم صالح ومنها ما هو غير صالح ولا ملائم ، والحد الفاصل بين هذا وذاك هو أن القلب الذى ينمو وحده حول الجوهر بقوة الطبيعة ، يجيء ملائما لطبع الجوهر موافقا لغرضه وغايته ، فهو لذلك حسن صالح . وأما القلب الذى تجعله يد الإنسان حول الجوهر عمدا فهو قبيح فاسد ، وإنى لأنشدكم الله أن تتأملوا ذلك وتنعموا فيه النظر ، فإنه الفارق ما بين كاذب الرسوم وصادقها - بين الإخلاص المحض وبين المظهر الباطل فى جميع الأمور والأشياء .

نعم يجب أن يكون فى الرسوم عنصر صدق وباعث شديد من الحق ، وسأضرب لكم مثلا : الخطابة ، فماذا تقولون - أعزكم الله - فى الخطيب الذى

يهيئ الخطبة من قبل إلا أنه سوء آفة ؟ ثم ماذا تقولون فى الرجل المتصنع الابتسام المتكلف الانحناء للضيوف والزوار إلا أنه آفة كذلك وسوءة ؟ وإذا كنتم تعدون مثل هذين عورة وبلية ، فما قولكم فى رجل يأتيك فى أمر من أجسم أمورك ، فى أمر الدين والعبادة مثلاً ، يأتيك وقد غمر جلال الدين روحك وحير لبك وألجم لسانك ، فإنك مطرق حائر ساكت من شدة الانفعال والوجد وفرط التأثر والطرب ، مفضل السكوت على الكلام ، واجدا لسان الصمت أفصح وأعرب عما يكتنه صدرك ويضمرة حشاك من ذلك الوجدان العظيم والشعور الجسيم — يأتيك وأنت فى هذه الحال الشديدة فيتعرض لأن يعرب لك عن مكنون وجدانك بكلام باطل ؟ ماذا تقول لمثل هذا الرجل ؟ وماذا عندك له إلا الطرد والإبعاد ؟ لا أبعد الله غيره — بلى ليذهب ذلك الرجل عنك إذا كان يحب نفسه ! إنما مثله مثل من يأتيك وقد فجعتك المنون فى واحدك ، فأنت من شدة الحزن ملجم اللسان جامد العين ، فيقيم لك احتفالاً بشعائر الحداد مؤلفاً من ألعاب قدماء اليونان على هيئة يونانية قديمة . فمثل هذا الفضول والزور والتصنع جدير بالمقت والإنكار . وهو عين ما كانت تسميه الأنبياء وثنية — أى عبادة القوالب الفارغة والصور الجوفاء — تلك الذى يرفضها وسوف يرفضها كل مخلص صادق ، وكذلك يمكنكم أن تفهموا بعض الفهم أغراض أولئك الخوارج ومقاصدهم ، فترون فى الرئيس «لود» ودأبه فى تأييد الكاثوليكية وحواشيها من تلك الرسميات والإشارات والانحناءات والشعائر — ناظر المدرسة المصر على تنفيذ قواعده ونظاماته لا القسيس الحر المخلص المعنى بجوهر الدين صافحاً عن القوالب والقشور !

ولم يطق الخوارج هذه الرسوم فداسوها بالنعال ، وإنا لنعذرهم إذ جعلوا يقولون : لا رسم مطلقاً خير من هذه الرسوم . وقد جعل خطبائهم يمتطون صهوات المنابر عارية مقفرة إلا من الإنجيل يحملونه فى الأيدى . وهل ترون فى الكلمة تخرج من صميم فؤاد الرجل فتصيب حبات القلوب إلا أكمل مظاهر الدين وأجل صور العبادة ؟ وعندى أن أحشن الحقيقة وأعراها خير من أنعم الرسوم وأثراها . هذا وإن الحقيقة متى وجدت فهى الكفيلة لنفسها باللباس والكسوة ، ومتى وجد الإنسان الحى كان كفيلاً لنفسه بالملابس — إذا لم يصبها لدى الغير

أخذها بيده من مواد الأرض وصنعها بكفه . فإما أن تجيء بالثوب وحده فتدعى أنه ثوب ورجل - ١ - نحن - أعزكم الله - لا يمكننا أن نحارب فرنسا بجيش مؤلف من ثلاثمائة ألف ثوب أحمر .. ولا نجرؤ على تقديم هذه الثياب إلى ساحة الحرب إلا إذا كان فيها ثلاثمائة ألف رجل حتى يتنفس ! وإنى لا أزال أقول إنه لا ينبغي للثوب أن يفصل عن الجوهر ، ولا للرسم أن يطلق الحقيقة ويبين منها . وإذا فعلت الرسوم ذلك قام لها أناس فثاروا ضدها على أنها أكلوبة وزور . وكذلك ترون أن حرب الخوارج والرئيس « لود » لم تك فى الحقيقة إلا حرب الثوب والجوهر - حرب الرسم والحقيقة - حرب الباطل والحق - حربا ضروسا ثارت فى إنكلترا حينذاك واستمرت حقبة من الدهر ، وعادت علينا عواقبها بالنفع الجرم والخير الكثير . وكان الجيل الذى أعقب عصر الخوارج ليس بخلق أن يزن أعمالهم بقسطاس العدل . وكيف نرجو من مثل تشارلس الثانى ورجاله أن يعرفوا أقدار الخوارج أو يفقهوا معانى أعمالهم ؟ وأنى يكون ذلك الحكم العادل والنظر الشاقب من فئة كان لا يخطر بأذهانهم أن فى حياة الإنسان ذرة من الحق والصدق والمعانى المقدسة ؟ لقد ظل هذا الملك وأولياؤه يمثلون أشنع التمثيل بالمذهب البيوريتانى (مذهب الخوارج) كما يمثلون برجاله - فلو شهدت الحال إذ ذاك لرأيت البيوريتانية مصلوبة على الأعواد كأجساد أربابها . ولكن الصلب والتمثيل لم يعق من مسير نتائجها . لا بد للعمل الصالح من أن تسير آثاره مهما مثلت بأهله وأصحابه . نعم إنا لنطرح البصر ففسرنا محاسن آثار أولئك الخوارج ، ونرى الدستور والحرية والسعادة التى نتمتع بها الآن أغراسا زرعتها قرائحهم وسقوها طورا بأوعية الدموع وتارة بسجال الدماء . وهم الذين سنوا المذهب القائل بأن جميع الناس أحرار بالفعل أو سيكونون أحرارا يوما ما - أحرارا تقوم حياتهم على أمتن أساس من الحق والعدل لا التقاليد والباطل ! هذا وكثير غيره من حسن آثار الخوارج وجيل نعيمهم علينا .

والواقع أنه اتضحت مآثر الخوارج هذه وعلث فى النفوس مكانتهم وضرحت أقداء التهم عن حواشى أعراضهم ، واستنزلت عن أعواد الصلب ذكرى عهودهم واحدا بعد واحد . بل لقد قدست أسماء بعضهم وعدوا ضمن أولياء الله المصطفين

. وحسب من الأبطال أمثال إليوت وهامبين وييم ، حتى ليدو وهانشون وفان أولئك القساوسة السياسيون الذين إليهم يعزى ما ننعم به اليوم من حرية البلاد . أفيجرؤ اليوم إنسان أن يلوث بالدم أعراض هؤلاء ؟ وهكذا أصبحت لا تكاد تجد من بين القوم إلا من له أنصار يقومون بعذره ، وشيعة تشيع فى الناس فضله وتشيد له صروح الإجلال والإكبار . كلهم قد برأ الله ساحته ، وجمل فى النفوس مكانته ، وأعذب فى الأفواه ذكره ، وأدال له إلا واحدا هو سيد الجميع وفتى القوم - الملك الأكبر رافع لواء الحق - أوليفار كرومويل . فإننى أرى عرضه لا يزال مجال الألسن السالقة الأظفار الممزقة ، وأرى ذكره لا تزال مصلوبة فى أعالي الجذع وماله من عاذر ولا نصير ، والناس بمجموعون عليه بالذم والنكير ، وأنه شرير خبيث . هم لا ينكرون أنه كان رجلا كفؤا حازما شجاعا مدبرا ، ولكنه خان العهد فى نظرهم نقض العقد ، وكان فيه أثرة وجشع وغدر ومكر وتصنع ونفاق . حول ذلك الجاد العظيم المبذول فى سبيل الحرية إلى طريق منفعته الشخصية ، بهذه الخلال وأسوأ منها ينعنون أوليفار كرومويل ، ثم يقارنونه بالزعماء واشنجنجتون وسواه ، ولا سيما بالأبطال ييم وهامبين وإليوت الذين سلبهم ثمار أعمالهم العالية ، ثم أوسع تلك الثمار إفسادا وتشويها .

وليس بعجيب أن يكون ذلك رأى القبيح هو رأى القرن الثامن عشر ، والشئ من معدنه لا يستغرب ، وما قلنا فى خدام غرفة الملك منطبق تماما على الرجل الملحد ، كلاهما لا يفهم معنى البطولة ولا يعرف البطل إذا رآه ! والخدام ينتظر أن يرى للملك ثيابا فاخرة مرصعة بالذهب والفضة ، مرصعة بالدر والجوهر ، وحاشية كثيفة من الخول والأتباع ، وأبواقا تصيح وطبولا تقرع ، والرجل الملحد - رجل القرن الثامن عشر - ينتظر أن يرى للإمام الرئيس قواعد محترمة ، أو ما يسمونه (مبادئ) . وينتظر أيضا أسلوبا خطايا نعتة الناس بالجودة والبراءة ، يحاج عن نفسه ويدافع فى أفصح بيان وأنق لهجة ، فيفوز باستحسان قرن كاذب متصنع كالقرن الثامن عشر ، وجملة القول إنه ينتظر ما ينتظره الخدام - أعنى زخارف ظاهرية وأثوابا وقشورا وقوالب ورسوم ليست من الحق فى شئ . كلاهما يريد الزخرف والزينة السطحية ليقر بأن صاحبها

ملك وبطل ، فإذا برز لهم الملك فى سيمياء الكشف والخشونة ، وزى الفقراء والصعاليك أنكروه وقالوا ليس بملك .

وما كنت قط لأقول صراحة أو تلميحا أدنى ما يحط من أقدار رجال كاليوت . هامبدن وبيم ، أولئك أقر لهم بالنفع وأشهد لأعمالهم بالنفع ، ولقد قرأت كل ما يسر لى مما كتب ، ونيتى وإرادتى أن أستلذ عهودهم وأعجب بأنبائهم وسيرهم . أعبدتهم عبادة الأبطال . هذه نيتى وإرادتى ولكنها لسوء الحظ لم تتحقق ، نعم لقد كنت أحمد ظواهر أولئك الرجال ولكن نفسى لم تجد تمام الارتياح لبواطنهم ، ولا أنكر أنهم كانوا عصبة كراما أمجادا يمشون الهوينى عليهم برود العزة وسرايل الجلال ، فإذا طقوا فما شئت من حكمة ولب ، تجرى الفصاحة بين قلوبهم وألسنتهم ، وتحول لفلسفة بين لهواتهم وشفاههم ، ويتحدرون بالخطب البرلمانية تحدر السيل ، ويتدفقون بها تدفق اليعسوب ، ويأخذون فى الأغراض التشريعية والاقتراحات الإدارية فيطيلون عنان القول ، ويمألون الدلو إلى عقد الكرب (١) ، مرسلين الحكمة فى عرض كلام كالجوهر المنشور ، تحول على صدره قلائد البيان ، ويطرد فى أثناؤه ماء البديع ، ويتحير فى حواشيه رونق الحسن - فحبذا هم من رجال أساطين علم وأئمة تشريع وأولى عزة ومجد وجلال . ولكن قلبى بعد كل ذلك لا يخف لهم ولا تجيش أحشائى ولا تهتز حوائجى ، اللهم إلا خيالى فإنه قد يحاول أن يجد لهم بعض الإجلال . وأى رجل فى وجود تعزوه الأريحية ويهزه الطرب ويلتهب قلبه شوقا لهؤلاء النفر ؟ كلا لقد أصبحت راجهم وأنباؤهم غاية فى الجمل والثقل : نعم إن بلاغة أولئك الفحول قد تكون أبهر لأشياء وأروعها ولكنها شئ ثقيل - ثقيل كالرصاص ومجذب كالصخرة الملساء . جملة القول إنه لم يبق فيها لقراء العصر غبار لذة ولا ظل مطرب ومستمتع ! فإن أبيت لا امتداحها فقل إنها كانت كأسا رشف الدهر أطيبها وأعذبها فلم يبق إلا صباية مرة كدرة ! فسلام على أولئك الفحول ، ولندعهم ثاوين مضاجع مجدهم وشرفهم ، ولتقبل

(١) قطعة من حبل تعقد بطرف الرشاء أى حبل البئر وتشد بها الدلو مثل فى توفية الشئ حقه وهو من قول العباس بن عتبة بن أبى لهب :
من يساجلنى يساجل ماجدا يمأل الدلو إلى عقد الكرب

على الرجل الخشن المتوعر الطريد المنبوذ أوليفار كرومويل فإن فيه وحده ضالتنا من المبادئ الإنسانية ، وكنوز الكرم الصراح والبطولة العالية . إن فيه لذلك وإن لم يكن فيه فصاحة وكتابة وبلاغة وخطابة ، وبراعة وخلاصة . وكم من بلغاء مصقولى جوانب اللسان رقاق حواشى الطبع ليس وراءهم كبير فائدة ، وما سرنا من إنسان نظافة كفيه إذا كان لا يقرب الأعمال إلا لابساً قفازه .

وبعد فلست أرى فى رضى القرن الثامن عشر عن خطباء الخوارج وزعمائهم إلا شعبة من رسميات ذلك القرن وكفرياتة ، وكيف وهم (رجال القرن الثامن عشر) يعيروننا أن يكون سبب دستورنا وحزيتنا هو « الخرافات الدينية » يقصدون بذلك مذهب الخوارج من « حرية العبادة » ، ويقولون : هلا كان لحريتكم مصدر أشرف وأسمى من « الخرافات الدينية » مثل « حرية وضع الضرائب » ؟ ويقولون : إنه كان من الوهم والخرافة والتعصب الأعمى والجهل المطبق بالفلسفة الدستورية أن يجعل آباؤنا الأول غايتهم الوحيدة هى « حرية العبادة » ، وإنما الغاية الوحيدة فى مذهب القرن الثامن عشر هى حرية وضع الضرائب « أعنى امتناع الإنسان عن دفع الدراهم من كيسه حتى يبين له السبب الذى يدفعها من أجله ، فأناس يجعلون هذا أول حقوق الإنسان لا شك جهلة أغبياء ، وأرى أنه لن تكون الدراهم وحدها قط باعثاً للعاقل على أن يثور ضد حكومته . وما زال الإنسان يرضى بدفع المال لحكومته بشرط أن يبقى له سداد من عوز . وإنى أجد أن الإنكليزى حتى فى هذه الأوقات إذا لم يرض أن يدفع للحكومة ضرائب عديدة من غير أن يبين لها أسباب دفعها ، اضطر إلى أن يهاجر وطنه إلى غيره من بلاد الله . وكأنى بالإنكليزى يقول : « جابى الضرائب ! المال أخذوا مالى . بما أنكم قادرون على أخذه ومحتاجون إليه خذوه واذهبوا ودعونى وشأنى ، اتركونى وشغلى فإننى لا أزال فى دارى ووطنى قادراً على تجديد المال بالعمل . قادراً على العيش السهل المرضى بعد كل ما سلبتمونيهِ » . بهذا الكلام يجيب الإنكليزى رجال السلطة إذا أتوه يطلبون ماله ، فأما إذا جاءوه يقولون له : « اعتقد هذه الأكذوبة ، وأحسب أنك تعبد الله وأنت لا تعبدُهُ . ولا تؤمن بما تراه أنت أنه الحق . وإنما بما نراه نحن حقاً أو ندعى أننا نراه حقاً ! » كان جديراً أن يجيبهم

بقوله : « كلا ويمين الله . أنتم في حل من مالي تأخذونه متى شئتم . ولكنى لا أبيع دينى ولا أخسر عقيدتى . أما المال فذلك غنيمة باردة لآى قاطع طريق يتهددنى بسلأحه . ولكن نفسى ملكى وملك الله ، ودينى لن تغلبونى عليه ولا تخدعونى عنه ما دام فى حلقى نفس يتردد ، وسأدافع عنه بأخر قطرة من دمنى .

رقم الإيداع ٧٠٠٧ / ٩٤

I . S . B . N

977 - 11 - 0867 - 0